نَبِيُّ الرَّحمَة



سلسلة الحقيقة الصعبة (٢)

نَبِيُّ الرَّحمَة

(بحث في مجتمع مكّة)

أبو موسى الحريري

دار من أجل المعرفة
ديار عقل–لبنان
١٩٩٠

سلسلة الحقيقة الصعبة

١. قسّ ونبيّ، بحث في نشأة الإسلام الدينيّة
٢. نبيّ الرّحمة، بحث في مجتمع مكّة
٣. عالم المعجزات، بحث في تاريخ القرآن
٤. أعربيٌّ هو؟ بحث في عروبة الإسلام
٥. العلويّون النّصَيريّون، بحث في العقيدة والتّاريخ
٦. بين العقل والنّبيّ، بحث في العقيدة الدرزيّة
٧. رسائل الحكمة، كتاب الدروز المقدّس
٨. مصادر العقيدة الدرزيّة
٩. السلـــــوك الـــدرزي
١٠. مذبحة الجبل (حسْر اللّثام عن نكبات الشام)
١١. المسيحيّة في ميزان المسلمين

سلسلة الأديان السرّيّة

١. العقيدة الدّرزيّة
٢. تعليم الدين الدرزي
٣. النّبيّ محمّد في العقيدة الدّرزيّة
٤. العجل والشيصبان في العقيدة الدرزيّة
٥. رسالة درزيّة إلى النّصيريّين
٦. تعليم الدين العلوي
٧. الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النّصيريّة

دار من أجل المعرفة
ديارعقل–لبنان
١٩٩٠

مقدّمة

من أولى الأمور لمعرفة الاسلام معرفةُ البيئة التي فيها نشأ والمجتمع الذي فيه نمى. ولكنّ للمسلمين عاملا آخر لمعرفة الإسلام. هو الله. ألله الذي يعلو على شؤون البيئة، ويتخطّى أحوالَ المجتمع. إليه يصل الانسان بالوحي والايمان. وعلى العقل أن يخضع لمعطيات الوحي والايمان.

بيد أنّنا نعلم تمامَ العلمِ أنّ شؤونَ البيئة وأحوال المجتمع تساعد على فهم معطيات الوحي والإيمان. والعقل المتواضع يحتاج الى هذه وتلك. فالتاريخ والمجتمع والبيئة والعلم والعوامل الاقتصاديّة والسياسيّة... كلّها ضروريّة لفهم نشأة الاسلام وادراك معتقداته وعباداته وحسن الايمان به.

والاسلام، بهذه النظرة، منوط، الى حدّ بعيد، بالحركة التاريخيّة؛ بل هو ككلّ حركة دينيّة أو فكريّة، رهين البيئة التي نشأ فيها، وملتصق بالمجتمع الذي نمى فيه. وأحوال الانسان الاجتماعيّة هي التي تفرض نوعيّة النّظم الدينيّة وشكلَ العبادات والممارسات.

فالانســـان، في كلّ حال، هو الغاية. والدين كـان من أجله. والكلام على أنّ الدفاع عن حقوق الله علـى حساب كرامة الانسان يجعل الدين برّمـته غيرَ مجدٍ. وكـل إيمان بالله لا ينطلق من محبّة الانســان وكرامته وحـريّته هو دين حرب ومواجهة. والله بريء من كلّ دين أو تشريعٍ يكون الانسان فيه ضحيّة.

في رأي المسلمين، انّ الاســلام نشــأ مــع النبي مــحـمّـد، وتمّ مع النبيّ محمّد، ويستمر على ما هـو عليه طالما هم يعتمدون على «كتاب منزل» من عند الله، هو القرآن الذي لا تبديل فـيه ولا تحريف. هو «الحق اليقين»[1]، و«القول الفصل" (٨٦/١٣)، و"رحمة للعالمين"[2]...

ومع هذا نقـول: ان أحداث التـاريخ والظروف الاجتـماعـيّة والعـوامل الاقتـصاديّة والسيـاسيّة... كلّهـا ساهمت في نشأة الاســلام. ولئن كنّا نؤمن بمصدر القـرآن الإلهي، أو لا نؤمن، فانّ ذلك لا يمنعنا البتـة عن البحث في كلّ شيء: في مـا هو لله، وفي مـا هو لتطوّرات التـاريخ. وهذا الموقف لا يجـعلنا مؤمنين، كـما لا يجـعلنا كافـرين. بل نحن عن الحق نبحث. والبـحث عن الحقّ يستوجب لنا من المتديّنين بعض السماح.

على هذا رحنا نسأل: ماذا كان قـبل القرآن والإسلام؟ أكان هناك شِرْكٌ أم توحـيد؟ آلهـة أوثان أم «إله بني اسـرائيل»[3]؟ ونســأل أيضا: أكـان هناك مجتمع فاسد أم مجتمع يعـرف بعضَ مبادئ الخير والصلاح؟ كيف كانت مكّة عند ظهور الاســلام؟ وإلامَ صارت اليه بعـده؟ هل في القرآن إصلاح لمجـتمعِ مكّة أم فيـه اصلاح لمجتمعٍ عـالمي؟ وبكلمة: كيف كـان المجتمع الذي نشأ فـيه الاسلام؟.. وهل جاء النبيّ محمّد لاصــلاح هذا المجتمع أم لأجل رسالة عالميّة؟

---

(١) القرآن، سورة ٦٩ آية ٥١. وسنشير، فيما بعد، الى ذلك كما يلي: ٦٩/٥١.

(٢) أنظر: ١٠/٥٧؛ ٦/١٥٧؛ ٤١١/٤٤... إلخ.

(٣) إشارة إلى ما جاء في القرآن: «لا اله الاّ الذي آمنت به بنو اسرائيل» (١٠/٩٠).

وقد نقول: لو نشأ الاسلام في غير البيئة التي نشأ فيها لكان على غير ما هو عليه؟!

يدور البحث، إذاً، حول بيئة الاسلام الاجتماعيّة، على أنّنا عالجنا البيئة الدينيّة في كتابنا «قس ونبيّ». في كلامنا على البيئة الاجتماعيّة هذه لا بدّ من توضيح مقصدنا. ومقصدنا هو في سعينا وراء حقيقة نبحث عنها باستمرار. هذه الحقيقة نصوغها في سؤال يقلقنا، وهو: هل كان محمّد نبيّا مرسلا من لدن الله ليؤسّس ديناً؟ أم انّه جاء ليصلح مجتمعا فاسدا، فنجح، وأكسبه نجاحُه نبوّةً؟!!

إنّ خطورة السؤال تضعنا في خانة الكافرين لا محالة. ولكنّنا، قبل أن يؤخذ علينا الكفر أو الايمان نودّ السعي خطوة خطوة، مستلهمين لها المصادر الاسلاميّة ذاتها، التي يعتمدها المسلمون أنفسهم. وأهمّها القرآن الذي «هو مرآة صافية للعصر الجاهلي ولصدر الاسلام»[٤]. وثانيها كتب التفسير التي «هي ثروة تاريخيّة قيّمة تفيد المؤرّخ في تدوين هذا التاريخ»[٥]. وثالثها كتب الحديث وشروحها، وهي أيضا «مورد غنّي من الموارد التي لا بدّ منها لتدوين أخبار الجاهليّة المتّصلة بالاسلام»[٦]. ورابعها كتب السِيَر والمغازي التي، رغم طرافتها، تكّون أصلاً مهمّا لمعرفة أحوال مكّة والنبيّ. وخامسها الشعر الجاهلي الذي فيه قال عكرمة: «اذا أعياكم تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله، فاطلبوه في الشعر، فانه ديوان العرب، وبه حُفظتِ الأنساب، وعُرفتِ المآثر، ومنه تُعلِّمت اللغة، وهو حجّة فيما أشكِل من غيب كتاب الله وغريب رسول الله، وحديث صحابته والتابعين»[٧].

(٤) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/ ٦٦.
(٥) المرجع نفسه، ١/ ٦٧.
(٦) المرجع نفسه، ١/ ٦٧.
(٧) السيوطي، المزهر ٢/ ٤٧٠، ٢/ ٣٠٢، الجمحي، طبقات الشعراء، ١٠.

ولئن وفّق المؤرّخون المسلمون في كتابة تاريخ الاسلام، بعد الهجرة بمائة وخمسين سنة ونيّف، فانّهم لم يوفّقوا قط في كتابة تاريخ ما قبل الاسلام، ولم يظهروا أيّة مقدرة في تدوينه، ولا همّة في استقصاء أخباره، ولا براعة في تمحيص رواياته. وهو أمر يدعو الى التساؤل: فهل تعمّد المسلمون طمسَ أخبار الجاهليّة؟ يبدو ذلك. و «لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الاسلام، فزعم أن رغبة الاسلام كانت قد اتّجهت الى استئصال كل ما يمّت الى أيّام الوثنيّة في الجزيرة العربيّة بصلة، مستدلاً بحديث «الاسلامُ يهدمُ ما قبله»[٨]. ولئن لم يكن قصدُ الرسول هذا المعنى فانّ المسلمين لم يفهموا به الاّ هذا المعنى.

فالاسلام، الذي قضى، بنظر هؤلاء المؤرّخين، على الشرك والوثنيّة والشيَع والأحزاب... قضى، بالوقت نفسه، على كل أثر للمشركين والوثنيّين والأحزاب. وحتى مصاحف القرآن العديدة والمختلفة أُحرقت وأُتلفت، لكي لا يبقى الاّ مصحفٌ واحد يتوحّد عليه الناسُ في عقيدتهم[٩]. وقد وعى الخلفاء الأوّلون خطورة تعدّد الكتب والمصاحف، فعمدوا الى الجهاد ضدّها، ولم يُبقوا على كتاب واحد في الأصقاع التي افتتحوها، لكي لا يبقى الاّ كتاب الله الكريم، الذي «فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم».. وبسبب ذلك بات من الصعب على الباحثين أن يجدوا لهم مصادر ومراجع غير التي وضعها المسلمون، وتفنّنوا في وضعها. فما أدراك تكون النتائج؟

بقي علينا البحث في شرعيّة هذا السؤال الكبير والخطير: أكان محمّد نبيًا مرسَلا من عند الله، أم كان مصلحًا اجتماعيًا جاء يقوّم اعوجاجَ مجتمعٍ فاسدٍ؟ أكان محمّد يعي أنّه نبيّ، أم أنّ الظروفَ الاجتماعيّة جعلته كذلك؟ ثمّ

---

(٨) صحيح مسلم ١/٧٨. أنظر: جواد عليّ، المرجع المذكور ١/١٠٨.

(٩) أنظر كتابنا «عالم المعجزات»، رقم ٣ من «**الحقيقة الصعبة**».

بماذا نجح محمد أول ما نجح ؟ أنجح كمصلح اجتماعي ثار على الظلم والظالمين؟ أم أنه جاءً نبياً يُصلح مجتمعاً كافراً باللّه؟ لنا ملء الحرّيّة في طرح هذه الأسئلة. والمبادئ المشروعة لطرحها لا تقّل قيمة عن مبادئ الإيمان بالنبّوة. ولا نزال نؤمن في أمرين: با لله القدير على كل شيء، وبحريّة الانسان بقبوله ورفضه كل شيء. ولا يَدّعِيَنَّ أحدٌ باخلاصه بتديّنه وإيمانه باللّه، فيما هو يقضي على حرّية الانسان وكرامته، ويجمّد العقلَ في البحث في ماهيّة الأشياء جميعِها.

فاذا كانت هناك حقائق إلهيّة منزلة، يتوجّب علينا تقديسُها، فهناك أيضا للانسان حرّيّة، يتوجّب علينا تقديسُها. وعظمة الله تكمن في مدى تدخّل الله في حرّية الانسان دون أن يقضي عليها. وهذا ما يسمّى بـ« سرّ النعمة»، التي يهبها اللّه دون النيل من حرّيّة الإنسان. وبغير ذلك لا نستطيع فهم أيّ أمر الهي...

فالشك والقلق والحريّة والبحث المستمرّ... معطيات الهيّة في طبيعة الانسان. فلا الله ينزعها منهُ، ولا الإنسان يحقّ له أن يتخلّى عنها. وقد يبلغ الشكُّ عند الإنسان مبلغا يتحدّى به اللّهَ نفسَه. وهو أمرٌ شاءه اللّهُ نفسُه. حتى أنّ أيّ دليل على وجود الله لم يُفرَضْ على الانسان ليعيش الإنسانُ مع الله بارتياح وطمأنينة. فما أدراك يكون في سائر الأمور؟!! إنّ اللّهَ نفسَه يَخشى أن نطمئنّ اليه كثيرا، ونكّف عن البحث عنه. ونقف، مطمئنّين، عند حدود ما نرسمه من معطيات نظنّها أصبحت أكيدة.

من هذه المعطيات، مثلاً، أن ننسب الى الله كتاباً أزليّاً نزّله علينا تنزيلاً؛ وأن نجدَ فيه شريعةً أزليّةً أبديّةً، لا تبديلَ فيها ولاتحريف؛ وأن يُجبرنا بـ «دين» أوحى به من عليـاء سمائه؛ وأنّ يحدّدَ لنا عقائدَ جامدة ربطها بالأفق الأعلى؛ وأن نغار عليه غيرة تجعلنا نتقاتل من أجله؛ وأن يدعونا إلى تصنيف

البشر إلى مؤمنين ومشركين وكافرين وأهل كتاب وأبناء ذمّة وأبرار وأشرار... هذه كلها، والحقّ يقال، من صنع الانسان، والله منها بريء. واحدة فقط يطلبها الله، وهي أن يكون الانسانُ بالانسان رحيمًا. فلا يُفرض عليه، باسم الله، ما لم يَفرضه اللهُ نفسه. انّ اللهَ بريء من انسان يحبّه ويكره أخاه. بريء من كل دينٍ وكتابٍ وشريعةٍ وعقيدةٍ... اعتبرها الإنسانُ منزلةً من السماء فيما هي من صنعه ومن تطوّرات التاريخ.

يربأ الله أن يختار أناسا ليرذل آخرين. انّ نظريّة «الشعب المختار» هي نظرية قوميّة، تعصّبية. ألبشرُ كلُّهم مدعوّون ليكونوا من مختاريّ الله. ولم يكن لله يوماً شعبٌ خاصٌ ميّزه عن سائر الشعوب بالعصمة والاختيار. وليس له في الأرض «هيكلٌ» يُعبَد فيه على حساب أبنية الأرض كلّها. وليس له «كتاب» ضمّه هويّته وكمالاتِه يتحدّى به كتبَ العالم الداعية الى الخير والمحبة. وليس له «دين» يربط الانسانَ فيه « بـ«شريعة» منزلة.. كل انسان، عند الله، قيمة في ذاته. يقيم بينه وبين الله رباطا روحيا باطنيا عميقا، لا يحتاج معه الى أيّ انتماء يحدّ من حرّيّته. فما بال البشر يفرضون على الله قيودَهم !!!

ويُخشى أن يكون للهِ رجالٌ يتعصّبون له، فيما هم يتعصّبون لما هو لهم. يميّزون أنفسَهم عن سائر الناس، ليحظَوا، لأجل اسم الله، بقدسيّةٍ واحترامٍ واجلال، لا تليقُ الاّ بالله. يخصّون أنفسَهم بزِيّ وألقابٍ تحمل علامةً تعصّبِهم.. فهل يظنّ هؤلاء أنّهم، في امتيازاتهم هذه، يكوّنون ضميرَ العالَم يبكّتونَ الناس على تصرّفاتهم! هل يظنون أنّهم يعكسون في وجوههم روح الله وصورتَه! وينطقون بكلامِ الله! ويُستودعون أسرارَ الله ! ويعرفون أرادةَ الله! أي غشّ هو هذا الذي يُقيمون عليه! وأي مكر يمكرون به اللهَ والعباد!

مصيبة الدهر في «المعصومين». وليس من متديّن مذهول الاّ ويدّعي «العصمة». لكأنّ الانسانَ يتحدّى اللهَ في عصمته، ويحاشره في علمه...

ولكأنّ العصمةَ أصبحت، عند الانسان، عِوضاً عن ضَعفه، ومَظهرًا شديدا لكبريائه.. وفي هذ الحد من الادّعاء، بدل أن تقضي العصمة على الشر، نراها تغذّيه وتوسّع دائرته.. وكم أراد الانسانُ ردعَ الآخرين عن شرّهم، فاذا به يقوم بعنف هو أعنف من عنف الشرّ نفسه.

وما معنى «النبوّة» و«الرسالة» أخيراً؟ أحقًا يختار الله له رجالا يكشف لهم عن أسراره وأسرار الكون؟ أحقًا يبعث الله رجالا يحمّلهم كتابا منزلا من عنده، فيه علوم الدنيا جميعها، ويستمرّ قائما على مدى الدهر؟ لا بدّ من اعادة النظر في ما به نتّهم الله.

انّ الأنبياء، منذ القديم، كانوا، في بدء دعوتهم، اناسا صالحين مصلحين وقوّادا لشعوبهم، يدلّونهم على الخير وفعل الصالحات، ويُعِدّونهم لمرحلة أحسن ممّا هم عليه، ويَعدونهم بالخلاص ممّا هم فيه من مفاسد. وأفضل الأنبياء كان أولئك الذين تخطّوا اصلاح المجتمع الى عالم الروح، ودلّوا العالم على طرق المحبّة وعمل الرحمة. أمّا أولئك الذين فرضوا دينهم وشريعتهم فهم مختلسو نبوّة.

هذه الأمور هي من شرعيّة السؤال الذي نطرحه. فهل يقابلنا مدّعو العصمة والتنزيل بسماحة ورحابة صدر! وفيما نحنُ نبحثُ عن جواب على هذا السؤال الكبير، فليتمهّل المطمئنّون علينا. فنحنُ نبحث عن الحقيقة الصعبة. فليكن لنا منهم بعضُ الرّحمة لنعمل معاً من أجل الانسان، في البحث عن الحقيقة. وبذلك يتمكّن فينا الايمان بالله الذي نسعى إلى تحريره من حجم عقولنا. وخشيتنا كبيرة في أن يكون الله بحجم عقولنا.

ولئلا تكون الحقيقة سهلة اخترنا معالجة موضوع هو في غاية الصعوبة والخطورة. ونبحث فيه، لا انتقاصا من الدعوة الإسلاميّة العظيمة،

بل توضيحا لها. فلا بدّ، لأجل ذلك، من الكلام على البيئة التي نشأ فيها، وعلى الرسالة التي حملها، وعلى تطوّر الأحداث والأحوال. وعدّتنا في ذلك ما نعرفه عن مكّة، عن طبيعتها، وسكّانها، ومجتمعها، وأحوالها الاقتصادية والسياسية والدينية والحضارية، ثم عن أولويّات الدعوة المحمّديّة، في إصلاحِ مجتمع كان يدبّ فيه الفساد من كل جانب. ولو لم يتدارك محمّد، بقوّة شخصيتّه وذكائه، تلك المفاسد، لا مّحتْ عن سطح الجزيرة العربيّة، قبائل وعشائر برمتها. لذلك، كان أوّل ما قام به محمّد حربه على الفساد. وقد دعم دعوته، لنجاحها، بتعاليم ربطها بوحي السماء. فكان لدعوته نجاح عظيم.

الفصل الأول

طبيعة مكّة

أوّلاً - مَوقعُ مكّة الجغرافي

ثانياً - الفقر والجوع في مكّة

ثالثاً - حرّ مكّة وجفاف مناخها

رابعاً - ندرة الماء في مكّة



أوّلاً - مَوقِع مكّة الجغرافي

تقع مكّة بين اقليمي تهـامة والحجاز. بينهـا وبين دمشق مسيـرة شهر. ومنها الى عـدن شهر أيضا. تبعـد عن يثرب نحو مائتين وخـمسين كلم، وعن الطائف سبعين، وعن مرفأ جدّة ثمـانين. وهي «مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة»[١] .

وبناء مكّة «من حـجـارة سود وبيض ملـس.. حارّة في الصـيف؛ الاّ أنّ ليلهـا طيّب. وقـد رفع الله عن أهلهـا مـؤونة الاسـتدفـاء، وأراحـهم من كُلَفِ الاصطلاء.. وليس بمكّة مـاء جـارٍ. وميـاههـا من السمـاء. وليـست لهم آبار يشـربون منها. وأطيـبهـا بئـر زمزم. ولا يمكن الإدمـان على شربهـا. وليس بجميع مكّة شجر مثمر الاّ شجر البادية»[٢].

أطلق القرآن على مكّة أسماء عديدة. فهي : مكّة[٣]، وبكّة[٤]، وأم القرى[٥] والبلد[٦]، وإحدى القـريَتين[٧]، والوادي[٨]... ولها أيضـاً ألقاب عديدة، كـالبيت

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، لفظة «مكة»، ٥/ ١٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ٥/ ١٨٧ - ١٨٨ . شجر البادية أي النخيل.

(٣) «سميّت مكّة لانهـا تمكّ الجبارين، أي تذهب نخوتهم. ويقال: انما سـمّيت مكة لازدحام الناس بها». معجم البلدان ٥/ ١٨١ - ١٨٢. وردت في القرآن مرّة واحدة في ٤٨/ ٢٤.

(٤) سـميّت بكّـة ايضا «لازدحـام الناس بهـا. ويقـال مكّة اسم المدينة، وبكة اسم البـيت». معجم البلدان ٥/ ١٨١ - ١٨٢. وفي القرآن مرّة واحدة في ٣/ ٩٦.

(٥) القرآن ٦/ ٩٢ ، ٤٢/ ٧، أي عاصمة القرى.

(٦) القرآن ١٤/ ٣٥ ، ٣٥/ ٩، ٩٠/ ١ و ٢ ، ٩٥/ ٣، ٢/ ١٢٦، ٢٥/ ٤٩، الخ..

(٧) القرآن ٤٣/ ٣١، أي : مكة والطائف.

العتيق، لانّه عُتقَ من الجبابرة، والرأس، لأنّها مثل رأس الانسان، والحَرَم، والعرش، والقادس، والمقدّسة، لأنّها تقدّس من الذنوب، والباسّة لانّها تبسّ أي تحطّم الملحدين، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار[٩].

وأمّا عن شرف مكّة ومكانتها فقد جاء على لسان رسول اللّه قوله: «انّي لأعلم أنّكِ أحبُّ البلاد اليّ، وأنّكِ أحبُّ أرضِ الله الى الله. ولولا انّ المشركين أخرجوني منك ما خرجت». وعن عائشة قولها : «لولا الهجرة لسكنتُ مكّة. فإنّي لم أرَ السماءَ بمكانٍ أقرب الى الأرض منها بمكة. ولم يطمئنّ قلبي ببلدٍ قط ما اطمأنّ بمكّة. ولم أر القمر بمكانٍ أحسنَ منه بمكّة». وفي حديث صحيح عن النبيّ قال: «يا أيّها الناس! إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض. لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً»[١٠].

لقد احتفظت مكّة بمكانتها المقدّسة منذ البدء حتى اليوم. ولها اليوم شرف عظيم بأن لا يدخلها كافرٌ أو مشركٌ أو ذميّ. فهي محرّمة إلاّ على المسلمين[١١]. إنّها دار قرار وسلام، فيما سواها من بلدان دونها في المقام، إنّها دار الاسلام الأولى، وفيها لا تمارس الاّ الشريعة الاسلاميّة بدقّتها، لها على العالم بأسره كل الفضل، وليس للعالم عليها أيُّ فضل. شرفُها أنّها أعطتْ للاسلام من مميزاتها التي اختصّها اللهُ بها منذ الأزل. وقد اصطبغ الاسلام بما لها، وتأثّر بها، وأخذ عنها معظم شرائعه المدنيّة وليس على أحد أن يُنكر لها هذا الفضل الى الأبد

---

(٨) «واد غير ذي زرع» القرآن ١٤/٣٧.

(٩) معجم البلدان، ٥/١٨٢ - ١٨٣، ١٨٥.

(١٠) البخاري، باب العلم ٣٧، الترمذي، باب الحج ١، سورة التوبة ٩/٢٨.

(١١) الاّ أنّ «بورخاردت» السويسري دخالها سنة ١٨٢٩، وكذلك الانكليزي «برتن» زارها سنة ١٨٥٣. وكلاهما كتب عنها ووصفها بدقّة.

ثانياً - الفقر والجوع في مكّة

ألحجاز بصورة عامّة هو «بلد الجدب والفقر والضيق»[١٢]، فيما سوريا هي بلاد «الخمر والخمير والأمر والتأمير والديباج والحرير»[١٣]. وأكثر جدب الحجاز في مكّة، ذات الطبيعة الصحراوية القاحلة، اذ هي «اقليم صعب عسير، تجدب فيه الأرض، ولا تبتسم له السماء الاّ قليلا»[١٤]. وقد أشار القرآن الى كثرة الأمراض فيها، فتكلّم على «أولي الضرر» (٤ / ٩٥)، أي على «كل صاحب زمانة أو عمى ونحوه»[١٥]. ووصفها المقدسي بقوله : «يكون بالحرم حرّ عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة»[١٦].

وهي أيضا، بشهادة القرآن، قرية جدباء، لا زرع فيها ولا نخيل. يعيش أهلها على ما يُجلَبُ اليها من خارج، وما «يُجبَى اليها من ثمرات كل شيء»[١٧]. يأتيها «رزقها رَغدًا من كل مكان»[١٨]، لأنّها «وادٍ غيرِ ذي زرع»[١٩]، بل هي «بلدة ميتة»[٢٠]، و«بلَد ميت»[٢١]، أو أيضا «أرض ميتة»[٢٢]، يحييها الله من

---

(١٢) الاصفهاني، كتاب الأغاني ١٤ / ١٥٦ .

(١٣) المرجع نفسه ١٩ / ١٩٦، انظر الازرقي، أخبار مكّة ٥٥ .

(١٤) طه حسين، على هامش السيرة ١ / ١ .

(١٥) تفسير الجلالين على ٤ / ٩٥.

(١٦) المقدسي، جغرافيا ٩٥، ٨.

(١٧) القرآن ٢٨ / ٥٧، ٢ / ١٢٦. «قوت أهلها من غيرها» (اليعقوبي، جغرافيا صفحة ٢٣٦).

(١٨) سورة النحل ١٦ / ١١٢.

(١٩) سورة ابراهيم ١٤ / ٣٧.

(٢٠) القرآن ٢٥ / ٤٩، ٤٣ / ١١، ٥٠ / ١١.

(٢١) القرآن ٣٥ / ٩، ٧ / ٥٧.

سخائه[٢٣]، وينزل عليها من السماء ماء (٤٣/١١)، ويوجد فيها أنعاما (٢٥/ ٤٩)، حتى يجعل لأهلها فيها معايش[٢٤] لم تكن لها في طبيعتها الجدباء.

هذه البلدة الميتة «أذاقها اللهُ لباسَ الجوع» (١٦/١١٢)، وابتلى به أهلَها[٢٥]. وليس على المكّيين الاّ التوسّل الى الله «الذي أطعمهم من جوع» (١٠٦/٤). ولكثرة الجوع في مكّة عَمَدَ بعضُ الناس الى قتل أولادِهم، فحذّرهم الله بقوله: «ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق. نحنُ نُرزقهم وايّاكم»[٢٦]؛ كما حذّر الذين يبيعون بناتهم للزنى ليكسبوا أجورَهنّ بقوله: «لا تُكرِهوا فَتياتِكم على البَغاء لتبتغوا عرضَ الدنيا» (٢٤/٣٣).

وقد يكون الجوع، الذي اختبره المكّيون في حياتهم، من أشدّ عذابات جهنم. بل هو صورة صادقة كافية عن جهنّم. قال القرآن عن سكّان جهنم: «ليسَ لهُم طَعَامٌ إلاّ مِن ضَرِيع، لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوع»[٢٧]. في حين أنّ أفضل خيرات الجنّة يكمن في طعامها الدائم: «مَثَلُ الجنّة التي وُعِدَ المتّقون تَجري من تَحتها الأنهارُ. وأكلُها دائم» (١٣/٣٥). فيها «فواكه كثيرة» (٧٧/ ٣١) حُرِمَ منها أهلُ مكّة في حياتهم، فعوّض الله بها عليهم في جنّة الخلود.

هذه الصورة عن الفقر والجوع، التي أشار اليها القرآن، والتي عاشها المكّيون، لم تغب عن بال المسلمين الفاتحين الذين لم يهجموا هجمتهم الخاطفة الى بلاد الشام، الاّ بسبب الجُهد والفقر والجوع والبؤس الذي ضربهم في

---

(٢٢) القرآن ٣٦/ ٣٣.

(٢٣) القرآن ٥٠/ ١١.

(٢٤) القرآن: ٧/ ١٠، ١٥/ ٢٠.

(٢٥) أنظر:٢/ ١٥٥: «لنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات»

(٢٦) ١٧/ ٣١، ٦/ ١٥١.

(٢٧) ٨٨/ ٦، "ضريع" أي: شوك خبيث.

جزيرتهم القاحلة. لقد عرفَ المسلمون أنفسُهم، كما عرف عنهم ذلك أعداؤهم، بأنّ الذي دعاهم الى الفتوحات كان الجوعُ والفقرُ أكثرَ ممّا كان الدين:

نقل الينا الواقدي (+٢٠٧هـ / ٨٢٢ م)، أحدُ أقدم المؤرّخين المسلمين، صورةً ضافية عن فقر مكّة وأوضاع أهلها السيّئة. فجاء في خطبةٍ لعمر بن الخطّاب، بعد عزلِ خالد بن الوليد من قيادة الجيوش المسلمة، قال: «سمعتُ رسولَ الله (ص) يقول: مَن صبر على أذاها (أي أذى مكّة) وشرِّها كنتُ له شفيعًا يومَ القيامة». وأضاف عمر: «وبلادكم بلادٌ لا زرعَ فيها ولا ضَرْع، ولا ماءَ أوقرُ به الإبلَ لآمَنَ مسيرةَ شهر. وقد وعَدَنَا اللهُ مغانمَ كثيرة. وإنّي أريدُها للخاصّةِ والعامّةِ لأؤدّي الأمانةَ والتوقيرَ للمسلمين»[٢٨].

وفي مساجلة بين فلسطين بن هرقل وعمرو بن العاص، قال فلسطين: «شيمتكم أيّها العرب الغَدرُ والمكر. أجاب عمرو: «نريد أن.. نأخذ ما في أيديكم من العَمَارة والأنهار عِوَضًا عمّا نحن فيه من الشوكِ والحجارةِ والبَلَدِ القفر». فقال فلسطين: «أَعلَمُ أنّه ما حَمَلَكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم الاّ الجُهدُ العظيم». فردّ عمرو: «أيّها الملِك! أمَا زعمتَ أنّ الجُهدَ أخرجَنا من بلادنا! فنعم. كنّا نأكل خبزَ الشعيرِ والذرة، فاذا رأينا طعامكم واستحسنّاه فلن نبارحكم حتى نأخذَ البلادَ من أيديكم، وتصيروا لنا عبيدًا، ونستظلَّ تحت أصول هذه الشجرةِ العالية، والفروعِ المورقة، والأغصانِ الطيّبةِ الثمار. فإنْ منعتمونا ممّا ذقناه من بلادِكم من لذيذِ العيش، فما عندنا إلاّ رجالٌ أشوَقُ الى حربكم من حبّكم الحياة، لانّهم يحبّون القتالَ كما تحبّون أنتم الحياة»[٢٩].

وجاء على لسان هرقل عن المسلمين وأحوالهم الرديئة قوله: «هؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكْل الذرة والشعير الى بلاد خصبة

---

(٢٨) الواقدي، فتوح الشام ١/ ٩٦.

(٢٩) الواقدي، فتوح الشام ٢/ ٢١ – ٢٢ .

كثيرة الأشجار والثمار والفواكه، فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا. وليس ما يزجرهم شيء لما فيه من العزم والقوّة وشدّة الحرب»[٣٠]. ومرّة أخرى، وصفهم بقوله: «.. ألعرب، وهم أضعف الخلق، عراة الأجساد، جياع الأكباد»[٣١].

والكلام نفسه جاء على لسان وَرْدَان أحدِ قوّادِ الروم يقول فيه عن المسلمين الفاتحين: «إنّ أكثرَهم جياعٌ، وعبيدٌ، وعراةٌ، ومساكين. أخرجهم الينا قحطُ الحجاز وجوعُه وشدّةُ الضرر والبلاء»[٣٢]. ووَرَد على لسان هربيس الرومي بَطْريقِ حمص يقول لجماعته: «إنّ العربَ مَثَلَهم كمَثَلِ السَّبُع إذا وجَد فريستَه لم يرجع الى غيرها. وهم قد لحقهم الجوعُ في مدينتكم. واذا أشبعناهم انصرفوا عنّا»[٣٣].

وجاء أيضا على لسان بولص قائد قوّاد الروم في مصر ما توجّه به الى المسلمين الفاتحين بقوله: «قد علمنا أنّكم كنتم في بلادكم، قبل أن تفتحوا البلاد، في قحط وجوع، وتموتون هزالا. وقد ملكتم بلاداً، وشبعتُم لحماً، وركبتم خيولاً مسوّمةً، وتقلّدتم بسيوفٍ مجوهرة، وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم»[٣٤].

والشيء نفسه عرفه الفرس واختبروه عن المسلمين الفاتحين. فها هو كسرى يَجمَع قوّاده ويُعلمهم : «إعلموا أنّ هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد فهم ينظرون لهم مواضعَ يسكنون اليها، وينزلون فيها.. واعلموا أنّ

(٣٠) المرجع نفسه ١/ ٤١ .

(٣١) المرجع نفسه ١/ ١٦١ .

(٣٢) المرجع نفسه ١/ ٦١.

(٣٣) المرجع نفسه ١/ ١٤٩، و١/ ٩٨.

(٣٤) المرجع نفسه ٢/ ٢٣٧ .

العرب لهم الطمع..»[٣٥].

وفي مصادر أخرى عديدة، غير الواقدي، نرى الشيء نفسَه يتكرّر. ففي مروج الذهب نرى قول المغيرة بن شعبه لذي الجناحَين ملكِ نهاوند: «إنّا معشر العرب! كنّا أذلّة يطؤنا الناس، ولا نطؤهم، ونأكلُ الكلابَ والجِيَف»[٣٦]. وفي اليعقوبي قولٌ لقُصَي جَدِّ قريش: «ولا أعلم مكرمةً عند العرب أعظمُ من الطعام. فليُخرِجْ كلُّ انسان منكم من مالِه خرجًا». ويعلّق اليعقوبي بقوله: «فثبتَ المُلكُ في يد قُصَيّ بسبب ذلك»[٣٧].

وكم صلّى النبيّ الى ربّه يقول: «أللهم إنّي أعوذ بك من الجوع»[٣٨]. وكم صلّى من أجل أمّته في قوله: «أللهمّ إنّهم جياع فأشبعهم»[٣٩]. وتأكد النبيّ بانّ الله «لا يقتل أمّتي بسَنَةِ جوع»[٤٠]. وقد عرف وقال: إنّ الله «لا يسلّط على أمّتي جوعا فيهلكهم به عامّة»[٤١]. وكم نصح لأمّته بقوله لهم: «أطعموا الجائع»[٤٢]. فعرف أخيرا نعمة الله حتى تأكّد: «أنّ الله أعطاني أن لا تجوع أمّتي»[٤٣].

ألجهد والفقر والجدب والقحط والبؤس والحرمان.. كلّها كانت في مكّة.

---

(٣٥) الواقدي، المرجع نفسه، ٢/ ١٨٤ .

(٣٦) المسعودي، مروج الذهب ٢/ ٣٢٣ .

(٣٧) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣٩ .

(٣٨) سنن ابي داود، باب الوتر ٣٢، سنن النسائي، باب الاستعاذة ١٩و ٢٠، سنن ابن ماجه، باب الاطعمة ٥٣.

(٣٩) سنن ابي داود، باب الجهاد ١٤٥.

(٤٠) ابن حنبل ٥/ ٢٤٢.

(٤١) ابن ماجه، باب الفتن ٩، ابن حنبل ٤/ ٣٣٢ و ٣٣٣، ٦/ ١٦ .

(٤٢) البخاري، جهاد ١٧١ ، أطعمة ١، مرض ٤؛ دارمي، سير ٢٦ ، حنبل...

(٤٣) سنن ابن حنبل ٥/ ٣٩٣ .

وبسببها زحف العرب، قبل الاسلام، بتجارتهم نحو بلاد الشام واليمن وغزّة ومصر والهند؛ وزحف المسلمون، بفتوحاتهم الخاطفة.. وهي التي قرّرت نوعيّة الحياة في مكّة والحجاز وتهامة ونجد والعروض، كما قرّرت مستوى شرائع القرآن، بما أجازت لهم من «مغانم» و «جهاد».

ولم تكن دعوة الاسلام الملحّة الى فعل الحسنات واتيان الصدقات مع اليتامى والارامل والمساكين وأبناء السبيل.. الاّ من وحي جوع مكّة وفقرها. وربّما أيضا لم تكن شريعة «قطع يد السارق» ومنع «الربا» الاّ لأجل ضرب جشع الأثرياء في أكلهم أموال الفقراء..

فلو لم يكن الفقر والجوع في مكّة الى هذا الحدّ، لما كان المسلمون في فتوحاتهم بلغوا الى هذا الحدّ، وبهذه السرعة الخاطفة. وتبقى كلمة الرسول في صلاته : «تعوّذوا بالله من الفقر والقلّة والذلّة»[٤٤] صورة صادقة عمّا كان عليه أصحابه في مكّة.

---

(٤٤) مسند أحمد بن حنبل، ٢/ ٥٤٠.

ثالثاً - حَرّ مكّة وجَفافُ مناخِها

وزاد في فقر مكّة وقحل طبيعتها شدّةُ الحرّ والجفافِ في مناخها. لهيبُ رمالِهـا، وحرارةُ شمسـها، جعلت أرضَهـا يابسةً قاحلةً جدباء؛ لا شـجر على سطحـها ينعم الانسـان بظلّها، ولا عـيون مـاء ترطّب أجواءها. ولا اخـضرار يخفّف من حدّة حـرّها. لا غرابة في ذلك، فمكة تقع في صحراء قـاحلة، تحجز عنها رطوبةَ البحر وأبخرته. وقد ذكر حديثٌ نبـويٌّ شدّةَ الحرّ فيها، فقال: «مَن صبر على حرّ مكّة ساعةً من نهار، تباعدتْ عنه جهنم مسيرةَ مائة عام». وقال: «ان حرّ مكّة هو جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءاً من حرِّ جهنّم»[٤٥].

وفي القرآن عن حرّ مكّة ومـقابلته بحرّ جـهنّم كلامٌ كثير. فـها هو يدعو المسلمين الذين تخلّفـوا عن الجهاد في غـزوة تبّوك بقوله «قل: نار جـهنّم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون»[٤٦]. ويعتبر انّ مـن نِعَم الله على الانسان في مكّة وفرَةَ الظلال والغمام والسراويل. قال : «والله جعلَ لكم ممّا خلقَ ظِلالا... وجعلَ لكم سراويلَ تَقِيكم الحرّ»[٤٧]. وقال أيضـا : «وظللنا عليكم الغمام»[٤٨].

ويوم يأتي الله، في آخـر الأزمـان، ليَـدينَ الانسان، سـيـأتي في ظلال وغمـام: «هل يَنْظرُون إلاّ أنْ يأتيـهم اللّهُ في ظَلَلٍ من الغـمام»[٤٩]. كمـا أنّه من

---

(٤٥) ابن حنبل ٢/ ٣١٣، ٤٦٧، ٤٧٨، مسلم، باب الجنّة ٣٠.

(٤٦) سورة التوبة ٩/ ٨١.

(٤٧) سورة النحل ١٦/ ٨١ .

(٤٨) سورة البقرة ٢/ ٥٧ ، انظر : ٧/ ١٦٠ .

(٤٩) سورة البقرة ٢/ ٢١٠ .

دلائل صحّة الايمان بالله أن يرى الانسانُ نعمةَ الظلِّ يمدُّه اللهُ عليه : «ألمْ تر الى ربّك كيف مدّ الظلّ» (٢٥/ ٤٥). وقد يكون الظلّ الذي يفقده أهلُ مكّة، من مباهج الجّنة التي يشتهيها المسلمون؛ الى درجة أن تتصف جنة القرآن بـ «ظلّ ممدود» (٥٦/ ٣١)، و «ظلٌّ دائم» (١٣/ ٣٥).

وهكذا هو حال المتّقين، فهم «في الجنّة في ظلال» (٧٧/ ٤١)، يتّكئون «على الأرائك لا يرون فيها شمساً» (٧٦/ ١٣). يُدخلهم اللهُ اليها مع «ظِلاً ظليلا» (٤/ ٥٧). فهم «وأزواجُهم في ظلال على الارائك متّكئون» (٣٦/ ٥٦). وجميعُهم «في ظلال وعيون» (٧٧/ ٤١)، «يتفيّئوا ظلالَه عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله» (١٦/ ٤٨)، و «ظلالهم بالغدو والآصال» (١٣/ ١٥). في الجنّة أشجارٌ وُصفت بـ «دانيةٍ عليهم ظلالُها» (٧٦/ ١٤)... أمّا أصحابُ النار فلا يَنعمون بأيّ ظلّ: «لا ظليل ولا يغني من اللهب» (٧٧/ ٣١).

وفي الأحاديث النبويّة صورةٌ أخرى رائعةٌ عن الذينَ يرضى الله عليهم، هؤلاء يمتّعهم الله بظلّه يومَ القيامة. يقول: «أظلَّه اللهُ يومَ القيامة تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظلُّه»[٥٠]. وهي نعمةٌ أعطاها اللهُ لرسولِه ليكونَ له ظِلٌّ كظلّ الله. يقول: «أظلّه في ظلّي يوم لا ظلّ الاّ ظلّي»[٥١]. والمسلم الذي يحظى بالسعادة القصوى «يتقلّب في ظلّها في الجنّة»[٥٢].

وقد يكون الظلُّ، أخيراً، من براهين القرآن على وجود اللّه: فاللّهُ هو الذي "جعلَ لكم ممّا خلقَ ظلالاً" (١٦/ ٨١). وعلى المسلمين أن يعتبروا.

---

(٥٠) سنن الترمذي، باب البيوع ٦٧، سنن الدارمي، البيوع ٥٠، مسند ابن حنبل ١/ ٧٣، ٢/ ٣٥٩، ٣/ ٤٢٧ الخ...

(٥١) صحيح مسلم، باب البر ٣٨، الدارمي، باب الرقاق ٤٤، ابن مالك، الموطأ، باب الشعر ١٣ ، ١٤ ، ابن حنبل، ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨. الخ ...

(٥٢) مسند ابن حنبل ٣/ ١٥٤، ٢٣٠.

رابعاً - ندَرة الماء في مكّة

وساهم في فـقر أرض مكة ندرةُ الماء فيـها وقلّةُ الأمطار فوقَ سطحـها. وبحقٍ سمّي المطر «غيثا» لانّه يغيثُ الناسَ والأنعامَ من موتٍ محتّم. وليس في مكّة سوى بعض الآبار المحـفورة لسقايةِ الناس والسَـرْحِ؛ وكان أهمَّهـا شهرةً «بئر زمـزم»، حفرها عـبدُ المطلب جدّ النـبي قربَ الكعبـة. وقيل انّها من عـهد اسماعـيل. وقد جرى عليها خـصامٌ شديد بين زعماء مكّة، وذلك لشـدّةِ حاجةِ الناس اليها والى الاستفادة من مائها والاستقلال بها.

وقد أشـارت كتبُ الاحـاديثِ والسِيَـر الى أنّ اللهَ فضّلَ قـريشًا بسَـبْعِ خصال، أهمّها وأعظمها «السـقاية»، الى درجةٍ أن اتّهمَ القرآنُ أصحابَه بجعلِهم سقايةَ الحـجّاج تعادلُ الايمانَ بالله والجهـادَ في سبيله. قال: «أجعـلتم سقايةَ الحاجِ وعمـارةَ المسجدِ الحرام كـمن آمن بالله واليوم الآخَر وجاهد فـي سبيلِ الله! لا يستوون عند الله»[٥٣].

ولقلّة الماء في مكّة اعتبر القرآنُ وجودَها نعمةً يمدُّ اللهُ بها الأرضَ فتنبتُ الزرع، وتسـقي الشجـر ، وتروي السَـرْحَ، وتحيي الناسَ، وتـفجّـر الينابيعَ، وتُبـعِد عن السكّان الـهلعَ والظمأ والمرض والموت. ووفـرتُهـا آيةٌ من آياتِ الله البيّنات. قال : «هو الذي أنزل من السماء مـاءً. لكم منه شرابَ، ومنه شجرٌ فيه تُسيمُون. يُنبتُ لكم به الزّرعَ والزّيتونَ والنّخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثّمرات. إنّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون»[٥٤].

---

(٥٣) سورة التوبة ٩/ ١٩ .

(٥٤) سورة النحل ١٦/ ١٠-١١

لا بدّ من ذكر بعض آيات القرآن -مع ما فيها من ترداد- تأكيدا على نعمة الماء التي أحيى بها اللهُ الأرضَ بعد موتِها. قال: «وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم»[٥٥]. و «هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء» (٦/ ٩٩). و «أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتّى»[٥٦]. و «نزّلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنّات رحب الحصيد» (٥٠/ ٩). و«ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها»[٥٧]. و«جعلنا من الماء كل شيء حيّ» (٢١/ ٣٠). وبالماء فاضت الينابيع وتفجّرت: «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها» (١٣/ ١٧).

وكما أنّ الأكل والظلّ في الجنّة دائمان، كذلك الماء فهو فيها دافق أبداً : «ظلّ ممدود وماء مسكوب» (٥٦/ ٣١). وفي الحديث «انّ في الجنّة بحر ماء»[٥٨]. وما وعد الله بالماء الغزير والأنهار الجارية في الجنّة الاّ تعويضا عمّا حُرِم منه المكّيون في حياتهم الدنيا، ومكافأة للذين عملوا الصالحات. قال: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار»[٥٩].

وبسبب ذلك شدّد النبي في أحاديثه على «فضل صدقة الماء»[٦٠]، كأفضل صدقة يستحق المسلم معها الجنّة حيث «الانهار تجري من تحتها».

(٥٥) سورة البقرة ٢/ ٢٢، سورة ابراهيم ١٤/ ٣٢.
(٥٦) سورة ٢٠/ ٥٣. انظر: ٣١/ ١٠، ٣٥/ ٢٧.
(٥٧) سورة ٢/ ١٦٤، ١٦/ ٦٥، ٢٩/ ٦٣، ٣٠/ ٢٤.
(٥٨) سنن الترمذي، باب الجنّة ٢٧، أحمد بن حنبل ٥/ ٥.
(٥٩) انظر: ٢/ ٢٥، ٣/ ١٥، ٥/ ١٢، ٦/ ٦، ٧/ ٤٣، ٩/ ٧٢، ١٠/ ٩. الخ...
(٦٠) ابن ماجة، باب الادب ٨، صحيح البخاري، باب المساقاة ١.

خَاتمَة الفَصْل الأوَّل

مكّة إذاً قريةٌ فـقيرةُ الموارد، قليلة الخـيرات، شديدة الحرّ، جـافّة المناخ، شحيحـة المياه، مجدبة التربة، نادرة الأمطار، ضئيلة الرزق، ضـعيفة المواسم، صعبة المعاش. تحتاج الى سَنَدٍ لها من الخارج لتدرأ عنها خطرَ الجوع والموت. انّها صـحراء قاحلة محـرومة، محطّ ظلم الأرض والسمـاء : إِنْ أمطرتْ جَرَفَ السيلُ مـا عليهـا، وانْ جفّتْ ألهبَ الحـرُّ رمالَها. لا مـلجأ لسكّانهـا من غضبِ السماء. لا مأمنَ فيها من وحشٍ ضارٍ يبـحث عن فريسةٍ. كلّ ما فيها يدعو الى حتميّة الموتِ عليها. انّها بحسب وصف القرآن لها: «أرض ميتة»، تعوزها نفحة الحياة من أيٍّ مكان.

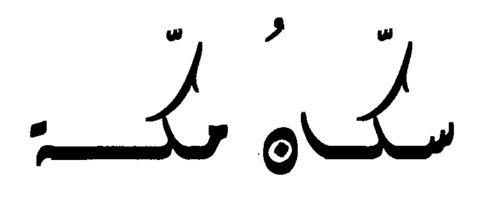
إلاّ أنّ اللهَ لا يتـركُ للمـوتِ باعًـا طويلا، ولا للفـقرِ والجـوعِ أن يمرحَـا ويستبـدّا. فنعمتُه تـشملُ كلَ مكان، ورحمتُـه تمسّ كلَّ إنسان: فكان على مكّة من نِعَم اللهِ ومـراحمِـه أنْ أوجدَ لها نوعًـا من المعاش اسـتعـاضتْ به عن ظلم الطبيعة وجدبها، وهو تجارتها الـواسعة التي تحدّتْ بها قديماً كل تجارة. وقد نتج عنها مالٌ وثراءٌ وحياةٌ ونعيم.

واليوم كما بالأمس، تنعم مكّة بما استخرجت من بطنِ الأرض من كنوز، وبما يأمّها في مواسم الحجّ من حجيج ومصلّين. ولها كل ذلك، بحسب تعبير القرآن «رغدا من كل مكان». يأتيها رزقها من «خارج».

ولكن، قبل التـعرّف على تجارة مكّة مـورد رزقها الوحـيد، أولى بنا أن نتعرّف على سكّانهـا، في ألوانهم وأنواعهم. فهؤلاء هم الذين قامـوا بالتجارة

في مكّة وجلبوا اليها الخيرات والأموال. فعوّضوا بذلك عن فقر طبيعها وقحط أرضها. وسكّان مكّة كانوا هم أيضاً من «خارج»، و«من كلّ مكان». معظمهم طارئون عليها. وبحسب تعبير الروايات الاسلاميّة «عرب مستعربة»، أي ينتمون الى العروبة انتماء. فلننظر.

الفصل الثاني



أوّلاً - قبلَ قُصَيٍّ مؤسّسِ قُرَيش

ثانياً - أسبابُ الهُجرة إلى مكّة

ثالثاً - قريش قبيلة التجمّع

رابعاً - سكّان مكّة من غير قريش



أوّلاً - قبل قُصَيّ مؤسّسِ قريش

منذ بدء البدء كان الله. وكان الملائكة في مكّة يسبّحون. ومنذ بدء الخلق أوجد الله مكّة على صورة لهـا في السماء حيث «البيـتُ المعمور يدخله كلَ يومٍ وليلةٍ سـبعـون ألف ملك»[1]. واندفـعتِ الناس صوبَ مكّة، وتدفّـقت منذ آدم وبنيه، حـتى ازدحمتْ بالسكّان، وارتكبوا فـيها الفواحش. فـأرسل الله عليهم الطوفان ليزيحهم عنها، ويطهّـر الأرضَ منهم. «فرفع اللهُ الكعبةَ وقتَ الطوفان الى السماء الدنيا»[2]. ثمّ انتهى الطوفان، فأعاد اللهُ الكعبةَ الى ما كانت عليه.

عن مُجَـاهِد قال: «لقد خـلقَ الله موضـعَ البيتِ قـبلَ أن يخلقَ شيـئا من الأرض بألفَي سنة». وعن كعبِ الأحبار قال: «كانـتِ الكعبة غثَاءً على الماء قبل أن يخلقَ اللّهُ السماواتِ والأرضَ بأربعين سنة». وعن ابنَ عَبّاس قال : «لمّا كان العرشُ علـى الماء.. بعثَ اللهُ ريحا.. وَدَحَـا الأرضَ.. فمادتْ ثمّ مـادت.. فكانت مكّةُ أمُّ القرى»[3].

بعد الطوفان عـادَ الناس الى مكّة، وقامتْ فيها قبـائلُ عديدة، وكان أوّلَ من اشتـهر منهم، قبـائلُ يمنيّةٌ أفسـدتِ الأرضَ وما عليها. عُـرفَ منها قبـيلتا «جِـرْهَم» و «قَطُوَرا». هاتان جـاءتا في الـوقتِ الذي جـاء فـيـه ابراهيمُ وابنُه اسماعيل من بلادِ الكلدانيّين. و «نكحَ اسماعيلُ في جرهـم»[4].

---

(١) الازرقي، أخبار مكّة ١/ ٣٤ .

(٢) الازرقي، أخبار مكّة، ١/ ٣٢ .

(٣) الازرقي، أخبار مكّة،، ١/ ٣٢، ٣٥ ، ٧٨ - ٧٩ وما بعدها.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ١٨٥ - ١٨٧ .

ولمّا توفّي اسماعيل تولّى أمرَ البيتِ بعدَه إبْنه «نابت». ثمّ وَلِيَ بعده مَضاضُ بن عمرو الجِرهمي خالُ أولادِ اسماعيل. ثم تنافستْ جِرهمٌ وقطورا في المُلك، وتداعَوا الى الحرب، فانهزمتْ قطورا. ثم تداعَوا الى الصلح.. ثمّ انّ جرهمًا بَغَوا بمكّة فاستحلّوا حَرَامًا، وظلموا مَنْ دَخلَها، وأكلوا مالَ الكعبة.

في هذه الأثناء جاء «العماليقُ» من سيناء ، هرباً من وجه موسى الى نواحي مكّة، وسكنوا مع جرهم الذين ملكوا واستبدّوا. ثمّ هجرتْ «خُزاعة» قبيلةٌ أخرى من اليمن، وفرعٌ من الأزد. وكان ذلك عقبَ خرابِ سَدٍّ مأْرِب. ووقع بين خزاعة، من جهةٍ، وجرهم والعماليق، من جهةٍ ثانية، معارك. فكان النصرُ لخزاعة التي «وَليتِ البيتَ ثلاثمائة سنة. يتوارثون ذلك كابِرًا عن كابر، حتى آخرهم حُلَيل بن حبشيّة»[٥]، الذي تزوج قُصَيٌّ ابنُ كِلابٍ إبْنَته حُبًّى.. فكانت، بنهايةِ حُليل، نهايةُ عهدِ بني خزاعة، وبدايةُ عهد قريش، على يدِ قُصَيّ.

وفي علم المؤرّخين المسلمين أيضًا أنَّ خزاعةَ، بعد تملّكها، أقامتْ عليها ملكًا اسمه «عَمرو بن لُحَيّ»[٦]. هذا كان أوّلَ مَن نصبَ الأوثانَ في مكّة، وأدخلَ اليها عبادتَها، وغيّر دينَ التوحيد، بعد أنْ كان «إلهُ بني اسرائيل» هو المعبود فيها. ووضع في الكعبة صنمَ «هُبَل» الشهير، وقد استقدمه من بلادِ الشام، وفرضَ سيطرتَه على سائرِ العشائر والبطون حتى صارت جميعُها تُقبِلُ على «هبل» للتبرّك منه. وبه قُضِي على ايمانِ ابراهيم الحنيف الذي، بمجيء الاسلام، سيعودُ ويُفرَضُ على شعوبِ الجزيزة كلّها. وعند «فتح مكّة» سيكون «هُبل »أوّلَ ضحيّةٍ من ضحايا الاسلام.

جميعُ سكّان مكّة، حتى الآن، نزحوا اليها من «خارج»، من «كلّ مكان». فهم طارئون عليها ودخلاء، «مستعربون»، أي منتمون إلى العروبة انتماءًا.

---

(٥) معجم البلدان، ٥/ ١٨٥ - ١٨٧ .

(٦) انظر ابن سعد ١/ ٦٦، الارزقي ١/ ٥٧، ابن الاثير ٢/ ٧ وغيرهم.

ثانياً - أسباب الهُجرة إلى مكّة

ألهجرة الى مكّة هي من ثوابت التاريخ الجاهلي. وهو أمرٌ سهلٌ إثباته. إلاّ أنّ أمرين مختلَفٌ فيهما: ألأوّل من أين كانتِ الهجرة؟ والثاني ما هي أسباب الهجرة؟ وأمران آخران يؤكّدان ذلك: الأوّل -وبشهادة المؤرّخين المسلمين أنفسهم- هويّةُ سكّان مكّة «الاستعرابيّة» أي انتماؤُهم الى «عروبةٍ» لم تكن لهم في الأصل. والثاني تنوّعُ سكّان مكّة وإتْنِيّاتُهم المختلفة.

يُجمع أهلُ الأخبار على أنّ معظمَ سكّان مكّة كانوا دخلاء عليها، ونازحين إليها من «خارج». فهم من مختلَف أنحاء الجزيرة المسمّاة عربيّة، ومن الهلال الخصيب، وأفريقيا الشماليّة. أي: من اليَمن، وبلادِ فارس والروم، ومن مصر والحبشة والسودان، ومن فينيقيا وفلسطين، وسوريا وبلاد ما بين النهرين.

واختلاط إتنيّاتِهم أدّى الى اختلاطِ أديانهم وتنوّعِ معتقداتهم ولغاتهم فكان منهم يهودٌ ونصارى وصابئة ومجوس وعبدةُ أوثان. كما كان في لغاتهم: الحِميرية والمِسنَد والثموديّة واللحيانيّة والدَيدانيّة والصفوانيّة والقبطية والحَبشية والروميّة واليونانيّة والعبرانية والأرامية والعربيّة، وغيرها... وحسناً قال اليعقوبي: «وكانت أديانُ العرب مختلِفَة بالمجاورات لأهلِ الملل والانتقال الى البلدان والانتجاعات»(٧). يعني: أنّ أديانَ العرب كانت من كل بلد مجاور لمكّة، وكانت مختلِفةً باختلاف الملل. وقد دخلتْ مكّة إمّا

(٧) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢٥٤. "الإنتجاعات" أي الذهاب في طلب العشب.

بواسطة المبشِّرين، وامّا بواسطة أعمالٍ تجاريّة[٨].

والنزوح الى مكّة كان على مراحل. وكان لألف سبب وسبب من أسباب الهجـرة والتهجيـر. وقد ابتدأ النزوح من اليـمن، منذ دولتي سَبَأ وحِمْـيَر في الألف الثالث قبل الميلاد. وتكرّر مراراً الى أن أصبحَ نزوحا عامّا بعد خرابِ سَدِّ مَأْرِب في منـتصف القرن السـادس للميـلاد. وقد اجـتاحتِ القـبائلُ اليمـنيّة مختلفَ أنحـاء الجزيرة العربيّة والهلال الخصـيب. وكان نزوح أيضاً من بلاد الكلدانيين، منذ ابراهيم الخليل وابنه اسماعـيل. وكذلك كان أيضاً من فلسطين في زمن جلاء اليهود الى بابل في سنة ٧٢١ ثم في سنة ٥٨٦ ق. م. واستمرّ النزوحُ كـذلك مع دولتي الفرس والـروم، حيث أمّ مكّة جـماعـةٌ من الأحبـاش والسـودان والأقـباط والـغساسنة والمناذرة حـتى نهـاية الأمـبـراطوريتين المتقاتلتين في زمن الفتوحات الاسلاميّة.

وأسبـاب الهجرة الى مكّة كـانت إمّا لعواملَ طبـيعيـة، أو سياسـيّة، أو اجتماعيّة... أحياناً كانت بسـبب كوارث طبيعيّة، من زلازل وبراكين وانحباسِ أمطار أدّى الى قـحط في الأرض، فاقـتتـال بسـبب المراعي، وبحث عن لقمـة العيـش على طرق القوافل... وأحـياناً كانـت بسبب معـارضة سـياسـيّة أدتْ بالمعـارضين الفاشِلين أو بالحكّام المغـلوبين الى ترك أوطانهم. أو أيضا كـانتْ هربا من ثأرٍ ينالُ دماءً مـهدورة ديّة القتـلى، أو كانت أيضا بسـبب البحث عن حريّة لا يجدُها طالبُـها إلاّ في البوادي الشاسعة. أو أيضـاً بسبب تجارةٍ أفلسَ أصحابُها، ودَيْنٍ ثقُلَ عليهم . أو أيضاً بسببِ اضطهادٍ ديني بين مذاهبٍ وأديان مختلفة...

هؤلاء النازحون من مختلَف الاصقاع والأمصار العامرة إلى بطاح مكّة حيث عـاشوا معظمُهم عـشائرَ وأفرادا، وسكنوا على طرق القوافل التـجارية،

(٨) أنظر كتابنا : «أعربيّ هو»؟ في سلسلة «الحقيقة الصعبة» رقم ٤ .

بحثا عن الحياة، إمّا بواسطةِ عملٍ ينالون أجرَه، وامّا بواسطةِ النهب والسلب والغزو. هؤلاء كلّهم عاشوا، إمّا في مكّة، وإمّا حوالي مكة، أو على الطريق الممتدّ بين مكّة والمدينة ووادي القرى وتَيماء مرورا بالبتراء حتى بلاد الشام حيث يتوافر الرزق والمال ومراعي الإبل الخصبة... حتّى إذا ما وافت نهاية القرن السادس الميلادي حصلت تجمّعات هائلة حول مكّة، للاستفادة من مكانتها الدينيّة وموقعها التجاري...

ولاستفادةٍ أكبر استطاع أحدُ زعماء مكّة من «تجميع» هذه العشائر في قبيلة واحدة سمّاها «قريشا»، أي «تجمّعا». هذا «التجمّع» لم يكن عربيًا خالصا؛ بل هو من «العرب الخلطاء» أو «المستعربة». وهم، في هذه التسمية، على حقّ وعلى ضلال معاً: على حقّ، لأنّ تنوّع سكّان مكّة واختلاط أعراقهم أفقداهم عروبتَهم القحطانية اليمنيّة الخالصة. وعلى ضلال لأنّ العروبة الخالصة لم تكن في مكّة من جهة اليمن، بل كانت من جهة «غربي الفرات». ومن نسبتهم الى «غرب» الفرات جاءهم اسمُ «عرب». ولفظة «عرب» في العبريّة والآراميّة والعربيّة القديمة تعني «غرب». وأصدقُ دليل على انتقال «العروبة» من غربي الفرات الى مكّة، يكمن في أصل «اللغة العربيّة» ونشأتها، وفي أصل «القلم العربي» واشتقاقه. كلاهما دخل مكّة على أيدي المبشرين النصارى من الحيرة والأنبار، وعلى أيدي تجّار مكّة الذين برعوا في تجارتهم مع بلاد الشام[٩]، منذ بدء تنافسهم التجاري مع تجّار اليمن، منذ عهد قُصَيّ حيث بلغت تجارةُ مكّة عزّها في عهده، على امتداد مائة سنة ونيّف. فمن هي «قريش».؟ وكيف نشأت؟

---

(٩) أنظر في ذلك كتاب «أعربيّ هو ؟» ، وهو بحث في أصل العروبة وعلاقتها بالاسلام، لأبو موسى الحريري، سلسلة «الحقيقة الصعبة» رقم ٤ بمجمله.

ثالثاً - قُرَيْشٌ قَبيلةُ التجمّع

كـان «قُـصَيّ أوّلَ مَن أصـابَ المُلكَ بعـد وُلد إسـمـاعـيل (بن إبراهيم الخليل)، على ما يـقول ياقوت الحـموي في معـجمه المشـهور. وذلك في أيّام المنذر بن النعـمان على الحيـرة والمَلِكِ بَهرام جـور في الفرس»[١٠]، أي حوالي مائة سنة ونيّف قبل مولد النّبي محمّد.

فـيكون قُصَـيّ الجدَّ الرابع للـنبيّ محـمّـد. توفّي أبوه وهو صـغيـر. فتزوّجت أمّه مـن ربيعة بن حرام، من قبيلة «بني عـذرة» النصرانية، التي هي فرع مـن فروع الغسـاسنة عمـلاءِ الروم. أخذته أمّـه الى أرض زوجهـا على مقربة من تَبّوك، من أرض الشـام. فسمّي «قصيّا» لإقـصائه عن بني قومه، أو «لبعد داره عن دار قومه»[١١]. ولمّا كبر جاءَ مكّةَ حيث تزوّج من حُبّى بنت حُليل الخزاعي، الذي ذكرناه آنفاً، وولدتْ له أربعة ذكور، هم : عبد الدار، عبد مَناف، عبد العِزّى، وعبد قُصيّ.

ولمّا استـقرّ أمرُ قـصيّ في مكّة، وكثر مـالُه، استولى عـلى المدينة، بعد موت حُليل الخـزاعي. و«جَمَعَ» حواليه شـتاتَ القبـائل والعشائر، وتزعمّـها، وسمّاها «قريشـا»، أي «تجمّعا». وفي ذلك قال ابن الكلبي: «انّمـا قريشٌ جُمّاعُ النسَبِ ليس بأب ولا بأمّ، ولا حاضن ولا حاضنة»[١٢]. وقال اليعقوبي: «وكان

(١٠) معجم البلدان لياقوت الحموي، ٥/ ١٨٧.
(١١) تاريخ الطبري، ٢/ ٢٥٥، السيرة الحلبية، ١/ ١١ -١٢.
(١٢) أنظر: طبقات ابن سعد، ١/ ٦٦، ٦٩، ٧١، نهاية الارب، ١٦/ ٢٠...

قُصيّ أوّل من أعزّ قريشا.. فَجَمَعَها وأسكنها مكّة»[١٣]. وقال ابن سيّده: «قرَشَ قرشا، أي جَمَعَ وضمّ من هنا وهنا»[١٤]. وقيل: «سمّيت بذلك لتقرّشها أي تَجَمُّعِهَا الى الكعبة بعد تفرّقها في البلاد»[١٥]. وقيل أيضا: «وقُصيّ هو جُمَّاعُ قريش. فلا يقال لأحد من فوقه قرشيّ»[١٦]. وفي ذلك قال الشاعر[١٧]:

قُصَيٌّ أبوكم كان يُدعى مُجَمِّعًا ... به جَمَعَ اللهُ القبائلَ مِن فهرِ.

وكان قصَيّ «رجلا جليدا حازما بارعا»[١٨]. وهو «أوّلُ رجلٍ من بني كنَانة أصابَ مُلْكًا، وأطاع له به قومُه. فكانت اليه الحِجابةُ والرَفادة والسِقاية والنَدوة واللِواء والقِيادة»[١٩]. وكان أيضا «أوّل من أعزّ قريشًا، وظهر به فخرُها، ومجدُها، وسناها، وتقرُّشها. فجمعَها وأسكنها مكّة، وكانت قبل ذلك متفرّقةَ الدار، قليلةَ العزّ، ذليلةَ البقاع، حتى جمعَ اللهُ إلْفَتَها، وأكرم دارَها، وأعزّ مثواها»[٢٠]. و «كان أمرُه في قومِه كالدِين المتّبع في حياته وبعد موته»[٢١].

أمّا كيف تمّ له ذلك؟ فيذكر أهل الأخبار أنّ قيصَر الروم أعانَه على خزاعة[٢٢]. وكان ذلك عن طريقِ الغساسنة، حُلفاء الروم، بواسطة قبيلة زوجِ أمّه «بني عذرة» من «قضاعة» النصرانيّة التي كانت تقيم في بادية الشام، على

(١٣) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢٤٠.

(١٤) عن لسان العرب، ٦/ ٣٣٤، مادة «قريش».

(١٥) انظر ايضا: ابن هشام ١/٨٧، الحلبية ١/ ٢٤، الازرقي ١/١٠٨ وغيرها.

(١٦) السيرة الحلبية، ١/ ٢١٤.

(١٧) انظر: الازرقي ١/١٠٧، ابن هشام ١/١١٦، اليعقوبي ١/ ٢٤٠، ابن سعد في الطبقات ١/ ٧١، الطبري ٢/٢٥٦، الحلبية ١/ ١٣، العقد ٣/ ٣١٢.

(١٨) السيرة الحلبية ١/ ٢٤.

(١٩) الازرقي ١/١٠٧. انظر معاني هذه المآثر في ما بعد.

(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٤٠.

(٢١) الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣ .

(٢٢) ابن قتيبة، المعارف، ٦٤ حيث قال : «وأعانه قيصر عليها».

مقـربة من «تبّوك». وقد كـانت خاضعـةً لنفوذ الروم(٢٣). ولم تكن الاستـعانة بالروم بِدْعًا بين القبـائل العربية والأفراد، فـعثمانُ بنُ الحوَيْرث توسّط، فـيما بعـد، لدى الروم، لتنصـيبِ نفسِـه مَلِكًا على مـكّة. ولكنّه لم يوفّق(٢٤). وقبلَه نصارى نجران طلبوا نجدةَ قيصر الرّوم الذي أوعز إلى النّجاشي ملكِ الحبشة ليقوم بهذه المهمّة.

هكذا كـانت علاقـات قـصيّ وأبنائه من بعـده مع مسـيـحيّي سـوريا والأمبراطوريّة البيزنطيـة، منذ أن تكونّت قريشٌ وتملّكت على مكّة. وربّما كان انتمـاء قريش الى بلاد الشام أكثـر ممّا هو الى قبائل اليمن أو غـيرها. والدليل على ذلك: لغة قـريش التي هي لغة أهل الحيـرة والأنبار(٢٥)؛ ثم تجارة قريش التي نشطت وتوسّعت وازدهرت مع بلاد الشام؛ ثمّ ديانة قريش وآلهتها التي أُخِذَتْ من الـشمال لا من الجنوب، كـالإله «هُبل»، و «أيل»، و «الله»، وأسـماء، مثل «عبد الله»، و«عـبد اللاة»؛ ثمّ علاقة قريش ببقـايا النبطيين الذين تراجعوا نحوالصـحراء بعد غـزو الرومان لهم(٢٦)؛ ثمّ مخـاصمتهم لقـبائل نزحت من الجنوب، والعداوة التاريخية القائمة بينهم وبين الجنوبيين، وقد تسمّت بأسماء عديدة، واتّخـذت أشكالا كثيـرة، كالعداوة بين القحطـانيين والعدنانيين، أو بين اليمنيين والقيسيين، أو أيضا بن عرب عاربة وعرب مستعربة، وغير ذلك... ممّا يدلّ على تعاطف قريش، منذ تكوينها، مع بلاد الشام وسكّانها النصارى.

لقـد نظّم قُصَيّ بطـونَ قريش ودبّر لهم منازلَ فـي مكّة وضواحـيهـا.

---

(٢٣) الشريف، مكّة والمدينة، ١٦٠؛ وَاتْ، محمد في مكّة، ١٣.

(٢٤) الثعـالبي، ثمار القلوب ١٦، الكامل لابن الاثير ٢/٧، المعارف لابن قـتيـبة ٦٠، ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، طبقات ابن سعد ١/٦٨. ابن حبيب، المحبّر، ١٧١، وات، محمّد في مكّة ١٥، لامنس، مكة عشية الهجرة (بالفرنيسة) ص ١٥ .

(٢٥) انظر كتاب «أعربي هو؟». فصل اللغة العربية، ١٤٧ – ١٩٨.

(٢٦) انظر اشارة الاغاني ١/١٤٧، ٣، والازرقي، ٦٠.

فـأسكن بعضَــهم في «ظواهر» مكّة، فـسـمّوا «قـريش الظواهر»، وكـانوا في الغالِب فقراء معدَمين، وأسكن بعـضَهم الآخر في «بطاح» مكّة، وسمّوا «قريش البِطاح» وكانوا أغنياء مـيسورين. عُرف القسم الأوّل بتبـدّيه وفقره وغزواته؛ وعُـرف القسم الثـاني باسـتقـراره وغناه واهتـمـامه الكبـيـر بالتجـارة[٢٧]. والقسـمان يضـمّان اثنتي عـشرة قـبيلة، لم تنصـهر بعـضها ببـعض تمام الانصهـار، ولم تؤلّف «جماعة» واحـدة ذات مصيـر واحد مشتـرك، بل بقيت «تجـمّعـا». وربّما يكون فـي قول القـرآن: «إنْ هي أسمـاء سـمّيـتمـوها أنتم وآباؤكم»[٢٨] أشارة الى تنوّع نسبتهم.

وكان قصيّ أوّل من بنى المساكن في مكّة، ونقض الخـيام، وحوّلها الى بيوت ذات أعـمدة من خشب وذات سـقوف. و «هو الذي أمر قـريشا أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم وحول البـيت. وقال لهم: ان فعلتم ذلك هابتكم العرب (أي البدو) ولم تستـحلّ قتالكم»[٢٩]. وهو الذي ثبّت الملك في عقـبه. ونظّم شؤون المدينة وقسّم الوظائـف على أولاده. وأوجد لمكّة مكانة تجارية واسـعة. وخلق لها نوعا من الادارة.

وعرف عنه أيضا أنّه أحـدث في قريش ستّ مآثر، تقاسـمها أولاده من بعده، وبسببها جرى بينهم خلافٌ ومعارك، استمرّت الى ما بعد الاسلام. هذه المآثر هي : **الرفادة**، وهي اطعـام الحجّاج في مـوسم الحجّ. **والحجـابة**، وهي الوصاية على مـفاتيح الكعـبة. **والسقاية**، وهي توفـير الماء لحـجّـاج بيت الله وللقـوافل التجـاريّة. **واللواء**، وهو علم من قـمـاش يربط على رأس رمح عند إعلان الحرب. **والقيادة**، وهي حكم الأمّة الذي يُسلّم الى زعيم قـريش الأكبر.

---

(٢٧) السيرة الحلبية ١/ ١٣، الشريف، مكة والمدينة ... ٢٢ ١.

(٢٨) القرآن ٥٣/ ٢٣، ٧/ ٧١. انظر: لامنس، مكة...، ص ١٤٨.

(٢٩) السيرة الحلبية ١/ ١٩.

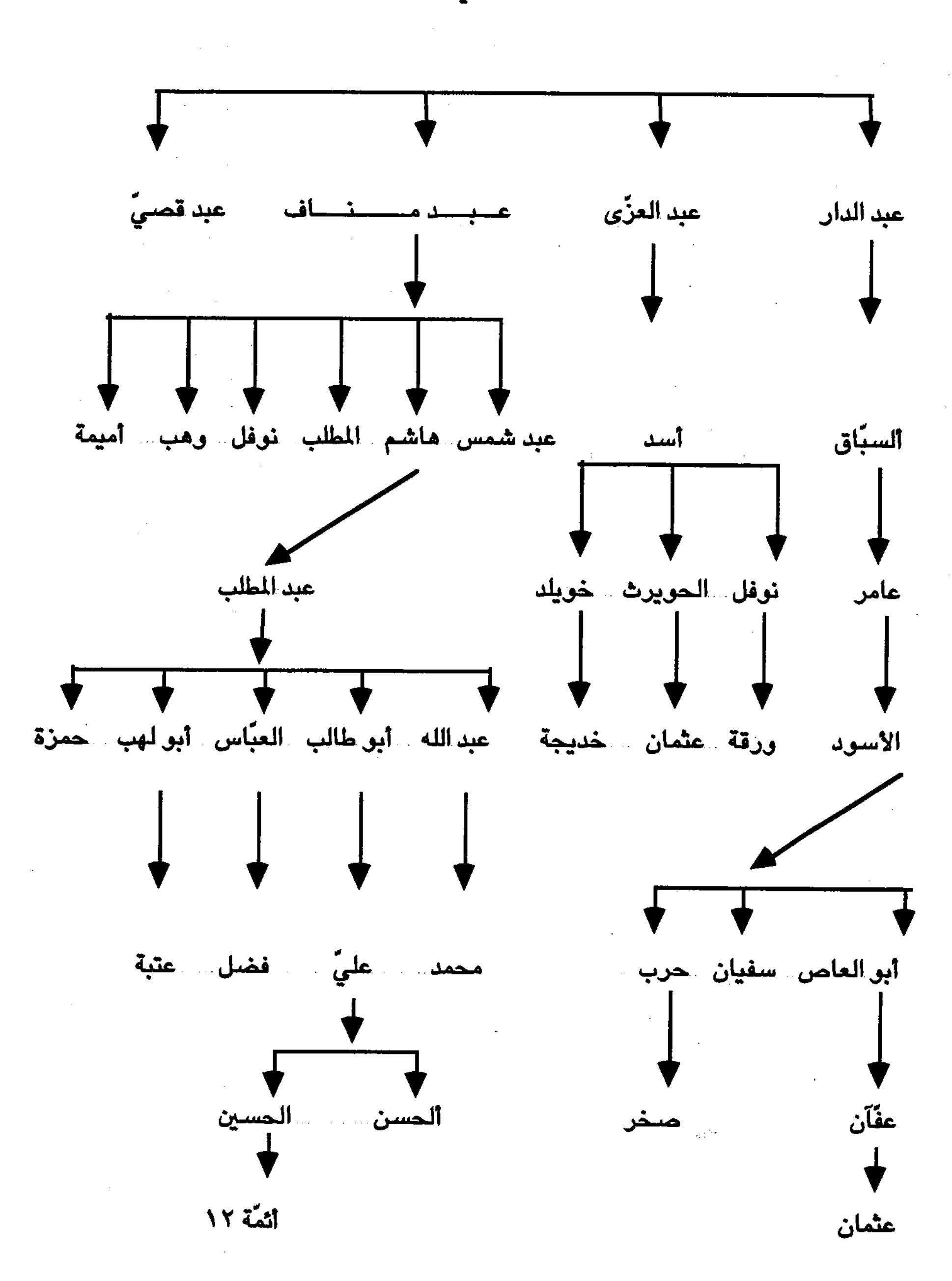
وأخيرا **دار الندوة**، وهي الدار التي يجتمع فيها أهل قريش للتشاور بأمور المدينة. فكانوا لا يعقدون أمراً الاّ فيها، ولا يزوّجون امرأة أو رجلا، ولا يعقدون لواء حرب، ولا يُخرجون بعيرا للتجارة.. الاّ منها. يديرها جماعة تسمّى «الملأ الأعلى»، هم أمثال أعضاء مجلس شيوخ أثينا، يمثّلون زعماء الأسر والعشائر، ورؤساء الأحياء والبطون، وأصحاب الرأي والمشورة(٣٠).

هكذا كان أمر قصيّ «في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدِّين المتّبع»(٣١). ولمّا مات، دُفن في الحجون، جبلٍ بأعلى مكّة ، واقتسم أولادُه المنافع. حكم قصيّ في بداية النصف الثاني للقرن الخامس للميلاد. و«هو أوّل رئيس من رؤساء مكّة يمكن أن نقول أن حديثنا عنه هو حديث عن شخص عاش حقّا، وعمل عملا في هذه المدينة. وهو أوّل رجل نتكلّم عن بعض أعماله ونحن واثقون ممّا نكتبه عنه ونقوله»(٣٢). ونثق أيضا بانتسابِ عظماء قريش اليه والى أولاده. ومعظم مشاهير رجال الاسلام ينتسبون اليه. اليه ينتسب النبيّ محمّد والقسّ ورقة وخديجة وعلي بن أبي طالب وبنو هاشم وأميّة، كما في هذه الشجرة :

(٣٠) أنظر : الطبري ٢/ ٢٥٨، الكامل ٢/ ١٣، ابن هشام ٢/ ١٢٤، البلاذري، أنساب / ٥٢/ ١، الاحكام السلطانية ١٦٢، نزهة الجليس ١/ ٢٤.. وغيرها .

(٣١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٥، الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣.

(٣٢) د. جواد عليه، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤/ ٢٢.


قصيّ
عبد الدار
عبد العزّى
عبد مناف
عبد قصيّ
السبّاق
أسد
عبد شمس
هاشم
المطلب
نوفل
وهب
أميمة
عامر
نوفل
الحويرث
خويلد
عبد المطلب
الأسود
ورقة
عثمان
خديجة
عبد الله
أبو طالب
العبّاس
أبو لهب
حمزة
أبو العاص
سفيان
حرب
محمد
عليّ
فضل
عتبة
عفّان
صخر
الحسن
الحسين
عثمان
أئمّة ١٢

في هذه السلسلة «القُصَيوِيّة»، كما ترى، ظهرَ الاسلام. ومنها جاء محمّد. وبلغتِها نزل القرآن. ومن رجالاتها استخلف الخلفاء. وظهرت الأئمّة. وتكوّنت الفرق. وأُنشأتِ الدول. وافتُتحت بلاد الشام وأفريقيا وأوروبا. وأسلمت المسكونة...

ومن هذه السلسلة قامت ممالك، وانقرضت أخرى. وبعضها لا يزال مستمرّاً حتّى اليوم. والى هذه السلسلة ينتسب رجال لمعوا في عالم العلم والأدب والفنّ والشعر والدين. ومنها أيضا قامت شيع دينية وأحزاب سياسيّة، حارب بعضها بعضا، ولا تزال. منها من انتمى الى الاسلام في الظاهر دون الباطن، ومنها مَن اتّخذ الاسلام غطاء لستر معتقد باطني خطير...

كلّ ذلك يكوّن لدينا دليلا بعد دليل على أنّ «قريشا» لم تكن الاّ «تجمّعا» لم تنصهر أفراده بحال من الاحوال، وسوف يستمرّ أجيالاً بعد أجيال.

رابعاً – سكّانُ مكّة مِن غَير قُرَيْش

مرّة أخرى نعود الى تنوّع السكان في مكّة. ومن الطبيعي أن يكون فيها مثل هذا التنوّع، نـظرا الى مكانتها التـجارية الشهـيرة، وموقـعها الجـغرافي الوسيط بين الشـمال والجنوب، ووجود الكعبـة محجّة لجـميع الملل والأديان، وشرعة احترام الأشهر الحرم التي أوجبت أمناً وسلاماً وحرّيّةَ تنقّلٍ، وأسواق أدبٍ وشعـرٍ، في سوق عكاظ وغيـره. فبسـبب ذلك وفد الى مكّة شـعوب من مختلف الاثنيّات والجنسيّات والبلدان.

مِن هؤلاء منَ كان مِن الحبشة ومصر والسـودان. ومَن كان مِن فينيقيا وفلسطين وغـزّة وبلاد الشـام، ومَن كـان مِن بين النّهـرين، ومـن مملكتي الغساسنة والمناذرة، ومَن كان مِن اليمن وحضرموت والبحرين، ومن كان من دولتي الفرس والروم، ومن اليونان وآسيا... ومنهم أيضا مَن كان يهوديّا،، أو نصرانيّـاً، أو مجوسيّـاً، أو صابئاً، أو عابدَ أوثان... ومنهم من كـان تاجراً، أو بنّاء، أو حدّاداً، أو نجّـاراً، أو صائغاً... ومنهم من كـان مواليا أو مملوكـا يعمل لحساب غيره... ومنهم من كان مبشّراً، أو من أهل العلم والمعرفة، أو أيضا من أصحاب الأدب والشعر والخطابة... ومنهم أخيرا من كان يتجسّس لصالح بلد منشأه، أو كان مهاجِراً ، أو سائحاً، أو مهجّراً، أو مطروداً خليعا.

كلّ هذ التنوّع من البـشـر كان في مكّة، في بدايـة الدعوة الإسـلاميّـة. ودليلنا على ذلك ما يوجـد في القرآن من كلماتٍ مأخـوذة عن «الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانيّة والعبرانيّة والقبط..»[٣٣] ممّا جعل أبا بكر

---

(٣٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٣٥ : فيما وقع فيه بغير لغة العرب».

يقول: «في القرآن من اللغات خمسون لغة»[٣٤]. وهناك أيضا آيات غير قليلة تشير الى عدد الوافدين الى مكّة، كما تشير الى ديانتهم وآلهتهم ومعتقداتهم ومستوى العلم عندهم؛ وربّما أشارت أيضا الى نشاطهم الرسولي في المدينة وفي القرى المجاورة والأسواق الموسمية.

غير أنّ هؤلاء السكّان، وإنْ لم يكونوا من قريش، فإنّهم من مواطني مكّة. وان كانوا أيضا من حضارات مختلفة وأعراق متباينة، فهم، مثل قريش، من أهل مكّة وقاطنيها منذ أمد. فالكلام عليهم اذاً لا يعني كلاماً على «جاليات أجنبيّة» تعيش في المدينة الى حين، ثم تعود الى مواطنها الأصليّة. بل ذلك يعني انّهم يؤلّفون القسم الثاني من قريش، قبيلة «التجمّع».

الاّ أنّ مؤرّخي الاسلام لم يهتمّوا بهم بقدر ما اهتمّوا في تدوينِ أخبارِ مَن كان له بالنبي صلةُ نَسَبٍ أو رحم، أو مَن استجابَ لدعوته.. لذلك فهُم أهملوا تماما ذكرَ هؤلاء «الأجانب»، وتجاهلوا دورَهم ونشاطهم ومعتقدهم. وإنْ تكلموا بعضَ الشيء عنهم فبالعرض، وبسبب علاقتهم بقريش أو بالاسلام. وبغير ذلك لم يتعرضوا لذكرهم، لا من قريب ولا من بعيد. مع أنّ النبيّ لم يعرضْ عن ذكر بعض الذين أعانوه منهم، أو علّموه[٣٥].

وها نحن نذكر بعض الذين حفظ لنا التاريخ منهم ذكراً ودوراً فاعلاً، مثل الأحباش والغساسنة والروم والمناذرة والفرس واليهود. وقد أشار

---

(٣٤) أبو بكر الواسطي، الارشاد في القراءات العشر. عن الاتقان ١/ ١٣٥.

(٣٥) انظر سورتي النحل ١٦/ ١٠٦ والفرقان ٢٥/ ٥ - ٦ حيث يردّ النبيّ تهمّةً وُجّهتْ اليه. قال : «ولقد نعلم انّهم يقولون؛ انّما يعلّمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين» (النحل). وقال أيضا: «قال الذين كفروا: إنْ هذا الاّ إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. فقد جاؤوا ظلما وزورا. وقالوا: أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلا» (الفرقان ٢٥/ ٥). في هذين القولين، تهمة ورد تهمة. وفيهما انّ قوما من أهل الكتاب علّم النبي.

القرآن اليهم ونوّه بنشاطهم في مكّة وفي انطلاقة الدعوة الاسلاميّة.

أ - الأحباش والسودان

مِن هؤلاء «الأجانب» ألأحباش أو الأحابيش. وهم شعب نزح من الحبشة، على دفعات متوالية. وسبب نزوحهم اضطهادات فيما بينهم، أو فقرٌ وجوع، أو طمعٌ بمكاسب التجارة المكيّة الرابحة، أو تبشيرٌ بمعتقد.. وأكثرُهم كان يشتغل في خفارة القوافل التجاريّة، في بيوت الأغنياء وأرباب الثروة، أو في صناعاتٍ وحرف يدويّة.. تكاثر عددهم حتى أصبحوا ذا شأن خطير في مكّة.. وكان لهم مع زعماء قريش، بالنظر الى فاعليّتهم وكثرة عددهم، حِلْفٌ شهيرٌ في التاريخ، سمّي «حِلف الأحباش». فيه عَقَدوا الدفاعَ عن مكّة، والقتالَ في سبيل «حرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام». وغايته «النصر على الخلق جميعاً حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، وعلى التعاقدِ، وعلى التعاونِ على كل مَن كادَهم من الناسِ جميعاً»[٣٦].

مثلُ هذا الحِلفِ يدلّ على أمورٍ هامّة وخطيرة: منها كثرةُ عددِ الأحباش ونفوذُهم في مكّة، ومنها انّ البيتَ الذي تحالفوا عليه لم يكن بيتَ أوثان، كما هو شائعٌ في كتب المسلمين، لأنّ الأحباشَ، في معظمهم، كانوا نصارى، بشهادة قول النبيّ عن واحدٍ منهم إسمه «الحلّيس»، وهو زعيمهم وسيّدهم آنذاك: «ان هذا من قوم يتألّهون». «وقد يشير الرسول بذلك الى أنّهم كانوا نصارى»[٣٧]. ولا غرابة في ذلك لأنّ المسيحيّة دخلتِ الحبشةَ منذ عهدٍ مبكّر.

---

(٣٦) تاريخ اليعقوبي، النجف ١٩٦٤، ٢/١١٢، ابن هشام ٧٤٢ الطبري ١/١٥٣٨، الأغاني ٤/١٩ ، طبقات ابن سعد ٢/ ٧٠، الخراج لابي يوسف ٢٤٨.

(٣٧) د. جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٤/ ٣٥.

وفي كتب الأخبار الاسلاميّة ذكرٌ هامّ لحملةِ أبْرَهَة، قائدِ الجيوش الحبشيّة الى اليمن، انتقاما من اليهودِ الذين قضَوا على مسيحيّ نَجْران، وحفروا الخنادقَ لدفنهم فيها أحياء.. ممّا أثار حفيظةَ مسيحيّ الحبشة، وعلى رأسهم النجاشي الذي وجد المسلمون الأوّلون فيه «خيرَ جار في خيرِ دار»، وحملوا له من الرسول «سورة مريم»، وهي آية في الايمان بالمسيح وأمّه وعجائبه...

وفي القرآن أيضا ذكر لحادثة نجران لبقاء صورتها في مخيّلة الناس[٣٨]. ولشهداء نجران ذكرٌ خالدٌ في الكنائس الشرقيّة حتّى اليوم.

إلاّ أنّ الأحباش لم يَبقوا على صفاء دمهم الحبشي، بل تزاوجوا مع قريش وسائر القبائل القاطنة في مكة، حتى أصبح كثير منهم يُعَدّ من قريش وكنانة، ويُحسَبُ، بالتالي، فرعًا من فروع قريش، وإن دون مستواهم فخراً. وبهذا أصبح الاحباشُ، بنظر بعض الباحثين، من سكّان مكّة الأصيلين. وقد أشار بعضهم الى أنّ قوماً من أشراف مكّة تزوّجوا من حبشيّات، فأولدنَ لهم أولادا حفظَ التاريخُ اسماء بعضهم، أمثال: فضلة بن هاشم بن عبد مناف، ونفيل بن عبد العزّى، وعَمرو بن ربيعة، والخطّاب بن نفيل والد الخليفة عمر، وعمرو بن العاص، وجماعة آخرين[٣٩].

وكان المكّيون يعتمدون على شجاعة الأحباش وانصياعهم ليكلّفوهم بمهامّ التجارة وخفارة القوافل والأعمال الصعبة. ويذكر لنا ابن سَعْد عن أحد سادة هُذيل انّه كان «يمشي وراءه الأحابيش»[٤٠]. والنبي محمّد «كان عنده من الأحابيش بَلال وأخوه أبو رويحَة. وكان بَلال يمشي أمامَه مستلاً سيفَه..

---

(٣٨) أنظر سورتي مريم ١٩ والبروج ٨٥ في القرآن.

(٣٩) أنظر فصل «أبناء الحبشيات» في المحبر لابن حبيب، ص ٣٠٦.

(٤٠) طبقات ابن سعد ٢/٣٦.

وأشار المحدِّثون الى وجود غيرهما في حاشية النبيّ، حتى أنّهم ذكروا من هؤلاء أخَ النجاشي نفسه»[٤١]. ويذكرون أيضا أنّ النبيّ، بعد فتح مكّة فكّر بالسير على بني هوازن، فنصحه أبناء وطنه أن يستخدم في ذلك الحبشان[٤٢].

ولكثرة الأحباش في مكّة وشدّة نفوذهم كانوا ينشرون الذعر بين الناس. وكان قد سرى اعتقاد فيما بين قريش بـ « أنّ الكعبة يهدمها الأحباش»[٤٣]. وبالفعل كانت قد تعدّدت غزوات الأحباش على ساحل مكّة، في حياة النبيّ[٤٤]. وبعد موته، اضطرّ عمر بن الخطّاب الى ارسال حملة خاصّة بهم، ولكنّها هلكتْ كلها[٤٥]. وبسبب ذلك وُضِعَ على لسان النبي حديثٌ خطير في شأنهم يقول فيهم: «لا تبعثوا الرابضين التركَ والحبشة». يريد: «لا تهيّجوا عليكم الأحباش (والأتراك في أيّام العبّاسيين) ما داموا رابضين ساكنين لا يقصدونكم»[٤٦].

وقد رأى الأب هنري لامنس أنّ الأحباش كانوا يؤلّفون قوّة عسكريّة وتنظيماً قائماً، كوّنتهم مكّة للدفاع عنها[٤٧]. وتبيّن له أنّهم كانوا جماعة قائمة بذاتها، مستقّلة في إدارة شؤونها، يدبّر أمورَها رجالٌ منهم، يُعرف أحدهم بـ «سيّد الأحابيش»[٤٨]. وقد عاشوا عيشة بدوية خارج مكّة، يعملون لسادة قريش، في خفارة تجارتهم، وفي حراسة أعمالهم، وصناعات يدوية، وخدمات

---

(٤١) أنظر : أسد الغابة في أسماء الصحابة ٢/ ١٤٤، ٣/ ٣٦، ٤/ ٢٥٣، مسند ابن حنبل ٤/ ٩٠، الخراج لابي يوسف، ص ١١٩.

(٤٢) كتاب الأغاني للاصفهاني ١/ ٢٣.

(٤٣) الأزرقي١٩٣، سنن أبي داود ٢/ ١٣٣، النهاية لابن الأثير ٢/ ١٩٣ و٢٦٤، ٤/ ١٨٨.

(٤٤) طبقات ابي سعد ٢/ ١١٨.

(٤٥) أسد الغابة ٤/ ١٤.

(٤٦) النهاية ٢/ ٥٩، ابو داود ٢/ ١٣٣، ابن الديبع، تيسير الوصول ٣/ ١١.

(٤٧) الاحابيش والنظام العسكري في مكّة زمن الهجرة، المشرق سنة ١٩٣٦ جـ ٣٤.

(٤٨) ابن سعد ٢/ ٧٠، الاغاني ١٤/ ٢٠، ١٩/ ٧٩، ابن هشام ٢٤٥، ٧٤٣ ...

منزليّة. وقد كان من نسائهم مرضعات ومربيّات كثيرات. ويذكر أنّه كان منهنّ للنبيّ أكثر من واحدة...

بيد أنّ انفصال الأحباش عن أهل قريش لم يكن ظاهرا الى هذا الحدّ، كما أنّه لم يكن بدون اختلاطهم مع قريش اختلاط مصالح، ومصاهرة، ومشاركة في أمور عامّة، وفي معتقدات دينيّة، لم يَسْلَمِ القرآنُ منها في تقرير عقيدته في الله والمسيح وسائر الأنبياء وفرائض الدين العمليّة.

٢ - الغساسنة والرّوم

هؤلاء هم من بلاد الشام وفينيقيا الداخليّة. تميّزوا بِبَشَرَتِهم البيضاء، على غير بَشَرَةِ أهل الحبشة والسودان. كان عندهم مهارةٌ وخبرةٌ وفنّ، قاموا بأعمال البناء والنجارة والحدادة وصنعِ الآلات الحربيّة والزراعية والمهنيّة... لبعضهم علمٌ ومعرفة تفوقُ أربابَهم المالِكين لهم. ولا بدّ من أنّهم تركوا في البيئة التي يعيشون فيها ويعملون أثرًا فعّالا وأعمالا ذاتَ شأن[٤٩].

وما يُستَلهمُ من آيات القرآن في ذكرِ النصارى والمسيحيين[٥٠] وما لهم من معتقدات، وما فيهم من اختلافات، يكفي للدلالة على وجودهم الواسع وأثرِهم الفعّال. فمِن قصّةِ ولادة يحيى بن زكريّا، الى بشارة مريم وميلاد عيسى، وعجائبه، الى الكلام على صلبه وموته وبعثته، الى الثالوث الالهي، الى الفرائض والواجبات، الى الكلام عن الرهبان، الى مباحثات النبي مع وفد نجران... الى غير ذلك من دقائق الدين النصراني.. ما يدلّ على معرفة واسعة

---

(٤٩) جواد علي، ٤/ ١١٩ - ١٢٠، أسد الغابة ٥/ ٥٩، صحيح مسلم ٢/ ١٨٩.

(٥٠) ميّزنا في «قس ونبيّ» بين نصارى وهم يهود تنصّروا، ومسيحيين من الأمم.

بالنصرانيّة، والى وجود نصراني كبير في مكّة[٥١].

هذا بالاضافة الى ذكر أسماء نصرانيّة من مختلف الأعراق نجدها في كتب السِيَر والأخبار. فهي تشيرُ الى شَمّاسٍ زارَ مكّة في زمن الجاهليّة[٥٢]، والى الراهب عِيْص من الشام يعيش في مرّ الظهران[٥٣]، والى الراهب عدّاس النينوي الذي شفى محمّدا في صِغَرِه من رَمَد في عينَيه[٥٤]، الى القّس بن ساعدة الذي سمع محمّدٌ عظاته في عكاظ[٥٥]، الى القسّ ورقة، إبن عمّ السيّدة خديجة، إمرأة النّبي الأولى، الذي كان ينقل «الانجيل العبراني»، والذي قيل عنه عند وفاته: «ولم يَنْشَبْ وَرَقَة ان تُوفّي وَفَتَرَ الوحيُ»[٥٦]، إلى غيرهم...

هذا قليل ممّا تذكره كتب السِير والأخبار عن الرهبانِ والقسّيسين في مكّة أيّام بدء الدعوة المحمّدية. وقد كان الى جانبهم أسماء نصرانيّة أخرى لا تقلّ أثرا وأهميّة في شؤون مكّة. فمنهم «جَبْر النصراني غلامُ الخضرَمي»[٥٧] الذي اتُّهِم بتلقينِ محمّد القرآن[٥٨]، ومنهم «غلامٌ آخر اسمه يَسَار[٥٩]»، اتُّهم بما اتُّهم به جبر. وغلامٌ آخر اسمه «بَلعام» ذُكِر عنه أنّ النّبي «كان يدخلُ عليه

---

(٥١) أنظر في كتاب «قس ونبي» وهو بحث في نشأة الاسلام الدينيّة.

(٥٢) ابن هشام ١/٣٤٩، اسد الغابة ٣/٣٧٥، ٤/١٤٨.

(٥٣) السيرة الحلبية ١/٧٥، ابن كثير ٢/٢٧٢: «كان الله آتاه علما كثيرا..»

(٥٤) الحلبية ١/٣٢٦٧، السيرة المكية ١/١٨٣، الاغاني ١١/٤٣.

(٥٥) أنظر كتب السير، وفيها قول النبي عنه: «هذا رجل من أياد قد تحنّث»، أي تحنّف وتعبّد. راجع مثلا الأغاني ١٤/٤١.

(٥٦) صحيح البخاري ١/٣٨. أنظر في القس ورقة كتابنا «قسّ ونبي» فهو في مجمله بحث في حياة «ورقة» واهتمامه بالنبي وعلاقته به، وفي تعاليمه القرآنيّة.

(٥٧) ابن هشام ١/٢٦٠.

(٥٨) انظر سورة ١٦/١٠٦ و٢٥/٥ — ٦ والتفاسير عليها.

(٥٩) الاصابة ١/٢٢٢.

ويخرجُ من عنده. وقالوا: إنّه كان يتـعلّم منه. وكان نصرانيّا»[٦٠]. ومنهم رجل اسمه «نَسطَاس»، كان من موالي صَفوان بن أميّة»[٦١]. و«نسطورِ الرومي » و «يوحنّا مولى صُـهيب»، و«صهـيب الرومي« الذي كان من صحـابة الرسول، اشترك مع عـبد الله بن جدعان الثري الكـبير، ثم استقلّ عنه، بعـدما صار من أثرياء مكّة[٦٢]. ومنهم مولَى يونانيّ تزوّجَ أمَّ بَلال الحبشي مؤذّنِ الرسول[٦٣].

وعند أهل الاخبار أيضـا ذكر لجماعات نصرانيّة من عـين التمر، في ما بين النهرين[٦٤]، ولمصريّين ذكـور واناث رافق عدد منهم ماريّة القـبطية هديّةً المقـوقس ملك الأقبـاط الى النبيّ[٦٥]، وليونانـيّين، كان منهم جـاريةٌ في حَرَم عبّاس[٦٦]. ونذكر أيضا «فرات بن حيّـان» وهو أشهر الادلاّء وقادة القوافل في مجاهل الصحراء[٦٧]، وقد كان حليفاً للأنصـار...

وقبل دعوةالنبيّ بسنوات عدّة، وكانت الكعبة «لا سقف عليها»[٦٨]، جاء رجل من الروم، أو من الأقباط، إسمه «باقوم» أو باخوميوس، وراح يعمل فيها ويسقّـفها وينجّر أبوابَهـا. وتذكر كتب الأخـبار أيضا أطبّاء وجـرّاحين وأطبّاء

---

(٦٠) الاصابة ١/ ١٦٥ .

(٦١) الاغاني ٤/ ٤٢، ابن هشام ١/ ٦٤٠، أسد الغـابة ٢/ ٢٣٠ الواقدي، أسـباب النزول، ٢٥٣.

(٦٢) ابن هشام ١/ ٣٢١، أسد الغابة ٣/ ٢٣، ٤/ ٤٢٧، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٢٥.

(٦٣) لامنس، النصارى في مكّة قبل الهجرة، المشرق جـ ٣٥ سنة ١٩٣٧.

(٦٤) الواحدي أسباب النزول ٢١٢، أسد الغابة ٣/ ١٣١، ٥/ ٤٦٢، ١٩٤.

(٦٥) أسد الغابة ٤/ ٢٦٨، وغير ماريّة القبطية من أقباط مصر تجدها في أسد الغابة / ١٢٨ ٥، ٤/ ٢٤٢، الذهبي، ميزان الاعتدال ٣/ ١٣٤.

(٦٦) اسد الغابة ١/ ٢١٢، ٤/ ٢٣٢ ،

(٦٧) ابن سعد ٣/ ٧، يذكر ابو داود عنه انه كان حليفا للأنصار في ١/ ٢٦٢.

(٦٨) تاريخ الطبري ٢/ ٢٠٠، الحلبية ١/ ١٤٣، الاصابة ١/ ١٦٣، ١٦٦.

أسنان «كانوا كلّهم من النصارى في مكّة»[٦٩]. كما تذكر الكتّاب والحَسَبة والمعلّمين دون أن تذكر «اسم معلم واحد من القرشيين»[٧٠].

وهناك عنصر آخر من الوجود النصراني الواسع في مكّة، وهو يعود الى نساء نصرانيّات تزوّجن من أهل مكّة. وهنّ من إثنيّات مختلفة. فوالدة «عائشة» زوج الرسول، واسمها «أم رومان» من نساء النصارى، وهي من قبيلة طيّ النصرانيّة، تزوّجها أبو بكر الصديق ليكون له مع قبيلتها حِلف ومصاهرة[٧١]. وكذلك كان لعثمان بن عفّان زوجةٌ نصرانيّة[٧٢]، وللخليفتين معاوية ويزيد أيضا زوجات نصرانيّات من بني كلب[٧٣].

وعرف عن عثمان أنّه زوّج بنتاً له إسمها «أم حبيبة» من أحد شبّان النصارى[٧٤]. وكذلك النبيّ زوّج أحدى بناته الى عَتبَة بن أبي لَهَب الذي اعتنق النصرانيّة ومات عليها[٧٥]. وقد شَهِدَ على نصرانيّته أمام النبيّ نفسِه، وقال له بجرأة: «يا محمّد ! أَشهَدُ أنّي نصراني قد كفرتُ بربّك، وطلّقتُ ابنتك»[٧٦].

وليس مَن ينكر على أبي سفيان دورَه وحماسَه في اسلامه حتى كان «لا يسقط له رأي في الجاهلية». ومع هذا «لم يتراجع عن اختيار أصهرة وأحماء من النصارى. ولقد تبعه محمّد نفسُه في هذا السبيل»[٧٧]. والنّبي،

---

(٦٩) لامنس، النصارى في مكّة... مشرق جـ ٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٢٦٧.
(٧٠) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.
(٧١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٨٠.
(٧٢) شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ١٢٠.
(٧٣) لامنس، في كتابَيه بالفرنسية «معاوية» ص ٣٠٩، و«يزيد.»
(٧٤) طبقات ابن سعد ٨/٦٨، ابن هشام ١٤٣ – ١٤٤ ، ابن قتيبة، المعارف ٤٢.
(٧٥) أسد الغابة ٥/٤٥٦.
(٧٦) الاغاني ١٥/٢، لامنس، فاطمة (بالفرنسية) ، ص ٣.
(٧٧) لامنس، النصارى في مكّة، المشرق جـ ٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٤٧٢.

الذي يجهل المسلمون دينَه الأساسي، أو يتـجاهلون، كانت معظمُ زوجاتِه ممّن لهنّ علاقةٌ قريبةٌ بالنصرانيّـة، ان لم نقلْ نصرانيّات: لقد تزوّج، أوّلَ ما تزوّج، من خديجـة، وهي بنت عمّ القس ورقة بن نوفل، رئيس الـنصارى في مكّة[٧٨]، وبنت عمّ عثمـان بن الحويرث أيضا، وقد مات على نصـرانيّته في بلاد الروم. ثم تزوّج النّبيّ من عائشة بنت «أم رومان» النصرانيّة، كما رأينا. ثم من سَودَة مطلَّقةِ زَيْد بن نفيل، زعيمِ الحنفاء في مكّة. ثمّ من أمّ حبـيبة مطلّقة عبد الله بن جحش الذي تنصّر وهو في الحبشة، وهو ابن «أمَـيمة»، عمّة الرسول. ثمّ من زَينب بنت جـحش مطلَّقَة زيد بن حـارثة، إبنِ الرّسـول بالتبنّي. ثم من مـاريّة القبطية هديّة المقوقس ملك القبط...

وتبقى اشارةٌ الى بني أسد بن عبد العزّى بن قُصَيّ. هؤلاء هم من «الملأ الأعلى» في مكّة. وكانوا أقرب أُسَرِ قريش الى النصـرانيّة. بل «قومٌ كثيرٌ منهم قد تَنَصّـر»، على حدِّ قولِ اليعـقوبي[٧٩]. وقد منحوا «لقَـبَ الأحلاف لعددٍ من نصارى غسّان»[٨٠]، الذين كان لهم حظُّ النزول في «بطحاء مكّة، منزلِ الأسر الكريمة، وحظّ السكن بجوار الكعبة في أقدس بقعة من مكّة»[٨١]. اذا عرفنا ذلك نكون عرفنا «أيّ تأثير كان لهم، وبأيّة عناية كان يحيطهم أبناء مكّة»[٨٢].

ومن المعروف أن الـغسّانيين كـانوا «ملوك الشام»، وذوي تأثيـر كبـير بسـهرهم على الحـدود البيزنطيّة، وبحفظهم طرق القـوافل الذاهبة والآيبة من بلاد الروم وإليها. وهو أمر في بالغ الأهميّة بالنسبة الى المدينة المقدّسة.

---

(٧٨) راجع كتابنا «قس ونبي»، وهو يستند إلى سيرة ابن هشام وغيرها.

(٧٩) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٧.

(٨٠) الأزرقي، ص ٤٦٦، أسد الغابة ٥/ ١٥.

(٨١) الأزرقي، ص ٤٥٨، ٤٦٠، لامنس، النّصارى في مكّة زمن الهجـرة، مشرق ١٩٣٧، ج ٣٥، ص ٢٧٦.

(٨٢) لامنس، المرجع السابق مع مراجعه.

٣ - المنـــاذرة

لقد حصل رجال مكّة من كسرى على عهدٍ للمتاجرة في بلاده[٨٣]، كتلك العهود التي حـصلوا عليها من الروم والحبشة واليـمن ومصر. وبواسطة هذا العهـد سُمِحَ للفـرس بدخول مكّة، وبشـراء البضائـع منها بأسعـار مقـبولة، ليبيعوها للبيزنطيين، عن طريق العراق وتدمر، بأغلى الأثمان. وبدخول الفرس مكّة، وتنقّل المكّيين في بـلاد فارس، حـصلت علاقـات على مخـتلف الصعـد. فكانت الديانة المجوسـيّة، على ما يبدو من القـرآن وكتب السِير، مـعروفةً في مكّة معرفةً تامّة. وكذلك لغة الفرس التي دخلَ الكثيرُ من مفرداتها في اللهجات المكّيـة. وذلك قبل اجـتـياح المسلـمين لبلاد فـارس، وقـبل معـرفتـهم باللغـة الفارسيّة.

وبسبب عهـود قريش مع الفرس استطاع المكّيون الاتّصـال المباشر مع المناذرة أهل الحيـرة والأنبار، حلفاء الفرس، وأعـداء الغساسنة والبـيزنطيين. وكان هؤلاء المناذرة يتاجرون في أسواق مكّة في حـماية بعض رؤساء القبائل العربيّة[٨٤]. وبسبب هذا النـشـاط التجـاري تعلّم المكّيون أصولَ الكـتابة والقلم العربي من الحيرة[٨٥]. وجاء معلّمون من الحِيـرة والأنبار يدرّسون لغتهم في مكّة، حتى أصبحت لغتُهم وقلمُهم لغةَ قريش وقلَمَها المعمول به حتى اليوم[٨٦]. وكان من الطبيعي أن يدخلَ، مع اللغة معتقدات وعادات من أهل الحيرة، ظهرت واضحةً في القرآن والأحاديث النبويّة.

---

(٨٣) تاريخ الطبري ٢/١٢ .

(٨٤) ابن الأثيـر، الكامل في التـاريخ ١/٣٥٩ - ٣٦٠، النويري، نهـاية الأرب، ١٥/٤٢٥، أحمد أمين، فجر الاسلام، ١٤.

(٨٥) ابن هشام ٢٩١، الزبيري، نسب قريش ١٣٦، وخاصّة البـلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٨٦) أنظر كتابنا «أعربي هو؟»، فصل اللغة العربية.

ولكن، بالرغم من اتّصال مكّة بالفرس، لم يُعرف عن هؤلاء أنّهم نشطوا في تجارتهم مع مكّة، وذلك بسبب استيراد الفرس أنفسِهم للبضائع من بلد نشأتها، أي من الهند وإمارات الخليج الفارسي. فلهذا لم يكن تأثير بالغ بين مكّة وبلاد فارس. بل كان اتّصال مباشر بين هؤلاء الفرس ومصادر بضائعهم، ممّا أضعف الحركة التجارية بينهم وبين مكّة. أضف الى ذلك: انّ «احتكار الفرس للتجارة الشرقيّة، ومغالاتهم في قيمة الضرائب. ورفع الأسعار، من الأسباب التي روّجت تجارة مكّة، وقوّت مركزها لدى البيزنطيين»[٨٧]. ومع ذلك استفادت قريش من حلفاء الفرس أعظم ما يمكن أن يستفيده انسان، أي اللغة والقلم العربيّين. لقد كان المناذرة بالنسبة الى مكّة والحجاز تماما كما كان الفينيقيون بالنسبة الى اليونان والرومان.

٤ - اليهود - المتنصّرون (أي النّصارى)

لا نجد لليهود، في السور المكّية، أي ذكر. بل لفظة «يهود» نفسها لم يستعملها القرآن المكّي. ولكن هناك استعمال واسع لتَعبيرَي «أهل الكتاب»[٨٨] و «بني اسرائيل»[٨٩]، وللفظة «نصارى»[٩٠]. كما أنّ هناك ذكراً لأنبياء العهد القديم وشخصياته البارزة، ابتداءاً من آدم وقصته في الجنّة، وأبنائه وأحفاده، الى نوح وأولاده وحادثة الطوفان، الى ابراهيم وابنَيه إسحق واسماعيل، وامرأته هاجر، الى لوط وعمله الشنيع مع بناته، الى يعقوب وأسباطه الاثني عشر، الى يوسف وقصّته مع أخوته، الى موسى وهارون ويشوع بن نون،

(٨٧) الشريف، مكّة والمدينة...، ١٦٣ - ١٦٤ .

(٨٨) يرد هذا التعبير ٥٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.

(٨٩) يرد هذا التعبير ٤١ مرّة . انظر المعجم المفهرس للقرآن.

(٩٠) ترد هذه اللّفظة ١٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.

وقصّتهم مع فرعون مصر... الى تعاليم مأخوذة مباشرة من التوراة والمزامير والأسفار الحكمية... الى غير ذلك الكثير...

ولكن هذا لا يعني أنّ القرآن المكّي أخذ معارفه عن اليهود مباشرة. فهذه كلّها أمور مشتركة بين اليهود واليهود – المتنصّرين، أي النّصارى. وليس من حجّة تدلّ على أنّ النبيّ أخذ علمه بها من اليهود مباشرةً. بل هناك حجّة تثبت عكس ذلك، أي تثبت أن القرآن لم ينقل عن اليهود، اذ لو كان أخذ عن اليهود مباشرة، لكان ذَكَرَ، أقلّه، ولو لمرّة واحدة،، أسماً واحداً من أحد الأنبياء اليهود الكبار، أمثال: اشعيا، وارميا، وأليشَع، وحزقيال، ودانيال، وعاموس، وهوشع، وغيرهم... جلّ ما أخذه القرآن كان من الأسفار الخمسة الأولى، وهي أسفار يأخذ بها اليهودُ–المتنصّرون، أي، كما يسمّيهم القرآن، النّصارى. ولا يأخذون بسواها.

والمسلمون أنفسهم يشهدون على غياب اليهود عن مكّة. فابراهيم الشّريف يؤكّد بـ «أنّه لم تكن في مكّة جالية يهوديّة كبيرة، ولا صغيرة، حيث لم يذكر القرآن المكّي احتكاكاً ولجاجاً بينهم وبين النّبي كما حدث في يثرب. ومن المحتمل أنّ المستقرّين منهم بمكة كانوا أفراداً قلائل.. وأنّه لم يكن لهم أثر في حياة مكّة السياسيّة، كما كان شأن الإسرائيليّين في يثرب»[٩١].

وربما يعود سبب ذلك الى أنّ عمَلَ اليهود لم يكن يناسب وضع مكّة التجاري؛ ولا عصبيّة اليهود تناسب وضع بلد منفتح كمكّة: فمكة مدينة تجارية؛ واليهود شعب يعمل في الصناعة والزراعة. مكّة مدينة منفتحة؛ واليهود شعب مغلق على ذاته. مكّة سمحة متساهلة، تترفّع عن كل تعصّب؛ واليهود تأكلهم الأثرة والأنانيّة التعصّب. مكّة تقبل في كعبتها آلهة متنوّعة، وتمارس عبادات وتقاليد متلونّة؛ واليهود يغارون على «يَهْوَاهُم»، ويتشدّدون

(٩١) ابراهيم الشريف، مكّة والمدينة في الجاهليّة وعهد الرّسول، ص ٩٥ .

في ممارساتهم الدينية. مكّة تستميت في فعل الحسنات والصدقات؛ واليهود يموتون إنْ أحسنوا صنيعاً مع الأمم. مكّة تهوى الحركة والتنقّل وتغيير السلع والبضائع؛ واليهود يفضّلون الاستقرار، ويُهلكهم التفريط والإسراف... فاذا ما استجاب القدر ونجح أحد أبناء مكّة بثورة اجتماعيّة ما، فسوف يكون اليهود أوّل ضحيّة. وسيكون ذلك لا محالة.

ثمّ إنّ إجلاء الأحباش لليهود عن اليمن، بعد حادثة نجران، أكمل سعيَه فأجلاهم، أيضاً، عن مكّة، موردِ رزقهم. هذا، بالإضافة إلى أنّنا لم نسمع قط بأيّة قبيلة يهوديّة سكنت مكّة، أو رابطت في ضواحيها. وأيضاً: منذ البدء ، وتحسّبا لما بعد، تنبّه تجّار مكّة وأربابها الى خطر اليهود عليهم في اقتصادهم ومعتقداتهم. وفي كتب السيرة أيضا، نرى الذين عرفوا علامات النبوّة العتيدة في محمّد، حذّروه من خطر اليهود المحدق. ونحن ان لم نأخذ بهذه التنبؤات، فانّنا لا نسطيع الاّ الأخذ بهذا الخطر والتأكد منه والتنبّه اليه[٩٢].

الاّ أنّ خطأ جسيما وقع فيه أهلُ الأخبار والسِير، وهو يكمن في خلطهم بين اليهود واليهود–المتنصّرين. أولئك لم تعرفهم مكّة، أمّا هؤلاء فمعظم مكّة منهم. هؤلاء هم المسمّون في القرآن« «أهل العلم» و «بني أسرائيل» و «أهل الكتاب» و «النصارى» و«الحنفاء» و «الحمس» و «الصابئة». وهم يختلفون في عقيدتهم عن اليهود وعن المسيحيين سواء: عن اليهود لأنهم يؤمنون بالمسيح نبيّاً، فيما اليهود لا يؤمنون؛ وعن المسيحيين لأنّهم لايؤمنون به إلهاً. على هؤلاء المسيحيين لم يتعرّف محمّد الاّ في السنة ما قبل الأخيرة من حياته[٩٣].

---

(٩٢) أنظر في ذلك كتب السير عن تنبّؤات الأحبار والرهبان والكهّان والسحرة والملوك.. وجميعهم يحذّر النبي من خطر اليهود. راجع: سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، والسيرة الحلبية، والمكيّة، وابن كثير والطبري، وابن الأثير، واليعقوبي، والمسعودي، وابن خلدون، والواقدي، وغيرهم وغيرهم...

(٩٣) أنظر كتاب «قسّ ونبيّ، في الفرق بين المسيحيين والنصارى واليهود.

خَاتِمَةُ الفَصْلِ الثّاني

نستنتج من وضع سكّان مكّة جملةً أمور، قد تكون بالغة الأهمّيّة في بدء الدعوة الإسلاميّة. إنّ هويّة سكّان مكّة تقرّر، بدون شكّ، هويّة الإسلام. لأنّ الرسالة انّما تكون لشعب يُدركها ويفهمها. إنّها رسالة معيّنة لشعبٍ معيّن، في وضع معيّن، في زمن معيّن، وفي بيئة معيّنة. وتكون بلغةٍ يدركها الجميع، وفي متناول الجميع. ألم يقل القرآن: «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بَعث فيهم رسولاً من أنفسهم»[٩٤]؟ ألم يقل أيضا: «أرسلنا فيكم رسولاً منكم»[٩٥]؟ أو قوله: «لكل أمّة رسول»[٩٦]؟ أو «بعثنا في كل أمّة رسولا»[٩٧]؟ ... لهذا السبب نقول: ان نوعيّة الشعب تحدّد نوعيّة الرسالة.

وشعب مكة، لا بدّ هو الآخر من أن تميّزه طبيعةُ الأرض التي تغمره فتطبعه البيئةُ بطابعها، ويوجّهه المجتمع بحسب توجّهاته وقيمه. وأهم صفات هذا المجتمع البشري في مكة انّه «شعب تجمّع»، لا يؤلّف «جماعة». وشعب «منفتح» لا مغلق. وشعب حركة تجاريّة ناشطة، لا شعب راكد خمول. انّه شعب متساهل سموح، لا شعب متعصّب متزمّت.

ثمّ إنّ مكّة لم تكن في عزلة عن العالم الخارجي. وسكّان مكة لم يكونوا ليكرهوا الغريب والجار، كما يصوّره أهل الأخبار. بل كانوا يرحلون،

---

(٩٤) القرآن ٣/ ١٦٤، أنظر: ٢/٦٢، ٢/ ١٢٩.

(٩٥) القرآن ٢/ ١٥١، ٢٣٩ .

(٩٦) القرآن ١٠/ ٤٧ .

(٩٧) القرآن ١٦/ ٣٦ .

يسافرون، يتاجرون، يأخذون ما عند غيرهم، ويتأثّرون بما لغيرهم من مناقب وقيم، ويتصاهرون مع غيرهم، يتعاملون مع الكل في كل شيء.

والمكّيون، في مدينتهم، كان لهم اختلاطٌ واسع بشعوب الأرض المعروفة آنذاك. ومدينتهم لم تكن محرّمةً، في ذلك التاريخ، على النصارى أو اليهود أو المجوس أو عبدة الأوثان، كما هي حالها اليوم. ولم يكن أهلُ مكّة ليخافوا على مدينتهم اذا ما مارس كل صاحب دين دينه. هذا الانفتاح قرّر، هو الآخر، نوعيّة المجتمع فيها، وبالتالي، نوعيّة الرسالة النبويّة.

وقريش لم تكن وحدها متحكّمة بمكّة. وليست وحدها تستأثر بالحياة فيها. بل هناك قبائل وشعوب مختلفة الأعراق والأنساب انصهرت بالمجتمع المكيّ. فكان فيها أغراب وطارئون أمّوها للاستفادة من التجارة والأرباح، بسبب الأمن فيها، ومن أجل التعبدّ في كعبتها.. إلاّ أنّ المؤرّخين المسلمين اقتصروا، منذ عهد العباسيين، الكلام على قريش؛ وذلك اعلاءً لشأن النبيّ. وهكذا، أنقصوا من حقّ بقيّة السكان، دون مبرّر غير مبرّر الاحتفاظ بصحّة انتماء النبيّ القوميّ الى ما سمّوه بـ «الأمة العربيّة».

ولنا أن نلاحظ أيضا انّ الهجرة الى مكّة لم تكن متدفقّة اليها من جهة الجنوب فحسب، كما يحلو لأهل الأخبار إثباتُه، بل كانت متتالية اليها من كلّ حدب وصوب، من مختلف البيئات والمجتمعات. ومن أجل كل سبب من تلك الأسباب التي رأينا. وقد توقّفنا على هويّة بعض السكان، لما لهم في مكّة وفي الدعوة القرآنيّة من أثر ونفوذ.

الفصل الثالث

مكّة مدينة التّجارة

أوّلاً - مَوقعُ مكّة التّجاري

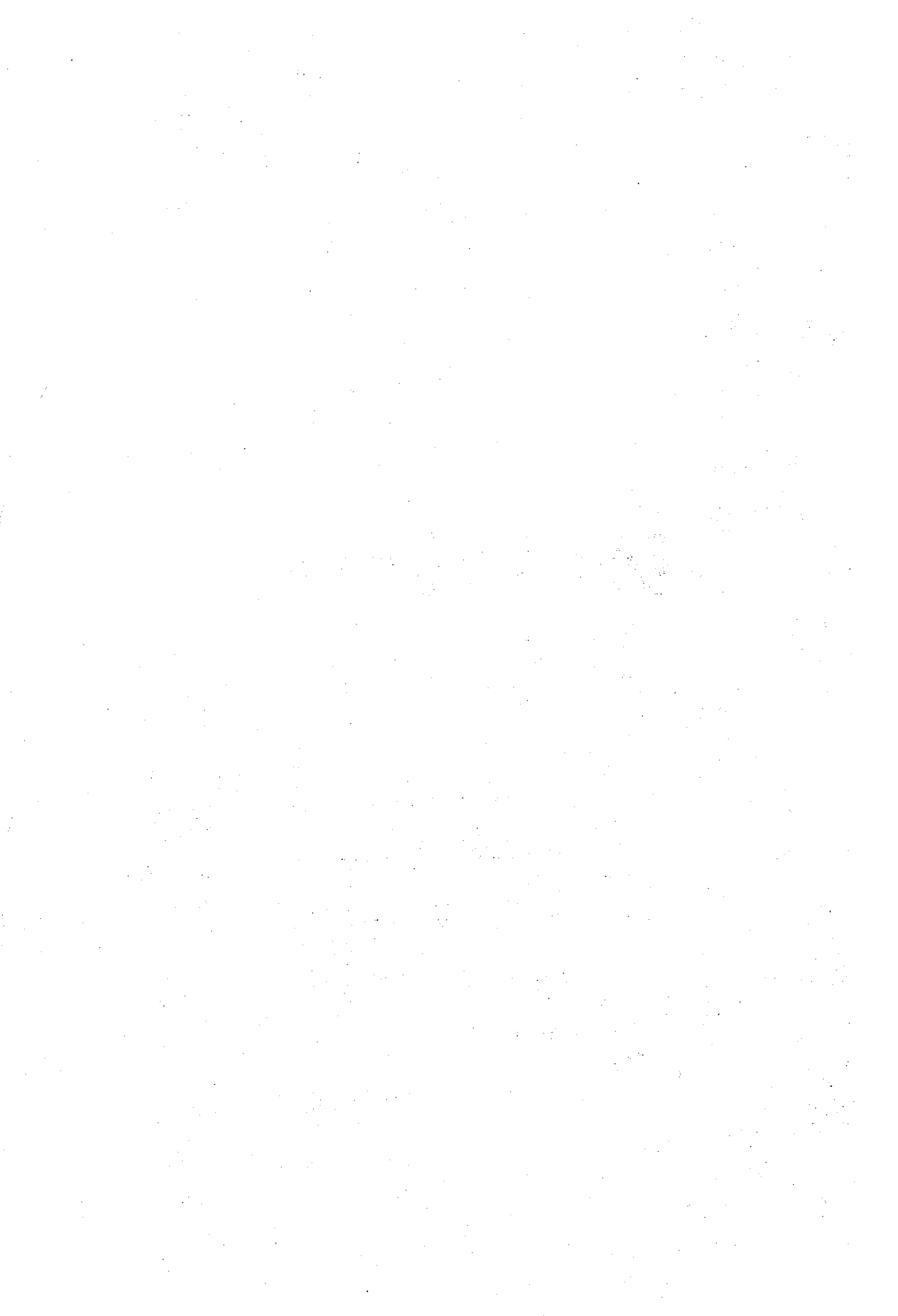
ثانياً - دَورُ مكّة التّجاري

ثالثاً - تجارة مكّة في القرآن

رابعاً - البضائع والأرباح

خامساً - قُريْشٌ التّجار

سادساً - سِرُّ نَجاح قُريش.



أوّلاً - مَوقِعُ مكّة التجاريّ

اذا كانت مكّة قد اشتهرت في التاريخ بكعبتها، فإنّها لا تقلّ شهرة من حيث دورها التجاري الذي يعود الى موقعها الجغرافي الممتاز. ففقر أرض مكّة لم يُعدِم أهلَها حيلةً. وجدبُ صحرائها يعادله نشاطُ رجالِها. وحالُ طبيعتها القَحْلُ لم يقف حائلا دون استراتيجيّة موقعها في جغرافيا الجزيرة. لقد عوّض الله على مكّة بموقعها هذا حتى غدت تستفيد منه الى أقصى حدود الاستفادة.

تقع مكّة في منتصف الطريق التجاري الممتدّ بين اليَمَن - بلادِ اليُمْنِ والخيرات - وبلادِ الشام - سوق الاستهلاك الكبير. في هذه البقعة تتجمّع القوافل الواردة من «العربيّة السعيدة» باتّجاه بلاد الشام، والقوافل العائدة من بلاد الشام باتّجاه العربيّة السعيدة. وفيها تستريح الرجال من حرّ البادية وعناء السفر. ومنها تتزوّد رزقَها وبضاعتها وما تحتاج اليه. وبفضل هذا الموقع سكن الناس مكّة، وهم من جميع الأنحاء ومختلف الألوان والمشارب. وكان لهم فيها أرباح وأموال وأرزاق.

فـ «في منتصف الطريق المعبّد للقوافل، بين اليمَن والشام، تقوم مكّة في وادٍ منبسطٍ من أودية جبال السراة، تحيط بها الجبال الجرداء من كلّ جانب، وتكاد تحجبه الاّ من ثلاثة منافذ. يصلُه أحدُها بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جَدَّة، ويصله الثالث بالطريق المؤدّي الى فلسطين»[1]. بهذه الطرق اتّصلت مكّة بالجهات الأربع، وكانت على

(١) الشريف، مكّة والمدينة..،ص ٩٥. انظر معجم البلدان ٥/ ١٨٧ .

صلة باليمن وممالك حمير وسبأ وحضرموت، ومنها مع بلاد الهند، ثم مع بلاد العراق وسوريا وفينيقيا وفلسطين، ومع غزّة ومصر والسودان والحبشة... عبر الجبال والبوادي والسهول والسهوب.

وبسبب موقعها التجاري الهامّ سمّاها القرآن «أمّ القرى»(٢)، أي عاصمة الجزيرة آنذاك، والمركز الرئيسي لمناطق تَهامة ونَجد والحجاز، والملتقى الطبيعي للقوافل الراحلة والمحمّلة بالسلع التجارية، والتجمّع الكبير للقبائل والعشائر من مختلف الأقاليم، والعقدة التي يمرّ بها الغادون والعائدون. «وفي القرن السادس الميلادي كانت أهمّ المراكز التجاريّة في شبه الجزيرة العربيّة»(٣). لكأنّها مدينة «كوسموبوليتيّة» تضمّ فيها من كل لون ونوع.

وممّا زاد في أهميّة موقعها أنّها «بَعُدَتْ عن منطقة الصراع الدولي لبُعْد موقعها. فنجت ممّا أصاب غيرَها من أطراف الجزيرة العربيّة من الوقوع في مجال العراك القائم بين الشرق والغرب (الفرس والروم) في ذلك الوقت. ولبُعدِ موقعها وصعوبةِ وصول الجيوش اليها، احتفظتْ باستقلالها.. بعدما أصاب الممالكَ القائمة في أطراف الجزيرة من انهيار، ووقوعها جميعاً تحت سلطان الدول الكبرى. وقد أتاح لها هذا كما أتاح لها موقفُها الحيادي أن تمثّل دورَ الوسيط المحايد في نقل التجارة التي كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين»(٤).

ومن المزايا التي أكسبت مكّةَ ثروةً ومالاً أنّ «من دخلها كان آمنا، ومن أحدث في غيرها من البلدان حَدَثًا ثم لجأ اليها فهو آمِنٌ اذا دخلها. فاذا خرج منها أُقيمتْ عليه الحدود.. وكان أهلُها آمنين يَغزُون الناسَ ولا يُغزَون،

---

(٢) القرآن ٦/٩٢، ٤٢/٧.

(٣) حوزيين، العربية والشرق الاقصى (بالانكليزية)، القاهرة ١٩٤٢، ص ١٤٢.

(٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٠.

ويَسبُـون ولا يُسبَون.. ولم تُسَبْ قـرشيّةٌ قـط فتوطَأ قـهرًا، ولا يُجال عليـها السهام»[٥]. وقد أشار القـرآن الى أمن مكّة وأبلغ. كما أشار الى متـاعب غيرها من القرى ومخاوف أهليها فيها :

لقد استحثّ النبيّ أهلَ قريش الى عـبادة الله، ربّ الكعبة «الذي أطعمهم من جوع وآمّنهم من خوف» (١٠٦/٢-٤). وقال أيضا في طلب ابراهيم: «واذ قال ابراهيم: ربّ اجعلْ هذا بلداً آمناً»[٦]. وجاء في القرآن أيضا: «من دخله كان آمنا» (٣/٩٧). وأيضا: «أوَلم نمكّن لهم حَـرَمًا آمِنا» (٢٨/٥٧)؟ و «أوَلم يروا أنّا جعلناه حرماً آمناً» (٢٩/٦٧)؟ وقوله: « لندخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين» (٤٨/٢٧). وأخيـرا: «واذ جعلنا البيت مـثابة للناس وأمنا» (٢/ ١٢٥). فالأمن في مكّة، إذاً، كان مستتبا، ممّا جعلها تلعب دورا تجاريًا هامًا ومميّزا.

ثمّ إنّ وجود البـيت الحرام في مكّة أكسـبها دوراً اقتـصاديا بارزا. هذا البـيت الذي أمّه أهلُ الجـزيرة من مـختـلف الأنحاء، كـان له عندهم قـدسيّـةٌ واحترام لم يحرزْهـما أيٌّ بيت آخَر يُعبَد فيه اسمُ اللـه. وقد ضاهى، بما فُرِضَ عليه من اجـلالٍ واكرام، هيكلَ اليـهودِ في أورشليم. عنده كـان يجتمع عـبدة الأديان جميعُهم. مـن يهودٍ ونصارى ومجوسٍ وصابئة. وقد انعـقد إجماعُهم على تعظيمه والحجِّ اليه. وأحاطوه بِسُـورِ أمْنٍ حتى أمسى أكثرَ أمكنةِ الجزيرة أستـقراراً وسـلاماً. فيـما كـان كلُّ مكان آخر غيـرُه يَتعَـرَّضُ للنهْب والسْلب والغزو[٧]. وكان يُمنَع فيه اتيانُ أيِّ محـرَّم، من قتالٍ واقتتالٍ[٨]، أو اعتداء[٩]، أو

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٥/١٨٢ - ١٨٣، ١٨٥ .
(٦) ٢/١٢٦، ١٤/٣٥.
(٧) انظر سورتي ١٠٦/٤، ٤٨/٢٧.
(٨) القرآن ٣/١٩١.
(٩) انظر : ٥/٢ .

كفر[١٠]، أو مباشرة النساء[١١].

ولأهمّيّة التـجارة في مكّة، كمورد رزق وحيـد لها، فَرضَ التجارُ فـيها، لأجل سلامة البائعين والشارين، «أشهـرًا حُرُمًا»، لا يكون فيها غزوٌ أو نهبٌ أو قتـال. وهي: ذو القعدة، وذو الحجّـة، ومحرّم، ورجَب. فيـها يأمن الناس على أنفسـهم وبضاعتهم وقوافلهم، فتغدو الجزيرة، طوال هذه الأشـهر، حركة هائلة من البيع والشـراء... إلاّ أنّ النبيّ، بتشريعه للجـهاد في سبيل الله ضـدّ الكفّار والمشركين، لم يتورّع من كسر قدسيةِ هـذه الأشهر والذهابِ بحرمتها، فحلّل، لأجل الله، القتالَ في الأشهر الحرم وفي المسـجد الحرام نفسـه، ذلك لأنّ الكفر والشرك، برأيه، أعظمُ فتنةً من القتال (٢/٢١٧)..

ويزيدُ في أهمّيّة مكّة أهمّية الأسواق فيها وفي ضواحيها. وهي أسواقٌ تجاريّة وأدبيـة على السواء. وقد ذكـر لنا التاريخ منها: أسـواق عكاظ ومجنّة وذا المجاز، وغـيرها.. وكـانت عكاظ أكثرَهـا شهرةً وغنى وتنوّعـا في السلع. وكان يؤمّـها الشعراءُ والخطبـاء ورجال الدين، كما يؤمّـها أصحاب التـجارة والثروة والمال. وكان الانتفاع يحصل للجـميع. إلاّ أنّ الاسلام، بمجيئه، قضى على التجارة فـيها و «هدم ذلك»[١٢]. وورد في الحديث « عن ابن عـبّاس قال: «كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقا في الجـاهلية. فلما كان الاسلام تأثّموا من التجارة فيها، فأنزل الله: «ليس عليكم جناح في موسم الحج»[١٣]، أي ليس عليكم أن تجنحوا الى التجارة وأنتم تقصدون حجّ البيت».

---

(١٠) انظر: ٢/٢١٧، ٢٢/٢٥، ٤٨/٢٥، ٩/١٧.

(١١) سورة البقرة ٢/٨٧.

(١٢) تاج العروس، ٥/٢٥٤: عكظ.

(١٣) إرشاد الساري ٤/٣٧؛ تفسير الطبري ٢/١٦٤؛ سورة البقرة ٢/١٩٨.

ثانياً - دَورُ مكّة التجَاري

قبل القـرن السادس للميـلاد، كانت التـجارة في الجزيرة العـربيّة في أيدي اليمنيين، فينيقيّي العرب آنذاك. أولئك عبـروا الصحراء، كما هؤلاء عبروا البحار. فتـاجروا بمختلف أنواع السلع، مع مختلف البلدان المجـاورة. فكسبوا من ذلك مالا وعلما وانفتاحـا وتوسّعا ومجتمعا متحـضّرا. وأنشأوا مدنيّة تلو مدنـيّة يدين لهـا العالم حـتى اليوم. وخلّفـوا، فوق أرضــهم، ممالك بلغت في الحضارة شأنا كبيرا. مثل حمير وسبأ وحضرموت وقتبان وغيرها..

هؤلاء اليمنيّـون عبروا الصـحراء صوب بلاد الشـام، مروراً بمحطّات تجاريّة أنشـأوها على طرق قوافلهم. فكان منها مـحطّة في عسيـر، وثانية في نجران، وثالثة في مكّة، ورابعـة في يثرب، وخامسة في البتـراء، الى غير ذلك. وكانت مكّـة أشهرها. وكـثيـرا ما توقّف اليـمنيّون فيـها، لاسـتعـادة قواهم، والتقاط أنفاســهم، بعد عناء سَيْرٍ مضْنٍ. وكان توقّفـهم يطول ليدّخروا نشاطا يدوم. وكـان المكّيون يقظين ليـسرقـوا منهم أسـرار الربح وكسب المال. وقـد أعدّوا نفـوسهم ومـدينتهم وابلهم ومـجتـمعهم للقـيام بمهـمّة التـجارة هذه. وسـاعـدهم على ذلـك، في بداية، القـرن الســادس، سـوء حـال الـيـمن التي «تدهورت نتيـجةً للصراع الداخلي بسـبب الخلاف الديني»[١٤] بين المسيـحيّة واليهوديّة.

لم يفتـأ المكّيون، إذاً، حتى اكـتسبـوا من اليمنيّين أسـرارَ الربح وجمع المال. ولم يتـأخروا ليتـعلّموا مـهنة التجـارة والسفـر. فسـافروا بأنفـسهم،

---

(١٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٢.

وتاجروا، وغـامروا. وكانوا أهلا لكلٍّ ذلك. فـاختبـروا عبور البـادية، وحمّلوا عيْـرَهم من بضـائع اليمن، ووجّـهوها صـوب بلاد الشام، فـباعوا، وربـحوا، ورجعوا مـيسورين مسرورين. ثمّ مرّة ثانية، وثالثة، ورابعة، فـتملّكهم المال حتى العـبادة. وما ان كانـت الدعوة المحمّدية حـتى أصبح المكّيون يسـتأثرون بالتجـارة والأرباح. فعظمت أموالهم، وتعـدّدت أسفارهم بكل اتّجـاه. وأصبح مـعظم سكّان مكّة تجـارا مـحـتكرِين، ومـرابين نهِمين، وأثرياء مـتـخَـمين، ومغـامرين لا يَتعـبون. وسيطروا، من ثمّ، على طرق التـجارة، فأزاحـوا بقايا اليمنيين من وجههم، وأضحت مسالك الصحراء تحت سيطرتهم، وبكل اتّجاه.

إلاّ أنّ الضربةَ كـانت على اليمن قـاسيـة. بل هي ضربتـان: ضربة من الحبـشة، وضربة من مكّة. الأولى كانت بـسبب احتلالٍ حـبشيٍّ لها، وتغيـير صورة الحكم فـيها، علي يد «أبْرَهَة» قـائِد الجيوش الحبـشيّة. والثانيـة كانت بسبب استغـلال المكّيين لهذا الاحتلال واستئثارهم بقـوافل التجارة... لكن، ما ان استقرّ أمر «أبرهة» قليلا، واسـتولى على اليمن، حتى قرّر الزحف على مكّة ليمنع تجّـارها من استغـلال الوضع. وان اقتضى الأمر سـيهدّم الكعـبة على رؤوس أربابها. وبالفـعل كانت هذه نيّـته. فقـصد الكعـبة. وكثـيرا ما يفـسّر المسلمون حـملة أبرهة هذه بدوافع دينية وحسـب. الاّ أنّ الحقيقـة كانت لأجل القضـاء على تجارة مكّةومكاسـبها، التي كـادت، لفرط أرباحهـا، تقضي على اقتصاد اليمن والحبشة معا.

وسببٌ آخر في ضعف تجارة اليمن وقـد يعود الى «وقوعها في منطقة التصارع الدولي بين الأمبـراطوريّة الفارسية والأمبراطوريّة البـيزنطيّة. وقد استخـدمتِ الأخيرةُ الحبشـةَ حليفَتها لاقـرارِ النفوذِ الرومي على جنوب بلاد العـرب عن طريق غـزوا اليمن. وتـكرّرت غزوات الحـبـشة على الـيمن حـتى سـقطت في يدها في النصف الأوّل من القـرن السـادس، وقـد استـمـرّ حكم

الحبشة لليمن حتى أخرجهم الفرسُ منها حوالي سنة ٦٧٥ م. ولم تتحرّر اليمن من الاحتلال الأجنبي (الحبشي والرومي والفارسي) الاّ بعد ظهور الاسلام وانضمامها الى الدولة العربيّة الاسلاميّة»[١٥]. وبضعف اليمن انتقلت التجارة منها الى حيث تجد لها شعبا جائعا ومركزا ناشطا ملائما، فكانت مكّة.

وكذلك أيضا أصاب ممالكَ الشمال، من أنباط وتدمريين وغساسنة ومناذرة، ما أصاب اليمن. وكانت مكّة هي المستفيدة في كلّ مرّة. فنتيجةً لتدهور العلاقات بين الفرس والروم، تدهورت العلاقات أيضا بين حلفائهم: فاشترك المناذرة، ملوكُ الحِيرة، في هذا الصراع الى جانب الفرس؛ واشترك الغساسنةُ الى جانب الروم. فأضعفوا بعضَهم بعضا، وفقدوا سيطرتهم على طرق التجارة، وخسروا منتوجات بلادهم الغنيّة، وأصبح اهتمامَهم الكبير القضاءُ على بعضهم بعضا. وقد أجاد الواقدي بوصفهم عندما قال عنهم: «ان هؤلاء عرب وأنتم عرب. وهلاك كل شيء من جنسه»[١٦]. وكانت مكّة، بسبب هذا العداء، أحسن المستفيدين وأكبر المستغلّين.

وأيضا، بعدما قضى الرومان على الأنباط، ودمّروا تدمر، أصبح أهل مكة سادة تلك الطرق. وقد أعانهم على ذلك خبرتُهم بمنعرجات الصحراء الصعبة، وتحمّلُهم القيظ وجفاف المناخ، وتربيتُهم الابل والاعتماد عليها، وتنظيمُ القوافل وتزويدُها بما تحتاج اليه من زاد وماء، وعلمُهم بمواقع الواحات حيث يتوافر العشب والخصب، وتعيينُهم لمنازل اللصوص والصعاليك وقطّاع الطرق، ومعرفتُهم بالحصون، حيث يلجأون لحراسة أموالهم وبضائعهم.. كل ذلك ساهم في انتقال التجارة الى مكّة وسكّانها الذين أصبحوا أسياد البادية دون منازع.

---

(١٥) الشريف، مكّة والمدينة، ص ٢٠٣.

(١٦) الواقدي، فتوح الشام، ٢/ ١٨٥. وغيرها في كتاب «أعربي هو»، ص ١٤٣.

ولكن، لماذا مكّة؟ وليس يثرب، أو الطائف، أو نجران، أو غيرها ؟ لماذا أصبحت مكّة هي المحطّة التجارية الكبرى على حساب سائر المحطّات الشهيرة الممتدّة على الطريق الرومانيّة التي تربط اليمن ببلاد الشام عبر البادية؟ لماذ لم تكن يثرب «وهي أرض يتوفّر فيها الماء والنبات؟ »[١٧] ولماذا لم تكن الطائف وهي تقع على مسيرة يوم من مكّة، وتنفرد بمناخها وخصبها اللذين جعلا منها واحة هذا الاقليم القحل؟[١٨] ولماذا لم تكن نجران المدينة المسيحية العامرة، ذات كعبة شهيرة ككعبة مكّة؟ ولماذا أخيرا لمن تكن البتراء المدينة التاريخيّة المحصّنة بالصخور والقلاع، والغنيّة بخزّانات المياه وأهراءات الحنطة؟

من الجائز أن تكون هذه المدن مراكز تجاريّة هامّة، وأن تنافس مكّة، وتستجلب الأنظار اليها.. إلاّ أنّ نجران أحرقتْ، والبتراء دُمِّرتْ، والطائف تنحاز عن الطريق العام للقوافل، ويثرب يستأثر بها اليهودُ... ولم يبق الاّ مكّة تحظى بموقع استراتيجي هام لأعمال التجارة. فهي «على مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية»[١٩]. ونشاط أهلها استحثّهم للتعويض عمّا نكبتهم به الطبيعة. وبيت الكعبة شدّ العرب اليها، وتحصّنها بين الجبال أبعد عنها الغزاة. وجدب أرضها وفّر عليها الاقتتال في سبيل المراعي... كل هذا استوجب أن تكون مكّة هي المختارة لأن تلعب دوراً تجاريّاً كبيراً في الجزيرة.

---

(١٧) معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(١٨) المرجع نفسه، ٤/ ٩٨.

(١٩) لامنس، مكة الجمهورية التجارية، (بالفرنسية)، ص ٥١.

ثالثاً - تِجَارةُ مكّة في القرآن

لو لم يشهد القرآن نفسُه على تجارة مكّة وأهميّتها لبقيت معرفتنا بما جاءت به كتب السير والأخبار مضطربة وغير كافية. إلاّ أنّ هذه الكتب لم تعمل الاّ في تفسير ما جاء به القرآن. وما جاء به القرآن خير إشارة. فهو يشير، بصراحة ووضوح وابلاغ، الى انهماك أهل مكّة بجمع المال، والى أسفارهم الرابحة في الصيف والشتاء، في البرّ والبحر[٢٠]. واستعمل لفظة تجارة وتجارتهم عشر مرّات. كما استعمل مصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتّجار والتجارة والمعيشة والكسب. كما أنّ فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش، والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت.

«وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع.. وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين؛ بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها، لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب والتأجيل والتعجيل وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر الذي يعي الناحية المادّية من ربح وخسارة وكسب وتوفير، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً، لأنّها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي»[٢١].

لقد مدح القرآن رجالا «لا تلهيهم تجارة ولا بيع» (٢٤/٣٧). وحذّر أولئك «الذين اتّخذوا دينهم لهوا ولعبا، وغرّتهم الحياة الدنيا» (٦/ ٧٠؛ ٧/

(٢٠) Cf. Torrey, The commercial-theological Terms in the Koran...

(٢١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٧/ ٢٢٨.

٥١). وندّد بالذين «اذا رأوا تجارة أو لَهْوًا انفضّوا اليها وتركوك قائما. قل ما عند الله خيرٌ من اللهو من التجارة. والله خير الرازقين» (٦٢/ ١١). وأنّب الذين يهتمّون بالبيع والشراء على حساب اهتمامهم بالله: «ذَرُوا البيعَ. ذلك خير لكم. ان كنتم تعلمون» (٦٢/ ٩). وعلّم بأن « لا تُلْهِكم أموالكم عن ذكر الله» (٦٣/ ٩). ووضع لهم شرعة التعامل الصحيح فلا تكون فيما بينهم تجارةٌ إلاّ عن تراضٍ، ولا يأكل الواحد منهم مال الآخر (٤/ ٢٩). ودعاهم أخيرا الى تجارة مع الله لا تكسد ولا تبور، وتنجّيهم من عذابات جهنّم، فقال: «يا أيّها الذين آمنوا! هل أدلّكم على تجارة تنجّيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم»[٢٢].

ثم أوضح القرآن شروط التجارة والمعاملة ليؤمّن التّجار على أموالهم وأمتعتهم من اللصوص والسارقين. فدعاهم الى احترام «الأشهر الحرم»، اذ هي فرصة مقدّسة يغتنمها العرب ليشدّوا الرحال الى مكّة، ويقيموا فيها «الأسواق»، ويتبادلوا السلع، ويبيعوا ويشتروا ويتعارفوا ويتسامروا. وأوصاهم بأن يتزوّدوا ويستفيدوا من هدنة الأشهر الحرم، ويسدّوا عوزهم، ويشهدوا لهم منافع[٢٣]... الاّ أنّ النبي، بعد انتشار الاسلام وقوّته، عاد فنقض ما أوصى به (٢/ ٢١٧).

لكنّ القرآن كان حذرا جدًّا من تفاقم الأعمال التجاريّة وتزايد الأموال وأصناف السلع في مكّة. وخَشي أن تقضي كثرةُ التجارة والأرباح على الحياة الروحيّة، وعلى ذكرِ الله، واقامة الصلاة. فدعا مثلاً الى عدم اعتبار الربا كالبيع حيث قال: «أحلّ الله البيع وحرّم الربا» (٢/ ٢٧٥). ودعا أصحابه الى ترك البيع والشراء لأجل القيام بالصلاة: «اذا نودي للصلاة.. فاسعوا الى ذكر

(٢٢) ٦١/ ١٠، ٩/ ٢٤، ٣٥/ ٢٩.
(٢٣) ٢٢/ ٢٧، ٢/ ١٩٧ – ١٩٨.

الله. وذروا البيع» (٦٢/ ٩). وذكّرهم باليوم الآخَـر الذي لا يفيد فيه لا بيع ولا تجارة[٢٤]. وفي رأيه، أنّ خيـر تجارة هي التـجارة مع الله، بالصـوم والصلاة والصـدقـات، فهي «لـن تبور» (٣٥/ ٢٩)، ولا يُـخشى كسـادُها (٩/ ٢٤)، وتنجّي من عذاب النار (٦١/ ١٠).

وتشديد القرآن على نوعـيّة التجارة يشير الى حقـيقة راهنة، وهي «أنّ محـمّدا احـتفظ، كل حيـاته، بطابع تربيتـه القرشـية. هذا الطابع كـان تجارياً بصميـمه، وهو يفضح نفســه في كل آيات القرآن»[٢٥]. وحتى بعد انـتقاله الى المدينة حيث «أصبح الرســول مشترِعا، بقي عـالَمُه الخاص، في عمقِه، قـرشياً وتجاريا»[٢٦]. فالبحـر، مثلا، لم يلهمْه سـوى «ما ينفع الناس»[٢٧]، أي «الصيد حلالاً والطعام متاعا»[٢٨]. والله نفسه «سخّر البحر لتأكلوا منه»[٢٩].

وحتى «لغـة القرآن اللاهوتيّة لم تخـرج قطّ في أسلوبها وألفـاظها عن أسلوب الواقع التجـاري وألفاظه العـمليّة»[٣٠]. وحتى كـلام الله، يوم القيـامة العامّة، لا يخلو من ألفاظ التـجّار وتعابيرهم. فهو يقول مـثلا: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفســهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة»[٣١]. وتجدر الاشارة هنا الى أنّ لفظتي «البيـع والشراء» يستـعملها القـرآن في كل مواضيـعه، وفي أيّ شكل كان[٣٢]، وكذلـك ألفاظ مـثل : الحساب والاحـصـاء والمثـقال والوزن والمـيزان

---

(٢٤) ٢/ ٢٥٤، ١٤/ ٣١.

(٢٥) لامنس، مكة عشية الهجرة، بالفرنسية، ص ٢١٥.

(٢٦) المرجع نفسه. ويستعمل لامنس لـ«عالمه الخاص» كلمة Weltanschauung

(٢٧) ٢/ ١٦٤.

(٢٨) ٥/ ٩٦.

(٢٩) ١٦/ ١٤. أنظر: ١٤/ ٣٢، ١٧/ ٦٦، ٣٣/ ٦٥، ٤٥/ ١٢.

(٣٠) لامنس، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٣١) القرآن ٩/ ١١١.

(٣٢) أنظر هاتين اللفظتين في معجم القرآن المفهرس: بيع ومشتقّاتها ١٥ مرّة.

والكيل والخـازن والقسط والأجـر والأموال والمتـفـرّق والأمـانات والودائع والصكّ والرقاع والسـجل والقنطار والدرهم والدينار والصرف والتـصريف والتفصـيل واللهو واللعب...[٣٣] وهي ألفاظ من صمـيم الواقع التجاري. لكأنّ القرآن توجّهُه التجارة، وتسيّره همومَها، وهو يعالج مواضيعَه بالنسبة اليها.

(٣٣) أنظر هذه الألفاظ في معجم القرآن المفهرس: ألشراء ومشتقّاتها ٢٥ مرّة

رابعاً - البضائع والأرباح

كانت البضائع المتداولة في مكّة كثيرة ومتنوّعة، ومن مصادر مختلفة. فكانت القوافل تحمل من الجنوب حاصلات الهند والحبشة والسودان ومصر واليمن وجزيرة سقطرة، ومن الشمال حاصلات العراق والشام وفينيقيا... فمن الهند كانت تحمل «الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصَندل والتوابل والأفاويه، كالبهار والفلفل ونحوها، والمنسوجات الحريريّة والقطنيّة والكتّانيّة، والأرجوان والميعة والزعفران، والآنية من الفضة والحديد.

«كما تحمل من حاصلات أفريقيا الشرقية العطور والأطياب وخشب الابنوس وريش النعام والجلود والذهب والعاج والرقيق[٣٤]. كما تحمل من حاصلات اليمن البخور واللبان والمرّ واللادن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيّبة[٣٥]. ومن حاصلات جزيرة سقطرة العود والند. ومن البحرين اللؤلؤ.

«وتحمل من الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا[٣٦]. هذا بالاضافة الى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من

---

(٣٤) الطبري ٢/ ١٨١، جورج فضلو، العرب والملاحة، ٧٦.

(٣٥) تاريخ الطبري ٢/ ٥٧، الواقدي ١/ ٦٥، الاغاني للاصفهاني ١/ ٦٤ - ٦٥، جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام ١٥١.

(٣٦) أنظر: ابن هشام ١/ ١٤٧، أنساب الاشراف ١/ ٥٨، زيدان ١٧٨.

الزيت والبلح والقرظ والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن»[٣٧].

وقد أشار القرآن الى كثرة السلع وتنوّعها. ويذكر بعضَها بأسمائها. ويتكلّم على استخدام أهل مكّة لها. وينوّه بأن مكّة كانت لها محطة استراحة لتنتقل بعدها الى حيث يجدي استهلاكُها أرباحا وافرة.

وزاد في أرباح مكّة، علاوة على وفرة السلع المتبادلة، عمليّات الصيرفة والشحن والتفريغ والتأمين والضرائب... وقد اكتسبت قريش، بما كان لها من حرمة وزعامة، مكانة عظيمة في التجارة والأرباح. فقد أمّنتِ التجّارَ والداخلين على مكّة، ووفّرت لهم الطمأنينة، و«السقاية» و«الرفادة»، وجعلت تنقلاتهم تحصل بأمان وسلام. وكان للأمن، طبعا، ثمنٌ باهظ، يدفعه العابرون، وينضم الى مكاسب قريش وأرباحها.

وبكثرة البضائع كثرت القوافل التجارية صيفا وشتاء شمالا وجنوبا، في البرّ كما في البحر. وكان يبلغ عدد القافلة أحيانا ألفين وخمسمائة بعير. وتقدّر حمولتها بأكثر من خمسين ألف دينار[٣٨]. ولم يبق من قريش رجل أو امرأة يستطيع التجارة والسفر وجني الأرباح الاّ وكان ينضّم الى القوافل حتى «كانت القافلة تحمل أموالا لأهل مكّة جميعا»[٣٩]. وقد ألمح القرآن الى مساهمة النساء في قوله: «للرجال نصيب ممّا اكتسبوا، وللنساء نصيب ممّا اكتسبن»[٤٠].

وفي كتب الأخبار أخبارٌ كثيرة عن مقدار الربح الذي كان يصيبه التجّار. وقد عبّر الواقدي عن ذلك بقوله: «و«كانوا يربحون في تجارتهم

---

(٣٧) الطبري ٢/ ١٢٥. نقلا عن الشريف، مكة والمدينة، ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٣٨) اليعقوبي ١/ ٢٠٢.

(٣٩) الواقدي، المغازي ١٨.

(٤٠) سورة النساء ٤/ ٣٢.

للدينار دينارا»[٤١]. وقال ابن سعد: «ربحوا للدرهم درهما»[٤٢]. وقال الطبري: «أصابوا للدرهم درهمين»[٤٣]. وكل عمل، مهما كان شأنه، كان رابحا، فعبدالله بن جدعان يؤكّد لنا بقوله: «قد رأيتَني ولو رفعتُ حَجراً لَرَجَوتُ أن أُصيبَ ذهباً أو فضّة»[٤٤]. وقيل عن أحد الصحابة انه «لو اشترى ترابا لربح فيه»[٤٥]

(٤١) الواقدي، المغازي ١٩٨.
(٤٢) طبقات ١/١، ٤٢ - ٤٣.
(٤٣) تاريخ الطبري ١/ ١٤٦٠.
(٤٤) ابن حنبل ٣/ ٢٧١، ٧.
(٤٥) الترمذي ١/ ١٤٥.

خامساً - قريشُ التجّار

الثروة في بلد تجاري رهن بذكاء أهله. ويستتبع الذكاءَ دَهاءٌ وخِبرة. والكلّ يفترضُ الكثيرَ من المعرفة: معرفةٍ بطبائع الناس، وأحوالِ المجتمع، ومنعرجاتِ الطرق، وعلمٍ بأكثر من لغة، وميلٍ الى السلم والمراوغة، وادراكٍ لأسواق البضائع، ومهارةٍ في لعبة العرض والطلب... ولم يَنقصْ قريشًا من هذه شيء، حتى غدتْ في التاريخ قبيلةَ التجارة بدون منازع.

ولم تبخل علينا كتبُ الأخبار بما عرفته عن قريش. فسمّتها «قريش التجّار» في قولٍ وَرَدَ على لسان كاهنةٍ من اليمن جاء فيه: «لله درّ الديار لقريشِ التّجار»[٤٦]، وفي قولٍ سائرٍ: «فلان يتقرّش المال، يجمعه»[٤٧]. وفي تقاليد قريش: «من لم يكن منهم تاجرا فليس عندهم بشيء»[٤٨]. وكان أهل قريش يعرفون بأن لا بقاء لهم ان لم يكونوا تجّارا. فجاء بذلك قولهم: «ما لنا بها (بمكة) بقاء. وانّما نزلناها على التجارة»[٤٩].

واسم «قريش» من الذي «يَقرُشُ عن حاجة الناس فيسدّها بالمال. والتقرّش هو التفتيش، أي يفتّشون عن الحاجة فيسدّونها بما يبلغهم»[٥٠] وسمّاهم قصيّ، جَدُّهم الأعلى، بهذا الاسم، لأنّهم يفتّشون الحاجّ فيَسِدّون

---

(٤٦) رسائل الجاحظ، الرحمانية ١٩٥٨، ص ١٥٦.

(٤٧) لسان العرب ٦/ ٣٣٤ - ٣٣٦ (مادة: قرش). السيرة المكية بهامش الحلبيّة ١/ ١٤.

(٤٨) السيرة المكية بهامش الحلبية ١/١١٨.

(٤٩) الواقدي، المغازي، ١٩٦.

(٥٠) تاريخ الطبري ٢/ ٢٦٣.

خِلَّتَهم. فمن كان محتاجا أغنوه، ومن كان عاريا كسوه، ومن كان معدوما حموه، ومن كان طريدا آووه»[٥١]. وقيل أيضا: القرش: الجمع والكسب. عن ابن سيده: قرش قرشا جمع وضمّ من هنا وهنا. وبه سمّيت قريش. وتقرّش القوم تجمّعوا. وقيل سمّيت بذلك لانهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع، من قولهم: فلان يتقرّش المال أي يجمعه[٥٢]. وصاروا من ثمّ أصحاب مال وغنى ، فملكوا الأملاك كما ملكوا الإبل[٥٣]. وأيضا قيل: «سمّيت قريش قريشا لانّها كانت تجّارا تكتسب وتتجّر»[٥٤]. «والتقرّش: التجارة والاكتساب»[٥٥]. ووصفوا بأنّهم «كانوا قوما تجّارا»[٥٦].

وصار أهلُ قريش، بعد قُصَيّ، بأجمعهم «تجّارا خلطاء»[٥٧]. وقد أخذوا عنه مآثره التجارية، حتى أصبحت مكّة، في أيّام حكمهم، ملتقى القوافل من جميع أنحاء العالم المعروف. وسافر أبناء قصيّ وأحفاده، وتاجروا مع البلدان المجاورة، وأخذوا منها العهود. فأخذ هاشم بن عبد مناف بن قصيّ «عهدا» من ملوك الروم والغساسنة. وأخذ شمس بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ «عهدا» من نجاشي الحبشة. وأخذ عبد المطّلب بن هاشم «عهدا» من ملوك حمير واليمن. وأخذ نوفل بن عبد مناف بن قصيّ «عهداً» من أكاسرة الفرس... وبذلك كان لفروع قريش جميعها سوق تجارية واسعة في محيطهم[٥٨].

(٥١) الزبيري، كتاب نسب قريش١٢، تاج العروس ٤/ ٣٣٧ (مادّة:قرش).

(٥٢) لسان العرب ٦/ ٣٣٤، ٣٣٦، (مادّة : قرش).

(٥٣)ابن حبيب، المحبر ١٦٨، الكامل لابن الأثير ٢/ ٨، البلاذري، أنساب ١/ ٣٩، طبقات ابن سعد ١/ ٧١، تاج العروس، ٢/ ١٢٥، ٣/ ٣٧٢، (في مادّتي: بطح وظهر).

(٥٤) الازرقي، أخبار مكّة ١/ ٨٠ .

(٥٥) سيرة ابن هشام ١/ ٨٦ .

(٥٦) الواقدي، المغازي ١٩٦ .

(٥٧) الثعالبي، ثمار القلوب ١٨، السيرة المكية ١/ ١٤٠، الجاحظ، الحيوان ٤٧٢ .

(٥٨) الطبري ٢/ ٣٥٢، تاريخ اليعقوبي١/ ٢٠٠، ذيل الأمالي ١٩٩.

اذا صحّت هذه الأخبار يكون آل قصيّ قـد احتكروا التجارة بين أيديهم، بعدما قضـوا على تجارة اليمن. وكان أهمّ ما فعلوه لنجاحـهم إبرام التحالفات والمعاهدات مع رؤساء الـدول المجاورة لهم، وشيوخ القبـائل التي يمرّون بها. كما أرضَوا الجميع بدفعهم الضرائب والجعالات، وبتقديمهم الهدايا. وذلك ممّا أمّن لمدينتهم الحماية من الغزوات واللصوصيّة.

وأكثر مَن توقّف عنده أهل الأخبار في الحديث عن تجارته الواسعة كان هاشم بن عبـد مناف بن قصيّ، الذي تزعمّ قـومَه، وجمـع ثروةً وسنّ لقريش رحلَتَي الصيف والشتاء[٥٩]، ونّظم لهم الايلاف[٦٠]، أي الجعل الذي فرضه على القبـائل لحماية مكّة من الصعـاليك واللصوص، وتأليف قلوب سادات القـبائل لصـدّهم عن التحـرّش بمصـالح مكّة. وذلك بأن «أشـرك في تجارته رؤسـاء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربحا»[٦١].

وقد بدّل «الإيلاف» في أسلوب تجـارة مكّة بأن جعل لها قوافل كـبيرة، تمرّ بأمان في الجزيرة كلّها. وصيّرمكّة مكانا مقـصودا آمنا، فيما غيرهم كان يتخطّف من أرضه. وقد أشار القرآن الى ذلك، وأشرنا اليه سابقا[٦٢].

ويُذكر عن هاشم أيضا انّه «حصل على عهدٍ من الغساسنة والروم على المتاجرة في أرض الدولة البـيزنطيّة»[٦٣]. ثم توسّع أبناؤه فعقـدوا «حبالا» أي «عهـودا» تجارية وأمنيّة مع الأحبـاش والفرس وأهل العراق واليـمن. وكانوا

(٥٩) تاريخ الطبري ٢/٢٥٢، الاشتقاق ٩، آمالي المرتضى ٢/٢٦٩ ، الازرقي ١/٦٧، ابن سعد ١/٧٦، نهاية الارب ١٦/٣٣...

(٦٠) نهاية الأرب ١٦/٣٣، سورة قريش في القرآن ١٠٦/١ – ٤.

(٦١) رسائل الجاحظ ٧، الثعالبي، ثمار القلوب ١٢٥.

(٦٢) أنظر صفحة ٦٥–٦٨ من هذا البحث.

(٦٣) تاريخ الطبري ٢/١٢.

يصلون بتجارتهم الى غزّة ومصر، وربّما الى أنقره «فيدخل (أحدهم) على قيصر فيكرمه ويحبّه»[٦٤]. وكاد القيصر يمنح براءته لعثمان بن الحويرث، فيوليه على مكّة وقبائلها، ويصطنع منه عميلا لدولته في بلاد العرب، لولا وعي أبناء قريش ومنعهم له من الاستئثار بالزعامة والتجارة. وقد شجّعهم على منعهم هذا اطمئنانُهم الى بُعد بلدِهم عن الروم، وقوّةُ مركزِهم بازاء حاجة البيزنطيين لبضائعهم التي كانوا يوفّرونها لهم[٦٥].

ونظرا الى عمق الروح التجارية في قريش يُذكر عن أبي بكر الصدّيق أنّه أجبر ابنه على الطلاق من امرأته، لأنّ امرأته كانت تلهيه عن التجارة[٦٦]. كما يذكر عن خديجة امرأة النبيّ أنّها طلّقت رجلين لها قبله بسبب اهتمامها بجمع المال وتكديس الثروة، حتى اصبحت تجارتها تعدل تجارة قريش كلّها.

من هنا نفهم استياء تجّار مكّة من محمّد، ومعارضتهم له في مكّة كما في يثرب طريق تجارتهم. وقد علموا أنّ المسلمين سيتعرّضون لقوافلهم، ويقطعون عليهم الأرباح. لذلك قالوا: «قد عوّر علينا محمّد متجرنا وهو طريقنا». وقال أبو سفيان زعيمهم: «إنْ أقمنا بمكّة أكلْنا رؤوسَ أموالِنا»[٦٧]. وقال أيضا: «كنّا قوما تجّارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكتْ أموالَنا»[٦٨]. مثل هذا الكلام يُشعر بمقدار الخسائر التي مُنيتْ بها قريش، حتى انّهم، لغيظهم، لقّبوا الرسول بـ «القاطع»[٦٩].

---

(٦٤) ابن سعد ١/ ٧٥، نهاية الأرب ١٦/ ٣٣، البلاذري ١/ ٥٨، الطبري، ١/ ١٠٨٩، الأغاني ١٢/ ٤٧، الاشتقاق ٢٣،٩، اليعقوبي ١/ ٢٨٠ و ٢٨٢...

(٦٥) أنظر الشريف، مكة والمدينة، ص ١٦٣ .

(٦٦) الاغاني ٦/ ١٣٣.

(٦٧) تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٢.

(٦٨) المرجع نفسه ٢/ ٦٤٦.

(٦٩) السيرة الحلبية ٣/ ٦٠.

سَادساً - سِرُّ نَجَاح قُرَيش

في عمق كل انسان ميل الى التعويض عـمّا حُرِمَ منه. وفي قبيلة قريش من هذا الميل الى التعويض عمّا حرمتْهم الطبيعةُ منه أمرٌ خطير. لقد حُرموا من الزراعـة والخصب والماء والمناخ الطيّب، وحُـرموا من الثـروة الطبيـعيّـة وأيّة حضـارة عمرانيّـة أو علميّة. فكان لا بدّ لهـم من أن يبحثـوا جاهدين عن ثروة أخـرى في مكان آخـر. لا بدّ لهم من ثروة يصنعـونهـا بجـهـدهم، ومن رزق يحصّلونه بعرق جبينهم وتعبِ سـواعدهم.. فيكون لهم بذلك حياة. فكان لهم، بدل الزراعـة والصناعة، تجـارةٌ واسعـة، ومهـارة في الكسب والربح. وهذه أيضا ما كانت لتكون لولا صفات تحلّوا بها، وساهمت في نجاحهم.

من أسرار نجاحهم حِـرصُهم على تحالفهم فيمـا بينهم، وعلى تحالفهم مع سائر القبائل التـي يتاجرون معها، أو يمرّون بها. من هذا القـبيل جاء قول ابن عـبّاس لأهل مكّة الذين أخـذوا يعذّبون أبا ذَرّ الغَـفاري. قـال لهم: «ويلكم ألسـتم تعلمـون أنّه من غَفـار، وأنّه من طريق تجـارتكم الى الشـام؟! فأنقـذَه منهم»[(٧٠)]. ففي هذه الحـادثة دليل ساطع على مـيلهم الى اكتـساب صـداقات الناس، ورغبـتهم في فضّ كلّ خلاف يقع بـينهم وبين غيرهم، وانصـافِهم كلّ غريب يطرأ عليهم، وجنوحِهم الى السلم والهدوء. فكان لهم بهذه الصفات سرُّ نجاحهم التجاري.

ومن أسرار نجـاحهم أيضـا ترفُّعهـم عن الشحّ والبخلِ، وإمعـانُهم في العطاء، وبذلُهم كل غال ونفيس في سبـيل تجارتهم وأرباحهم. وفي ذلك يقول

(٧٠) الاصابة ٤/ ٦٤، رقم ٣٨٢.

الجاحظ عنهم: «لم يعتريهم من بخل التّجار قليلٌ ولا كثير. فأعطوا الشعراءَ كما يُعطي الملوك، وقرّوا الأضياف، ووصلوا الأرحام، وقاموا بنوائب زوّار البيت. فكان أحدُهم يحيسُ الحَيسة في الأنطاع، فيأكل منها القائمُ والقاعد، والداخل والراكب. وأطعموا بدل الحَيس الفالوذَج... »[٧١]. وكانو يوفّرون لحجيج بيت الله الطعام والسقاية. وهي من مآثر قُصيّ التي ورثوها عنه.

ومن صفات قريش التعاون التامّ فيما بينهم، وميلهم الى السلم. فهم قبيلة تشدّ بعضَهم الى بعض رابطةُ النسب والعصبية. فكم عقدوا فيما بينهم الأحلاف، درءا لكل خلاف، وكم ابتعدوا عن خصومة، لئلا تنالَ منها أرباحُهم، وكم تحاشَوا المعاركَ والحروب، وتركوا الغزو والنهب، واسترضوا القبائل، ورموا السلاح، ومالوا الى الاستقرار.. حتى «عُيّرتْ قريش بأنّها لا تُحسنُ القتال، وانّها تجاري وتساير مَن غلب، وانّها لا تَخرجُ الاّ بخفارة خفير، وبحلفِ حليف، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتْها مع سادات القبائل»[٧٢]. لا همّ لهم الاّ النجاح في تجارتهم ووفرة المال في أيديهم.

وزاد في غناهم اطمئنانُ الناس اليهم، لكثرة ما سُمِعَ عن تديّنهم، فعُرِفَ عنهم إيمانُهم «الحنيف».. فهم في التاريخ «الحنفاء»، و«الصابئة»، و«الحُمْس»، والإِبيونيّون»... فيما غيرهم من «أهل الحِلّة». ونُعتوا بـ «آل الله»، وبـ «جيران الله»، و«سكّان حرم الله»، و«أهل الله»[٧٣]. يَحترمون حدودَ الله، ويقدّسون الكعبة[٧٤]و يتحنّثون في غار حِرَاء، ويقيمون المناسِك، ويُنكرون الفواحشَ،

(٧١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٤٧٠ وما بعدها. الحَيْس: طعامٌ مركّب من تمر وسمن وسويق. أنطاع من نطْع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب. الفالوذَج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل (فارسية).

(٧٢) تاريخ الطبري، ٣/ ٧٥٢ وما بعدها.

(٧٣) الثعالبي، ثمار القلوب ١٠، العقد الفريد ٣/ ٣١٣.

(٧٤) الثعالبي ١٠، الروض الانف ١/ ١١٨، الاشتقاق ٤٩١، اليعقوبي ١/ ٢٥٤.

ويعاقبون على الجرائم، ويخافون الحسابَ العسير، ويؤمنون باليوم الآخِر، ويرجون القيامة... وجعلوا الرحمة في حياتهم والاهتمام بالفقراء من أولى الأمور، فعقدوا «حلف الفضول» للدفاع عن البائس المحتاج، و«جعلوا الصدقة وإطعامَ المحتاج من أمور الدين»، حتى أصبح إنفاق قريش على المساكين يعدّ عندهم عرفا مقدّسا[٧٥].

وقد يكون السبب الأهمّ في نجاح تجارة قريش، معرفتهم باللغة العربيّة التي تعلّموها من أهل «غربي» الفرات، من الحيرة والأنبار. فنقلها التجّار معهم، كما أخذوها عن المرسلين النصارى[٧٦]. وهي لغة مستساغة التعبير، غنيّة المفردات، دقيقة المفاهيم، حسنة الصيغة. أجادها القرشيون تماما فتغلّبت على لهجات الأعراب جميعا... ويبدو أنّ مكّة لم تُعدَمْ من غيرِ لغة، فكان فيها مَن يعرف اليونانية، والروميّة، والحبشية، والعبرية، والسريانيّة، والقبطية.. ولهذه كلّها أثر في مفردات القرآن[٧٧]. وهي من الضرورة العمليّة بمكان لأجل حركة التجارة وكيفيّة التعامل مع الناس. وقد تكون اللغة المسمّاة «عربيّة»، نسبة الى «غرب» الفرات، تجمّعا من لغات ولهجات عديدة، تماما كما أهل قريش الناطقون بها هم «تجمّع» من قبائل وعشائر وبطون متلوّنة.

---

(٧٥) أنظر فيما بعد فصلا كاملا عن اهتمام قريش وجماعة النبي بالفقراء والمساكين والأيتام.. ممّا يدعو الى القول بنزعتهم «الابيونية»، وهي شيعة من النصارى، عقيدتهم الاساسية: الاهتمام البالغ بالفقراء والمعدومين، انظر كتاب «قس ونبي».

(٧٦) أنظر كتاب «أعربي هو»، فصل اللغة العربيّة.

(٧٧) أنظر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، «فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب».

خَاتِمَة الفَصل الثّالث

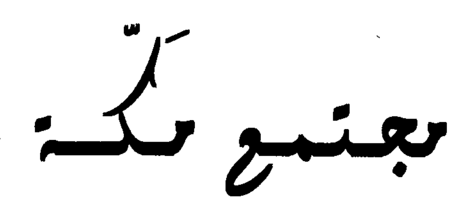
من الكلام على تجارة مكّة نستخلص أمرين: أمـر فقر الطبيعة في مكّة الذي استحثّ المكّيين على التعـويض عنه بالبحث عن مورد رزق آخر، يكون كـ «ردّة فعل» قويّة عن حـالة البؤس والحرمان. وأمر غنى مـوقع مكّة الجغرافي الذي دفعهـا الى التجارة دفعـا، هذه التجارة التي جاءتهـا بالرزق رغدا من كلّ مكّان.

فـوق أرض مكّة إذاً فقـر وغنى. جـدب ورزق. عـسر ويسـر. طبـيعـة محرومة من مـوارد العيش، وجغرافية ردّت عليـها ما حرمت منه. لا زرع ولا ضرع. بل تجارة وأموال وأرباح. وهو وضـعٌ خطير في سلّم الاقتصاد المدني. وقد لا تسلم مدينة من خطرِ وضـعٍ اقتصادي كهذا. فالاقتصاد الصحيح زراعة وصناعة ثمّ تجارة. أمّا وضـع مكّة فتجارة وحسب. فكيف تكون النتائج؟

والسؤال الذي ينتج من هذا الواقع يدور حول كـيف يكون مجتمعُ مكّة. فالمجـتمع التـجاري يفرض على المدينة نـوعاً معـيّناً من الحياة، ويُـحتّمُ نمطاً خاصاً مـن العيش. فالى أيّ مدى نسـتطيع الاطمئنان الى صحّة هذا المجـتمع؟ وهل كان مـجتمع مكّة صحـيح البنية، منسجم الطبـقات، يوفّر لجمـيع أفراده الحياة الكريمة؟ لا يبدو ذلك. فلننظر.



الفصل الرابع



مجتمع مكّة

أولاً - فقراء وأغنياء

ثانياً - طبقة الأعزّة الأغنياء

ثالثاً - طبقة الأذلّة الفقراء

رابعاً - ثورةُ الجياع



أوّلاً - فـقـراء وأغنيـاء

في مجتمع مكّة، كما في أيّ مجتمع تجاري، طبقتان من الناس: أغنياءُ متـرَفون، وفقراءُ مـعدومون. أولئك اسـتبدّوا بالتجـارة وكسب المال، وهؤلاء استبدّ بهم التجّار وأرباب المال. أولئك تملّكوا الارزاق والأنعام، وهؤلاء تملّكهم الجوع والحرمان. الأوّلون أغنياء جشعون مترفون حتى الاسراف، والآخرون لا يملكون من حطام الدنيا شـيئا. الأغنياء اسـتفادوا من موقع مكّة الجـغرافي ومركزها التجـاري، والفقراء اتّكلوا على ما تَمنُّ به الطبيـعة من مواسم الغيث والكلأ. أولئك جـاء رزقهم رغدًا من كل مكـان، وهؤلاء يترقّبـون عيشَهم من أرض قحـيط وغيوم ضحلة. أهل الجـغرافيا شـباع «كثيـر شحم بطونهم»[١]، وأهل الطبيعة جياعٌ «مُسْنَتون عِجَافُ»[٢].

لقد ميّز القـرآن، منذ بدايته، بين هاتين الطبقتين. فسمّـى طبقة الأغنياء، تارةً «الملاء الأعلى»[٣]، وطوراً «الأعزّة»[٤]، ومرّةً أخـرى «المترَفين»[٥]. وسمّى طبـقـة الفـقـراء، تارةً «أذلّة»، وطوراً «أراذل»[٦]، ومـرّةً أخـرى «أرذلين»[٧]. ووصف العداوةَ بينهمـا بما يدفعنا الى القول: لا الغنيّ كان يشعـر بأيّة رحمة

(١) مسند ابن حنبل ١/ ٤٤٢ .
(٢) من شعر قيل في هاشم: عمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومِه وأهل مكّة مُسْنَتُونِ عِجَافُ.
(٣) ٢/ ٢٤٦، ٧/ ٦٠، ١١/ ٢٧، ١٢/ ٤٣، ٢٦/ ٣٤...
(٤) ٥/ ٥٤، ٢٧/ ٣٤، ٦٣/٨، ١٨/ ٣٤ ...
(٥) ٣٤/ ٣٤، ٤٣/ ٢٣، ٥٦/ ٤٥، ١٧/ ١٦، ٢٣/ ٦٤..
(٦) ٢٦/ ١١١ ، ٢١/ ٢٧.
(٧) ٢٦/ ١١١، ٢١/ ٢٧.

تجاه فقيـر، ولا الفقير استطاع، ببـؤسه، أن يحرّك وتراً من أوتارِ قلبِ غني... والأمر، كمـا يبدو، طبيـعيّ في بيئة يتحكّم بهـا التجّار وأصحـاب الأموال بما يصفـهم به القرآن من مكرٍ وغشٍّ وخـداعٍ ودهاءٍ واستغـلال... ولئن لأنَ قلبُ تاجرٍ على فقيرٍ بعضَ الشيء، فلأنّه يترقّبُ منه، بعد اللينِ، أكثرَ من شيء.

وليس في الأمـر غرابة. فـفي بيئـة كبيـئة مكّة، لا نظـام يحمي حـقوق ضعيف، ولا عـقوبة تلجم طمع مستـبدّ. وفي مكّة، أكثر من أيّ مـجتمع بدائي آخر، كان اسـتئثارٌ واسـتكلابٌ من جهة، وذلٌّ وبؤسٌ من جهـة ثانية. والحكم فيهـا كان للمستـغلّين. والمجتمع التجـاري فيه ميل الى الاحتـكار أكثر من أيّ مجتمع اقتصاديّ آخر. كما في بنيته انقسامٌ واسع وعميق بين أفراده أكثر ممّا نجده في مجتمع زراعي أو صناعي. أضـف الى ذلك عدم وجود طبقة وسطى تحافظ على بعض التوازن والاعتدال بين طبقتي الفقر والثراء المتنافرتَين طبعاً.

فبأية صورة، إذاً، سيتحفنا القرآن عن هذا المجتمع المتصدّع والمتجاذب بين شرّين؟ شرّ الفقر والجوع والحرمان، وشرّ والتخمة والغشّ وحكر المال.

ألصورتان، في القرآن، ناطقتان: صورة أولـى عن مكّة وعن القفر فيها، وصورة ثانية عن الذين يكدّسون الأموال، و«يأكلون أموال اليتامى» (٤/ ١٠). وقد بيّن القرآن الصـورتين، وأبدى موقفَه في جانب الأولى ومحـاربة الثانية. وتعمّد الاسـترسال في الكلام على الفقراء، ومنـهم، بنوع خاصّ، «المساكين» و«اليتامى»... ووعد المحسنين إليهم وصانعي الصدقات معهم بجنّة جهّزها الله لهم. وتوعّد الذين لم يطعموا مسكيناً، أو لم يأووا غريباً، بنار وعذاب أبديّين.

والحـقيـقة هي أنّ المسـيـحيـة، اذا كانت تخـتـصرُها كلمـةُ «المحبّـة»، فالاسلام، أقلّه الاسلام المكّي، تختصره كلمة «الرحمة».. وما كلام القرآن على «اليتامى» و «المسـاكين» وأمثالهم، الاّ لأنّه يرى في الاهتمـام بهم صحّة الدين

وصلاح المجتمع. وما كلامه على الإرث والزواج والمغانم والزّكاة والصدقة والجهاد الاّ لاجل العناية الفائقة باليتامى والمساكين وأبناء السبيل. وما الجنّة وطيّباتها وما فيها من خيرات وملذّات الاّ لصانعي البرّ والاحسان مع المحرومين من خيرات هذه الدنيا. وقد يرى المسلمون أنّ القرآن وتعاليم الوحي أوسع من ذلك، ولكنّ الحقيقة، كما سنرى، لم ينطلق النبيّ ولم يبدأ الاّ من ذلك. هذه ناحية أهملها المسلمون لأجل اظهار شموليّة النبوّة الكونيّة. وكان الأجدر بهم ألاّ يهملوا هذه ولا يتركوا تلك. وربما تكون تلك أجدر بالله ورسوله وجماعة «المتقّين».

وربّما كان القرآن، باهتمامه هذا، بلغ شأنا اجتماعياً رائعا، لم يبلغه في أي شأن آخر، حتى في مجالات الوحي والتنزيل والعصمة والنبوّة والمعرفة والعلم.. هذه أمور يعترضها الشكّ في كل نواحيها، فيما صورة «الرحمة» لا تحتاج الى من يثبتها لكثرة وضوحها. وربّما نقول: انّ تعاليم الوحي جاءت لتدعم تعاليم «الرحمة». ويجب أن نعلن، منذ الآن، بأنّ أهل قريش، فيما عُرِفَ عنهم من تسامحِهم الديني، لم يقفوا من محمّد موقف العداء، الاّ بسبب معرفتهم بنيّته في ضرب أغنيائهم «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما».

وفي رأينا انّ ظاهرة «الرحمة» التي بشّر بها محمّد لهي أعظم من ظاهرة «النبوّة» التي أرادها له المسلمون. وظاهرة «إصلاح مجتمع متصدّع»، كمجتمع مكّة، هي أولَى من ظاهرة نسبة القرآن العضوية الى الله. لكأنّ محمّدا، الذي أراد تفجير مجتمع مكّة، كان هو ذاك الانفجار الذي حدث في مكّة، ثمّ في الجزيرة، ثمّ في أنحاء العالم. والمسلمون الأوّلون الذين خاضوا «الفتوحات» لم يكن لهم ذلك بقوّة الدين وآيات الله البيّنات، بقدر ما كان لهم بدفعة الجوع والفقر والحرمان. وعلى هذه النقطة ألف ألف دليل ودليل من تاريخ المسلمين.

فالمجتمع المكّي، إذاً، وبوجه عام، ومن وجهة نظر إقتصادية، هو، كما يصفه أحد العارفين، «مجتمع بسيط التكوين. يتألّف من طبقتين اقتصاديّتين: طبقة أصحاب الأموال من التجّار وأصحاب الابل الذين تتركّز في أيديهم الثروة وتتحكّم رؤوس أموالهم في الحياة الاقتصادية. وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة في النشاط التجاري الجارف في المدن، والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم.. وكانت الهوّة الاقتصادية بين هاتين الطبقتين بعيدة الغور الى حدّ كبير ممّا أدّى الى اختلال التوازن الاقتصادي بينهما اختلالاً شديدا. وهذا الاختلال الاقتصادي وقف منه القرآن الكريم موقفا حاسما»[٨].

واذا كان الحظّ آتى الأغنياء دون الفقراء «فتلك خطيئة المجتمع الذي يعيشون فيه وليست خطيئتهم. وماذا يملكون (الفقراء) لتغيير حظّهم في مجتمع صحراوي مواردُ الرزق فيه محدودة، ومجال العمل فيه ضيّق! انّ تلك القوافل التجارية التي تسيل بها شعابُ الصحراء، وهذه القطعان من الماشية التي يضيق بها حمى القبيلة، كان من الممكن أن يكون لهم فيها نصيبٌ لو انّ المجتمع سار على قواعد عادلة غير القواعد التي يسير عليها»[٩]. ولكن من أيّ باب تدخل العدالة وقد علمَنا القرآنُ بعد الانجيل أنّ الأغنياء «لا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سمّ الخيّاط»[١٠].

---

(٨) الشريف، مكة والمدينة...، ص ٨٢.

(٩) الشريف، مكة والمدينة... ص ٨٣.

(١٠) سورة الأعراف ٧/ ٤٠ يقابلها إنجيل متّى ١٩/ ٢٤.

ثانياً – طبقة الأعزّة الأغنياء

هم أيضا «الملاء الأعلى» و «المترفون» وأصحاب الثروة والمال، والتجارة الواسعة، والممتلكات الشاسعة، وقطعان المعز والغنم ، وقوافل الابل... هؤلاء يتنعّمون بما يصف القرآن به أهل الجنّة من قصور مشيّدة، وغرف عالية، وسرر موضونة، وأرائك منعّمة، وفرش مبطّنة، ونمارق مصفوفة، وحلي منمّقة، وزرابي مبثوثة، وألبسة حريرية، من سندس واستبرق(١١)..

ويصفهم أيضا بما كانوا يتنعّمون به من مأكل شهيّة ومشارب هنيّة، وما كانوا يستعملونه من الأواني في مأكلهم ومشربهم، من ذهب وفضّة ومرجان ولؤلؤ درّي وياقوت(١٢).. ويسمّي بعض أوانيهم من صحاف وأكواب وزجاج وأباريق ومصابيح ومشاكي وقوارير وزخارف متنوّعة الشكل واللون(١٣)

ويصفهم أيضا في أسفارهم ورحلاتهم التي يسّرت لهم الاتّصال بالعالم، واستمتعوا بما عرفوه من تَرَفٍ ونعيمٍ ومالٍ ولذائذَ ومتعٍ مشتهاة(١٤)... أدّت بهم الى تكذيب الرسول والكفر بدعوته. فقال فيهم: «وما

---

(١١) أنظر: ٧/ ٧٤، ٢٢/ ٤٥، ٢٥/ ١٠، ٣٩/ ٢٠، ٥٦/ ١٥، ٥٢/ ٢٠، ٤٣/ ٣٤، ١٥/ ٤٧، ٣٧/ ٤٤، ٥٥/ ٥٤، ٥٦/ ٣٤، ١٠١/ ٤، ١٨/ ٣١، ٣٦/ ٥٦، ٧٦/ ١٣، ٨٨/ ١٥، ٧٦/ ٢١، ١٨/ ٣١، ٢٢/ ٢٣، ٣٥/ ٣٣...

(١٢) أنظر: ٢٢/ ٢٣، ٤٣/ ٥٣، ٥٢/ ٢٤، ٥٥/ ٢٢، ٥٨، ٥٦/ ٣.

(١٣) أنظر هذه الالفاظ في المعجم المفهرس للقرآن. وهي كثيرة جدًا.

(١٤) أنظر: ١٨/ ٣١، ٢٢/ ٢٣، ٤٣/ ٧١، ٤٤/ ٥٣، ٥٢/ ١٧ – ٢٤، ٥٥/ ٤٦ – ٧٨، ١٥/ ٥٦ – ٢٩، ٦٩/ ٢١ – ٢٤، ٧٦/ ٥ – ٢٢، ٧٨/ ٣١، ٨٣/ ١٨....

أرسلنا في قرية من نذير الاّ قال مُتْـرَفُوهَا انّما بما أُرسِلتُم به كافرون» (٣٤/ ٣٤). وأدّت بهم أيضا الى الغش بالكيل والتلاعب بالموازين[١٥]، وأكل الربا[١٦]، وقهـر اليتامى وأكل أمـوالهم ظلما [١٧]، واكراه المستـدين على حمل امرأته أو ابنته على البغاء لايفاء ما عليه (٢٤/ ٣٢)...

واذا جاءهم سائل انـتهروه، واذا طلبَ منهم محـرومٌ عونا أبعدوه، واذا وزن بائِعُهم أنقصَ فـي الميزان، واذا كال قـصّر في الكيل[١٨]... وغير ذلك من مفاسـد، حتى التهوا عن عبـادة الله واتّباع الرسول والجهـاد معه، بما لهم من مال وبنين يفتخرون بكثرتهم[١٩].

إلاّ أنّ الربا كان المظهر الأهمّ لجشعهم، وكـانوا «يعوّلون عليه كثيرا في تنميـة ثرواتهم». وكان يبلغ أحيـانا أضعاف القرض. ويبـدو أنّه كان في مكّة «أمرا شائعا وعامّا»[٢٠].

وبالاجمال، يصوّر القرآن «أعزّة» مكّة جماعة ترف واسراف . يتمتّعون برغد من العيش بفضل نشاطهم التجاري وأرباحهم الطائلة التي «صيّرت مكّة مركزا خطيرا من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين»[٢١].

***

(١٥) ٨٣/٣؛ ١٧/٣٥؛ ٥٥/٨و٩؛ ٦/١٥٢؛ ٧/٨٥؛ ١١/٨٤و٨٥...
(١٦) ٢/٢٧٥و٢٧٦و٢٧٨؛ ٣/١٣٠؛ ٤/١٦١؛ ٣٠/٣٩...
(١٧) ٤/١٠؛ أنظـر أيضـــاً: ٤/٢ و٢٩ و١٦١؛ ٢/٨٨؛ ٦/١٥٢؛ ٩/٢٤و٣٤؛ ١٧/٣٤؛ ٨٩/٧؛ ٩٣/٩؛ ٦/١٥٢...
(١٨) ٥٥/٩، ٨٣/١؛ أنظر أيضاً المراجع في الحاشية ١٦.
(١٩) انظر : ١٩/٧٧، ٩٠/٨١، ٧١/٢١ .
(٢٠) الشريف، مكة والمدينة...، ص ٢١٣.
(٢١) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/ ٢٨٥ .

ولا بدّ لنا، لاكمال صورة القرآن، من الاعتماد على كتب السيَر والأخبار، فنتعرّف على بعض أشخاص سيطروا على الثروة والأرباح واسواق التجارة آنذاك :

عبدا اللـه بن جدعان ابن عمّ والد الخليفة أبي بكر. كان ثريًا جدًا، ربّما عدّ من أثرى رجال قريش. كان يأكل بصحاف من ذهب وكؤوس من فضّة وبلّور فعرف بـ «حاسي الذهب». وامتلك قياناً يغنّين له. وكان بيته داراً للضيافة... لكنّه كان كريماً حتى الاسراف، محبّاً ومضيافاً. كان يعتق الرقاب، ويُعين على النوائب، ويساعد الناس، ويقضي الحاجات.. ولكثرة كرمه، كان يضع جفنَةً (أي قدرة) كبيرة ضخمة ويملأها طعاما ليأكل منها الناس، وكانت عظيمة جدًا بحيث يغرق فيها صبي، ويأكل منها القائم والراكب على بعيره. وذُكر ان الرسول استظلّ بظلها وقت الظهيرة، وكان ينادي: «ألا من أراد اللحم والشحم فليأت الى دار ابن جدعان». كان لابن جدعان أيضاً دار واسعة، عُقد بها «حلف الفضول». وكان النبي ممّن شهده وهو ابن عشرين سنة[٢٢].

عثمان بن الحويرثِ بن أسد، ابن عمّ خديجة، طمع في مُلك مكّة، فخرج الى قيصر الروم، وسأله أن يملّكه على قريش. وتنصّر عثمان وحسنت منزلته عند الروم، وهدّد قريشاً إنْ لم تَدِنْ له قَطَعَ القيصرُ تجارَتهم مع بلاد الشام. وكان عثمان من رؤساء حرب الفجار. كما كان أحد الهجّائين اللاذعين[٢٣].

الأسود بن المطّلب المعروف بأبي زمعة. يقال له «زاد الركب»، لأنّه كان يزوّد المسافرين طعاما. أدرك الرسول وعارضه، واستهزأ به، فمات كافرا. عُرف بغناه وثروته الواسعة وتجارته مع بلاد الشام. كان من أعز قريش في

(٢٢)المحبر ١٣٨، نسب قريش٢٥٦، الكامل ١/٣٥٩، لسان العرب ١٠/٤٥٧ .

(٢٣)الاشتقاق ٥٩، نسب ٢١٠، المحبر ١٦٥، الروض الانف ١/١٤٦ ...

أيّام الجاهلية، ولا يطوف بالبيت الا متقلّدا بسيفين[٢٤].

زمعة بن الأسود تاجَرَ مع بلاد الشام، عُرف بدقـته في عمله، وبوضع الخطط الرابحة.

وابنه يزيد بن زمعة من سادات قريش. كانت اليه المشـورة، فيعرضون عليه كلّ أمر. أسلم واستشهد في الطائف[٢٥].

حرب بن أميّة من وجهاء مكّة وأثريائها المعروفين[٢٦].

هشام بن المغيرة كان له ولبنيه ذكـر عال في الثروة. كان سـيّد قريش في أيّامه. ولما مـات أصبح يوم مماته من أيام مكة المشـهورة. فـأرّخوا بموته. لقب أيضا كالأسود بن المطلب بـ «زاد الركب» لانه كان يُقري المسافرين[٢٧].

الحارث ابنه عُرف بالكرم والجود. داره مفتـوحة للضيوف. يدخل اليه الناس وهو جالس على سريـره، ويحثّهم على الاكل والشرب. وكانت جـفانيه مملوءة خبزا ولحما. وكان نديما لحكيم بن حزام بن خويلد ابن عمّ خديجة[٢٨].

أمّا الوليد بن المغيرة، أخو هشام، فكان من أشراف مكة. عرف بين قومه بـ «العـدل» لانه كان يعـدل قريشـا كلها لـكثرة أمـواله. فكانت قريش تكسـو الكعـبة جمـيعـا ويكسوها الوليـد وحده. كـان له مال وزرع بالطائـف. كافح الاسلام وهـزئ بالرسول. فنزلت بحـقّه آيات كـثيـرة تعنّفه وتصـفه بالكـفر والاستكبار[٢٩].

---

(٢٤) المحبر ١٣٧، ١٧٤، الاشتقاق ٥٨، نسب قريش ٢١٨، أنساب ١/ ١٤٩.
(٢٥) بلوغ الأرب ١/ ٢٤٩، المحبر ١٥٨...
(٢٦) أيام العرب. ٣٣١ و ٣٣٤.
(٢٧) الاشتقاق ٦٠ و ٦٣ و ٩٢، المحبر ٣٩، المعارف ٣٢.
(٢٨) المحبر ١٧٦ و ١٧٩، نسب قريش ٣٠١.
(٢٩) تفسير الطبري ٥/ ٣٦، ابن هشام ١/ ٧٢، المحبر ١٦١، انساب ١/ ١٣٤.

أبو جهل، من أبناء هشــام بن المغيـرة، هو أبو الحِكم عَمـرو. لُقّب بأبي الحكم فغـيّر الرسـول لقبه بـ «أبي جـهل». كان على رأس أشـد الناس عداوة للنبي. وكان من «المقتسمين».. وهم سبعة عشر رجلا من قريش. اقتسموا عقاب الكعبة، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدّون الناس عن رسول الله. وفيهم نزلت آية «كما أنزلنا على المقتسمين»[٣٠]. وكان من مطعمي حرب بدر ومموّليه. كان أحول «ومن الحـولان الاشراف». كان قاسـيا على النساء، فعـذّب عددًا منهنّ. وكان يفتن كل مَن أسلم في اسلامه. وكان فاحشا بذيئا[٣١].

عكرمة بـن أبي جهل يدلّ على غناه قـوله لأبي بكر الصـديق يوم غـزا الروم: «أنا غنيّ عنها (أي عن المغـانم). معي ألفا دينار، فاصـرف معونتك الى غيري»[٣٢].

العـاص بن وائل بن هاشم من أشــراف قـريش وأثريائهـم. أسلم هو وخالد ابن الوليد وعثمان وطلحة[٣٣].

الحكم بن ابي العاص بن أميّة بـن عبد شمس. من تجار مكـة وأعزّتها. كان يخرج بتجارته الى الشام وسائر البلدان[٣٤].

سعيد بن العاص المكنّى بأبي أحيحة. والمعروف بذي العمامة، لانّه كان لا يعتَمّ أحد بمكة بلون عمامته اعظـاماً له. وعُرف بـ «ذي التاج» للسبب نفسه. كان تاجـرا وحبس مرة بالشـام وافتُدِي بمـال كثيـر. لم يدخل في الاسلام اذ كان يرى أنّ الشيء العظيم يجب أن يـكون في العظماء ، والإسلامُ حقـيرٌ على

---

(٣٠) سورة الحجر ١٥/ ٩٠.
(٣١) المحبر ١٣ و١٣٩ و١٦٠ و٣٠٣، الكامل ٢/ ٤٧، أنساب ١/ ١٢٥.
(٣٢) نسب قريش ٣١١.
(٣٣) نسب قريش ٤٠٨ و ٤٠٩.
(٣٤) المحبر ١٦٥، الاشتقاق ٤٩، الطبري ٢/ ٢٩٨ ...

يد حقير. مات كافرا، ودفن بالطائف. رأى أبو بكر قبرَه فسبّه، فنهى النبيّ عن سبّ الأموات[٣٥].

عمرو بن العاص أسلم وقاد الجيوش الاسلاميّة للفتح والغزو واكثار رأس ماله. وكان قبلا يتاجر مع مصر، ولذلك تعرّف على منافذ الضعف فيها ممّا سهل له فيما بعد فتحها والانتصار عليها.

عبد الله ابنه. قيل عنه انه «كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم. وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب[٣٦].

العباس بن عبد المطلب، من أغنياء قريش، ومن المقرضين للمال. كانت له ثروة واسعة من نقود وذهب وفضة. استغلّ ماله بالتجارة وباقراضه بالربا. قيل عنه: «كان ذا مال كثير متفرّق في قومه. فدى نفسه عندما وقع في الأسر ببدر[٣٧].

عبد العزّى بن عبد المطلب، المكنّى بـ «أبي لهب»، عمّ الرسول. حاربه ونصب له العداء. جمع مالا طائلا من تجارته مع بلاد الشام. وكانت زوجته تحرّضه على معاداة الرسول وايذائه. وفيهما نزلت سورة« تبّت» أو «اللّهب» رقم ١١١. كان بيته في جوار بيت رسول الله. وكان الرسول يقول: «كنت بين شرّ جارَين: أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، ان كانا يأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي»[٣٨].

أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ. كان تاجرا ثريا، خبيرا بطرقات السفر والقوافل. وكان قائد قريش

---

(٣٥) المراجع السابقة مع انساب البلاذري ١/١٤١ و ١٤٢، البيان ٣/٩٧ .

(٣٦) تاج العروس ٥/٢٤٣ (مادة: وهط).

(٣٧) تاريخ الطبري ٢/٤٦١، الاصابة ٢/٢٦٣ رقم ٤٥٠٧ .

(٣٨) أنساب للبلاذري ١/١٣١، «فروث» وسخ الانسان.

في الحرب. وكان صاحب لسان يَنظُمُ الشعر ويُجيد الهجاء. وكان صديقا للعباس. نزلت آيات كثيرة بحقه. وكان من المحرّضين على معركة بدر. وكان شحيحا «حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش»[٣٩].

عتبة بن ربيعة بن عبد شمس اشتهر بماله وسخائه[٤٠].

أبو بكر الصديق كان له عند بعثة النبي أربعون ألف درهم. ولمّا أسلم كان يعتق من ماله ويعول المسلمين. لما قدم المدينة مهاجرا كان له خمسة آلاف درهم فقط[٤١].

طلحة بن عبيد الله بن عثمان. غلّته اليومية ألف دينار. كان خازنا لأغنياء قريش[٤٢].

الزبير كان له ألف مملوك يؤدّون اليه الخراج. له أرضون واسعة[٤٣].

بلال المؤذّن كان خازنا لأموال ابي بكر. ثم صار خازنا للرسول[٤٤].

عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين الذين جمعوا مالا وصار من المثرين تصدّق على الرسول بأربعين الف دينار. وحمل خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة. اعتق ثلاثين الف نسمة. وأوصى لكل من شهد بدْراً بأربعمائة دينار. خلّف ألف بعير وثلاثة آلاف شاه ومائة فرس[٤٥].

---

(٣٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٥، تاريخ الطبري ٢/١٥٧ و ٤٦٦، الطبرسي تفسير على سورة ٣/١٧٢، الاستيعاب ٤/٨٦، حاشية على الاصابة.

(٤٠) المحبر لابن حبيب ١٦٠، سيرة ابن هشام ٢/٢٦٢ .

(٤١) الاصابة ٢/٣٣٧ رقم ٤٨١٧ .

(٤٢) الاستيعاب ٢/٢١٠ حاشية على الاصابة.

(٤٣) الاستيعاب ١/٥٦٣ حاشية على الاصابة.

(٤٤) ارشاد الساري ٤/٤٩ .

(٤٥) ارشاد الساري ٤/٤، الاصابة ٢/٤٠٨ رقم ٥١٨١ .

مسافـر بن عمرو بن أميّة تاجر مع العراق وهلك فـيها عند النعمان بن المنذر. رثاه أبو طالب(٤٦).

الأسود بن عامر بن السباق بن عبد الدار بن قصي كان غنيًا جدًا(٤٧).

ضرار بن الخطاب كـان فارس قـريش في الجاهليـة وشاعـرا. أدرك الاسلام(٤٨).

عمر بن عبد ودّ. غني واسع الثروة. قتله علي بن ابي طالب(٤٩).

سهل ابنه أسلم وبعثـته قـريش يحكم الهدنة بينهـا وبين الرسول يوم الحديبة (٥٠).

قيس بن عدي ضرب به المثل في الثروة والعزّ(٥١).

الحارث ابنه استهـزأ بالرسول وأذاه فنزلت فيه آية: «أفـرأيت من اتّخذ الهه هواه»(٥٢)

عثمـان بن عمرو بن كعب عرف بـ شـارب الذهب» لغناه. وحسب من أجواد قريش(٥٣).

عبد الله بن عامر بن كريز بن خال عثمـان بن عفّان. كان ماله أرضون

---

(٤٦) كتاب نسب قريش ١٣٥، الاشتقاق ١٠٣.
(٤٧) الاشتقاق ١٠٠.
(٤٨) الاشتقاق ٦٤.
(٤٩) الاشتقاق ٦٨.
(٥٠) الاشتقاق ٦٩.
(٥١) المحبر ١٧٨، جمهرة أنساب العرب ١٥٦.
(٥٢) أنساب البلاذري ١/ ١٣٢. أنظر القرآن ٤٥/ ٢٣.
(٥٣) المحبر لابن حبيب ١٣٧.

واسعة جمع ثروة طائلة من الزراعة[٥٤].

عبد الله بن ابي ربيعة استقرض منه الرسول أربعين ألف درهم فأعطاه.

صفوان بن امية أقرض الرسول خمسين الف درهم.

حويطب بن عبد العزى أقرض الرسول أربعين ألف درهم[٥٥]

المطّلب بن ابي وداعة فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم[٥٦].

آل مخزوم عرفوا بالثراء وكثرة المال والارضون[٥٧].

***

هؤلاء جميعهم، وغيرهم الكثير، ممّن كانوا في أيّام النبيّ، وعند بدء الدعوة الاسلاميّة. اشتهروا بكثرة المال ووفرة الثروة والأرباح. كان لهم أرضون شاسعة، وزراعة ناجحة، في مكة والطائف وبعض القرى المجاورة. كما كان لهم تجارة رابحة مع بلاد الشام واليمن ومصر وغيرها. ومعظمهم عاند الرسول وحاربه. وبعضهم أسلم وأفاد الاسلام من ثروته. وفي القرآن المكّي، بحق الذين عاندوا، آيات كثيرة تتوعّدهم بالعذاب والهلاك الأبديين.

لم نذكر من هؤلاء الأثرياء الاّ الذين كانوا على صلة بالنبي. فما أدراك بالذين كانوا عبر عصور الجاهلية يكدّسون الاموال والأرضون! هؤلاء كانوا في مكة مهاجرين قبل الهجرة في سبيل جمع الثروة. وصورتهم في القرآن

---

(٥٤) نسب قريش ١٤٨، الاستيعاب ٢/ ٢٥١.

(٥٥) أمتاع الاسماع ١/ ٣٩٥.

(٥٦) نسب قريش ٤٠٦.

(٥٧) نسب قريش ٣٠٨.

جليّة، وموقفهم من الدعوة الجديدة عدواني، وموقف الرسول منهم ثوري، لم يحصل للنبيّ أذى الاّ بسببهم، ولم يُنَزِّلِ القرآن، في بدايته، الاّ بحقّهم.

وأخطرهم على الاسلام كان التجّار. وقد وصفوا بالفجر والكفر والبخل. فجاء على لسان الرسول قوله: «التجّار هم الفجّار»[٥٨]. وقوله: «انّ التجّار يُبعَثون يومَ القيامة فجّارا»[٥٩]. وكانت دعوتُه على التجّار قوله «لأقطعَنَّ متجرَك بالشام»[٦٠]، أو «لا أَرْبَحَ اللهُ تجارَتَكَ»[٦١]...

---

(٥٨) ابن حنبل ٣/٤٢٨، ابن هشام ٢٥٧، تاريخ اليعقوبي ٢/١٦ .

(٥٩) سنن الترمذي، باب البيوع ٤، سنن ابن ماجه، باب التجارات٣، مسند أحمد بن حنبل، ٣/٤٢٨ و٤٤٤.

(٦٠) صحيح البخاري، باب المناقب ٢٥، ابن حنبل ١/ ٤٠٠ .

(٦١) سنن الترمذي، باب البيوع ٧٥، الدارمي، باب الصلاة ١١٨.

ثالثاً – طبقة الأذلّة الفقراء

تؤلّف هذه الطبقة السواد الأعظم من سكّان مكّة. وهم، في غالبيّتهم، من البدو والأحابيش والخلعاء المطرودين من بلدان منشأهم. وكثيرا ما تكلّم القرآن عليهم، وعلى وضعهم السيّء. وعُرفوا فيه، وفي كتب الأخبار، تحت أسماء عديدة، ممّا يشير الى كثرتهم والى ضعة منزلتهم. فهم، في القرآن: «أراذل» و «أذلّة» وأرذلون [٦٢]. وفيهم الفقير والمسكين وابن السبيل واليتيم والمحتاج... وهم، في كتب السير والأخبار، «صعاليك» و«خلعاء» و«طرداء» و«لصوص البادية» و«ذؤبان العرب» و «شياطين» و«فتّاك» وغير ذلك[٦٣].

و«لا يخفى، على ما يقول لامنس، أنّ تعدّد هذه الأسماء يكفي للدلالة على عدد أولئك الشذّاذ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم السلطة العربيّة القديمة»[٦٤]. ولا يخفى أيضا، نظرا لتنوّع ألقابهم، بأنّ هناك تنوّعا في حالتهم. فهم إمّا «خلعاء» طُرِدُوا من قبائلهم من أجل الخلاص من شرّهم، أو لأجل سبب سياسي، أو أيضا لأجل ثأر يُطلب منهم. وإمّا «جياع» تكاثر عددهم فأصبحوا يتقاتلون على لقمة العيش، ولا تعود خيرات الطبيعة تكفيهم. وإمّا «لصوص» اعتادوا حياةَ النهب والسلب والتعدّي على أموال الناس و أرزاقهم.

و أوصاف هؤلاء جميعا، وفي جميع حالاتهم، تدلّ على سوء حالهم

---

(٦٢) أنظر المراجع المثبتة سابقاً في هذا البحث.

(٦٣) أنظر: تاريخ الواقدي، ٤٥٨، تاريخ الطبري ١/١٤٣٨، الاغاني للأصفهاني ٨/٦٥، النهاية لابن الاثير ٢/٥٢، ٦٣، أسد الغابة في أسماء الصحابة ٥/١٧٨ ...

(٦٤) هنري لامنس، المشرق عدد ٣٤، سنة ١٩٣٦، ص ١ – ٢

وشدّة فقرهم. فالصعلوك مثلا هو «الفقير الذي لا مال له»[٦٥]، أو هو « الفقير المتجرّد للغارات»[٦٦]. والصعاليك قوم خرجوا على طاعة مجتمعهم بعد أن حرمهم أهلهم من تقديم أيّة مساعدة أو حماية لهم. والصعلوك هو المتمرّد على مجتمعه، الخارج عن نظام قبيلته، العابث بالأعراف والعادات، واللامبالي بالتقاليد، والحاقد على أهله وعشيرته، والمعدوم من كل شيء يفيد أو يقيت.

والجوع حليف الصعاليك، بل هو جزء من أجزاء حياة الصعلكة. والموت يتبعهم مثل ظلّهم. والخوف الدائم رفيقهم. ولا أمل لهم بعصبيّة تدفع عنهم الشرّ والموت إنْ هم لم يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم.

ومن مظاهر الفقر انّهم كانوا يأكلون ورقَ الأشجار ولحاءها، ويعمدون، كالسَرْح، في رعي الأعشاب نيئة بدون معالجة ، ويلجأون الى «العِلْهَز» وهو طعام من الوبر والدم[٦٧]، أو الى «الوَدَك» وهو جَمْعُ العظام وكَسرُها ثم طبخُها[٦٨]، أو الى «الوزين» وهو الحنظل ممزوج باللبن[٦٩].. وكثير منهم من كان يؤثر «الاعتفاد»، وهو لجوء الرجل الى بيته يغلق بابه على نفسه ليموتَ جوعا لكرامته. مفضلا الجوع على الشبع بالاستجداء[٧٠].

وكثير منهم من لم يكن له لباس يستر به عريه، أو كان يستر جسمه بالأسمال البالية، أو بورق الشجر، وأعساف النخل. ولم يكن لديه ماء ليغتسل. وقد ذُكر أن بعضَ الصحابة كانت «تنبعث منهم روائح كريهة من عدم الغسيل.

---

(٦٥) لسان العرب ١٠ / ٤٥٥ (مادة : صعلك).

(٦٦) جمهرة أشعار العرب، ١١٥.

(٦٧) لسان العرب ٥ / ٣٨١؛ وتاج العروس ٨/ ٢٠٣..(مادة : علهز).

(٦٨) تاج العروس ١ / ٣٣٧ (مادّة ودك). ولسان العرب (المادة نفسها).

(٦٩) تاج العروس، (مادة: وزن). وايضا لسان العرب (المادة نفسها).

(٧٠) تاج العروس ٢ / ٤٢٦. عفد: انتحر ليتخلّص من ألم الجوع.

ويلعبُ القمل في شَعرِهم، ويتنقّل على أجسامهم حيث يشاء»[٧١].

وهناك أيضـا من لم يكن له مسكن، فكان ينام في الصحراء، ويتوسّد التراب، ويلتحف السماء. ويسمّون بـ«بني الغبراء». والغبراء: التراب[٧٢]، وبـ«المدقعين»، من الدقع وهي الأرض، والدوقعة الفقر والذل[٧٣].

ولشدّة الجوع كان أحدهم اذا نال شربةً من اللّبن المذوق بالماء وخمس تمرات صغار ظنّ نفسه مَلِكًا. قال في ذلك شاعر منهم[٧٤]:

اذا ما أصبْنَا كلَّ يوم مَذيقةً ... وخمسَ تُمَيرات صغارٍ كنائزِ
فنحنُ ملوكُ الأرضِ خُصْبًا ونِعمَةً ... ونحن أُسُودُ الغَابِ عند الهزاهِزِ

وتمنّى أكثرهم الموتَ على الجوع والهزل. فقال عروة بن الورد شعرا:

أقيموا بني لبنى صدورَ ركابكم ... فانّ منايا القومِ خيرٌ من الهزلِ

وأيضا:

إذا المرء لم يبعثْ سَواما ولم يرح ... عليه، ولم تعطفْ عليه أقاربُه
فللموت خير للفتى من حياته ... فقيرًا، ومن مولًى تدبُّ عقاربُه[٧٥]

والفقر جعلَ الصعلوك يستهين بالموت في سبيل لقمة العيش. فهو لا يدري متى تأتي منيّته، ومن أين تأتيه. اذا نام خاف مِن غادرٍ يغدر به، واذا سار ليلا لا يعرف من يكون مثله من الصعاليك يسري. واذا ارتاح على غنيمة ظفر بها لا يأمن على نفسه من باحث عن قوت يفتك به. واذا تعقّب دار غنيّ فلا

(٧١) عن د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/ ٨٠.
(٧٢) تاج العروس ٣/ ٤٣٧ : (المادّة: غبر). لسان العرب (المادة نفسها).
(٧٣) تاج العروس ٥/ ٣٣١: (مادّة:دقع)، ولسان العرب، (المادة نفسها).
(٧٤) ديوان عروة بن الورد، ص ١٠٦ وعروة أحد شعراء الصعاليك ورئيسهم.
(٧٥) المرجع نفسه، ص ١٥٠، أنظر الحماسة لابي تمام ١/ ١٦٦.

يعلم اذا كان ثمّـة صعلوكٌ آخر سبـقه، فيلتـقيان ويتقـاتلان، وتبقى الدار في غناها لصاحبها سعيد الحظ.

من هنا جـاء حَذَرُ الصعـاليك الدائم. فهـم لا ينامون الاّ وسلاحُـهم الى جنبهم. لا يرقـدون من الليل الاّ قليلا. ليلهم قصـير. ونومهم قليل. وسـهرهم طويل. وسـلاحهم جاهـز. والقلق دائم. وهم، لقرب الموت منهم، لا يبـالون به متى يأتي. ولكن لا مبالاتهم ناتجـة عن يأس وقنوط، لا عن إيمانٍ ورغبة. قال الشنفري أحدُ شعرائهم:

اذا أتتني منيّتي لم أبالِهـــــا ولم تذر خالاتي الدموعَ وعمّتي[٧٦]

ومع هذا تبقى الحياة على الصعاليك عزيزة مهما اشتدّ جوعهم.

ويزاد أيضـا على هذه الصعلكة البـائسـة ما تحـمله لفظة. «خليع» من تعاسـة. فالخليع هو الذي خلعه أهله وطردوه من بينهم. فـان جنى لم يطالَبوا بجنايته فهم لا يؤخذون بجنـايته، ولا هو يؤخذ بجنايتهم[٧٧]. و«إعلان الخلع أمر خطيـر بالنسبة الى سكّان البـادية. فالخليع يخرج من حـمى قبيلته ليـجد نفسـه في موقف صـعب ووضع شاذّ. لقد سـحبت منه «الجنسـيّة القـبلية»، وأصبح فردا منفصلا عن قبيلته..

وفرص الحياة في الصـحراء محدودة. ومن المستحـيل أن يعيش الفرد فيها الاّ مرتبطا بجماعة. ولا يرى الخليعُ في هذه الحال أمامه الاّ أحدَ طريقين : إمّا أن يلجأ الى قبـيلة أخرى يعيش في حماها مولى من مواليـها، وإمّا أن يلجأ الى الصحـراء ليتّخذ من الغـزو والنهب وقطع الطرق وسيلة للحيـاة وأساليب الرزق، معتمدا على قوّته الشخصـيّة في فرض واثبات وجوده في مجتمع قطع

(٧٦) الاغاني ٢١/ ١٣٩ . انظر الشعراء الصعاليك، ص ٣٣.
(٧٧) لسان العرب ٨/ ٧٦ – ٧٧، تاج العروس ٥/ ٣٢٢. (مادّة: خلع).

كل صلة بينه وبينه»(٧٨)

هؤلاء الصعاليك والخلعاء كانوا، على ما يبدو، كثيري العدد الى درجة أنّهم كانوا يُخيفون الأغنياء ويرمون الرعبَ في مجتمعاتهم. وخافتهم قريش وأخذت منهم الحذر. فقدّمت لهم العونَ والجوار درءاً لخطرهم. وهي إنْ تركتهم وشأنهم قاموا بنهب الأموال وقتل الناس والسطو على القوافل والأملاك. لذلك سعى بعض أعزّة قريش الى انصافهم ومساعدتهم... فراح الشعراء يمتدحون بني هاشم وقريشا لما أمدّوا به الفقراء والجياع من مساعدة. وكان أشهر من شعر بخطر الجياع والمحرومين هاشم بن عبد مناف الذي دعا الى انصافهم وتقديم العون لهم، فقيل فيه شعرا:

عَمْرُو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومِه ورجالُ مكّةُ مُسْنَتُونَ عِجَافُ

وقيل في بني قريش:

والخالطون فقيرَهم بغنيِّهم ...... حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي.

وورد أنّ حكيم بن حزام كان يقاسم ربحَه من تجارته الفقراءَ وأهلَ الحاجة والمحاويج(٧٩). وذُكر أن قريشا كانوا «يتفحّصون عن حال الفقراء ويسدّون خلّة المحاويج»(٨٠).

والإيلاف الذي تكلّم عليه القرآن في سورة قريش هو من هذا القبيل. وهو يقوم على انصاف الفقراء والمساكين. وهو من جملة مآثر هاشم بن عبد مناف الذي صار عملُه سنّةً لمن جاء بعده. و«أصحاب الايلاف من قريش الذي

---

(٧٨) الشريف، مكّة والمدينة، ٣٤. انظر: ابن الاثير ١/ ٣٥٩، ابن هشام ١/ ١٩٩ – ٢٠٢، الروض الانف ١/ ١٢٠ – ١٢١، نهاية الارب ٣/ ٢٧ – ٢٩...

(٧٩) الزبير بن بكار، نسب قريش ١/ ٣٦٧، رقم ٦٤٤.

(٨٠) تفسير النيسابوري، حاشية على تفسير الطبري ٣٠/ ١٦٩.

رفع الله بهم قريشا ونعش فقراءها»[٨١]. ومن ايلاف قريش «الرفادة» وهي اقراء ضيوف مكّة واطعام المحتاجين من أهلها. ومنه أيضا «السقاية» وهي توفير الماء والنبيذ واللبن والعسل[٨٢]. ومنه أيضا ما جاء في حلف الفضول من دعوة الى «مؤاساة أهل الفاقة ممّن ورد مكّة بفضول أموالهم»[٨٣].

وفي الشعر مديحٌ عظيمٌ للذين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بالفقراء:

يَبيتون في المشتى ملاءَ بطونِهم ... وجاراتُهم غرثَى يَبِتْنَ خمائصا[٨٤].

وفي قول الخرنق بنت هفّان إشارة الى ذلك وهي ترثي زوجَها وابنها:

والخالِطين نحيتَهم بنضارهم ... وذوي الغنى منهم بذي الفقر[٨٥].

ومثله قول عمرو بن الاطنابة:

والخالطين حليفَهم بصريحهم ... والباذلين عطاءَهم للسائل[٨٦].

ومثله أيضا ما جاء في ديوان حسّان بن ثابت:

والخالطين غنيَّهم بفقيرهم ... والمنعمينَ على الفقيرِ المرسل[٨٧].

بيد أنّ سخاء تجّار قريش لم يكن بدون مقابل. فالشذّاذ في مكّة كانوا أكثر المستهلكين لمداخيلهم، اذ كان لهم مال كثير حصّلوه بدون جهد كبير؛ لذلك

(٨١) المحبر لابن حبيب، ص ١٦٢ .
(٨٢) المحبر لابن حبيب ١٧٦ و ١٧٧.
(٨٣) سيرة ابن هشام ١٤١/١ .
(٨٤) الأمالي للقالي ١٥٨/٢
(٨٥) المرجع نفسه.
(٨٦) ابن الشجري، الحماسة، ص ٥٦ .
(٨٧) ديوان حسّان بن ثابت ٣٠٨ .

كانوا ينفقـونه بدون حساب. وكذلك أيضا كـانوا خير معاونين لتـجّار قريش، فكان هؤلاء يستـأجرونهم للمحافظـة على قوافلهم، ولخفارتهـا في رحلاتهم البعـيدة[٨٨]، لأنّهم كـانوا على علم بمسـالك الطرقـات، وبمخاطر اللصـوص، ومعرفةٍ عمليّةٍ لتجنّبهم أو لمحاربتهم...

هذه الطبقة من الفقراء والخلعاء كان لها «أثر كبير في سرعة استجابتها للدعوة الاسـلاميّة ونجاحـها في أطوارها الأولى»[٨٩]. ذاك لأنّ الاسلام جاء، أوّل ما جـاء، بمبادئ وتعـاليم عملت على انـتشال هؤلاء الأذلّة والمسـاكين من الوضع السيّء الذي كانوا فيه. و«انّ نظرة الى قائمة القتلى والأسرى في يوم بدر لتعطينا فكرة واضحة عن مقـدار مشاركة هؤلاء الموالي (الارقّاء الخلعاء) لقريش في الصراع. ونظرة أخرى الى المهـاجرين مع النبي الى يثرب نستطيع أن ندرك أن هذه الطبقـة كانت كبيرة العـدد. فقد بلغ عدد المهـاجرين الى يثرب بعد بَيعَةِ العَقَبة الكبرى ٨٦ كان منهم من قريش ٤١، والباقون من الموالي»[٩٠].

وقد كان الذين اتّبعوا النبيّ في هجرته وغـزواته يعرفون أنفسَهم بهذه الحالة السيئة ، فـقالوا: «يا رسول الله! انّا أناس فقراء»[٩١]. وعرفوا أيضا في التاريخ الاسلامي بـ «فقراء المهاجرين»[٩٢]. وذكّرهـم النبيّ مرّة وهو يقول له: «ألم تكونوا فقراء وأغناكم الله»[٩٣]، أو «وكنتم عالةً فأغناكم الله بي»[٩٤]؟

---

(٨٨) الازرقي، أخبـار مكة ٤٦٢، الواقدي، المغازي ٣٠، الاغاني ١٢/٤٩، ١٩/٧٦، ٦٢/٢١ و ٦٨، ٨/٦٨ – ٧٠ و ٧٢. انظر لامنـس، الاحـابيش في مكّـة، المشـرق ٣٤ سنة ١٩٣٦، ص ٤ – ٥ ...

(٨٩) الشريف، مكة والمدينة، ص ٣٩ .

(٩٠) المرجع نفسه، ص ٢٢٦ و ٢٢٨ .

(٩١) سنن ابن أبي داود، باب الديات ٢٥/١٠ .

(٩٢) مسند أحمد بن حنبل ٢/١٧٧ .

(٩٣) مسند أحمد بن حنبل ٣/٥٧ .

(٩٤) صحيح البخاري، باب المغازي ٥٦، صحيح مسلم، باب الزكاة، ١٣٩، مسند ابن حنبل

وفي رأي المسلمين أنفسِهم أن هذه الطبقة التعيسة كانت «كبيرة العدد بمكّة نظراً لأعمال أهل مكّة التجارية الواسعة، وانشغالهم بها، واحتياجهم الى من يقوم على خدمتهم»(٩٥). ونظرا الى مجتمع مكّة المدمن على «الشراب والسمر والمنادمة. ومثل هذا المجتمع يحتاج الى أعداد من الغلمان والجواري السود والبيض على السواء للخدمة والتسلية وإرضاء الشهوات. وقد بلغ عدد الرقيق في مكّة حدّا كبيرا... ولعلّ ممّا يدلّ على كثرتهم المفرطة أنّ هندا بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها، كما أعتق سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم جميعا»(٩٦).

وعند بعض الباحثين المستشرقين، أمثال لامنس وكيتاني وبندلي جوزي، وغيرهم كان يبلغ عدد الفقراء العاملين في مكّة وفي تجارة قريش عشرات الألوف....

والأحابيش منهم كان لهم نظام اجتماعي وعسكري خاصّ.. الى درجة أنّهم كانوا يتحكّمون، بالنظر الى الخدمات التي يقومون بها، بأوضاع مكّة.... واستطاع الرسول، في حربه ضدّ أثرياء مكّة، أن يستميلهم اليه، وأن يتعاطف معهم، ومع ملكهم النجاشي، الذي، رغم هجوم عساكره على مكّة بقيادة أبرهة في عام الفيل سنة (٥٧٠ م؟) استضاف المهاجرين الأوّلين من أتباع محمّد(٩٧).

٣/٧٦، ٤/٤٢ و ٥٠.

(٩٥) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٨ .

(٩٦) المحاسن والأضداد، ص ٧٧، المبرد، الكامل ٢/٩٦، شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٥١. عن الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٩.

(٩٧) أنظر لامنس، المشرق ٣٤، وكيتاني، الحوليات الاسلامية، وبندلي جوزي، الحركات الفكرية في الاسلام..

رابعاً - ثورَة الجيـــــاع

هكذا كان مـجتمع مكّة في أواخـر القرن السادس للميـلاد: أعزّة وأذلّة، فقر مدقع وغنى مـفرط، طبقة ثريّة وطبقة معـدمة، مترَفون ومستـضعَفون.. لاحدّ وسط بين الفـئتين. وهو أمـر طبيعي في مـجتمع يعـتمـد في رزقه على التـجارة، وعلى التـجـارة وحدها، مع مـا فيـهـا من مضـاربة، وغشّ ودهاء، واحتيال ومراوغة، واحتكار وخداع، ومكر وتلاعب بالمكاييل والموازين...

وكثرة الغنى في طبـقةٍ أدّتْ الى كثرة الفقر في أخرى. وكـلّما كثر المال في جماعة، قلّ عدد الأغنياء، وزاد عدد الفقراء وأصحاب الفاقة؛ فاستأثرت قلّة من الناس بالمال والرزق والـثروة، وأصـبح الفـقـراء يأكل بعـضـهم بـعضـا ويعملون لمصلحة أسيادهم على حـساب بعضهم بعضاً... ولا بدّ من أن تكون هذه القلّة من الأثرياء على ذكاء وفطنة، فاسـتطاعوا أن يتملّكوا الفقراء كـعبيد وأرقاء وموالي، كما تملّكوا المال والرزق والثروة. واستطاعوا أيضا أن يفتحوا أبواب بيـوتهم للجيـاع والمساكـين، وأن يساعـدوهم على نحو مـا أشار اليـه الشاعر الخزاعي في قوله:

هَبَلَتْكَ أمُّكَ! لو حللتَ بدارِهم	ضمنوكَ من جوعٍ ومن إقرافِ
والخالطين غنيَّهم بفقيرِهـم	حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي (٩٨)

الاّ أنّ سدَّ رمقِ الجياع، ومساعدةَ الفقراء والمساكين، والنداءات المتكرّرة الى ذلك.. لم تقضِ على الفقر والجوع، ولم تخفّفْ من وطأة البؤس والحرمان،

---

(٩٨) أنظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٤، تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٠٥، الطبرسي، مجمع البيان ١٠/ ٥٤٦، انساب ١/ ٥٨ ...

ولم تغمض أعين المعدمين عن استئثار المترفين ونهمهم. انّ أصوات الجياع كانت أقوى من المساعدات الضئيلة، وأعلى من نداء الاستغاثة، وأكثر دوياً من كل حسنة... وكان الفقر تتّسع رقعته كلّما انحسرت الأرزاق بأيدي قلّة من الناس... وهو أيضا أمر طبيعي في مجتمع بدائيّ تسوده الأثرة والأنانيّة والفرديّة والمصلحة الخاصّة...

في هذا الجوّ البائس، راح التعساء يتململون، ويتجمّعون، ويتعصّبون. وراحوا ينتفضون لكرامتهم الانسانيّة المتبقّية عندهم، بعد اذلالهم المتواصل. وحتى الشفقة عليهم كانت تحزّ في نفوسهم، وتحطّم عنفوانهم القليل الباقي... وبات الكلّ، من أحابيش وأعراب وأعاجم وأجانب وطرداء وصعاليك وجياع ومحرومين ويتامى ومساكين... يتحيّنون تلك الفرصة التي تسمح لهم بالانتفاضة وإعلان الثورة.

وعندما يحين الوقت لذلك، وينتفض الفقير لفقره، وينتقم الجائع لجوعه، ستكون نقمة عارمة، وثورة جارفة، وحرب ضروس، وسينقلب المجتمع بأمّه وأبيه رأسا على عقب، لا محالة... وانْ لم تنجح الثورة، فلا يخسر الثائرون شيئا، وهم الخاسرون كيفما تصرّفوا... ولكنّ نتيجةً ما ستكون لا محالة. والنجاح رهن بقائد متجرّد يتزعّم الثورة.

انّ المحرومين من خيرات هذا العالم، بسبب جشع الجشعين، هم أشدّ فتكا في الأرض من الوباء السارى. والدليل على ذلك اجتياح الحركات الاجتماعيّة معظم أنحاء العالم، وتسمّى، بلغة هذا العصر، حركات اشتراكيّة، أو شيوعيّة، أو بروليتاريّة، أو يساريّة، أو تقدّمية، أو عمّالية، أو حركة محرومين وبائسين ومنتفضين ورافضين ومعارضين... وقد يتخذها معتنقوها بمنزلة دين سماوي منزّل، فيجاهدون في سبيلها جهاداً مستميتا، ولو أدّى بهم جهادُهم الى سفك الدماء، والقضاء على معالم الحضارة، ونحر أنفسهم...

أليوم كما بالأمس، حروب العالم هي حروب فقراء ومحرومين ضدّ أغنياء مترفين. ولئن تعدّدت الأسباب فانّ السببَ الرئيسَ منها هو ضرب جشع الأثرياء المستبدّين. ولئن اختلفت المظاهر فانّ بواطن الحروب والثورات تكمن في بطون الجياع. ولئن كان لله في الحرب أصبع فانّه قد يكون له ذلك لدعم الفقير في حجّته وفي ثورته. وقد يستفيد رجال يتكلّمون باسم الله لاعلان تعاليم سماوية، ولكنّ هذه الاستفادة تكون نتيجةً لا سَبَباً، وتأتي بعدَ شِبَعِ الجياع وضرب الميسورين. إنّما البادئون هم البؤساء والفقراء. والذين يبادرون الى الثورة وساحات القتال هم هؤلاء.

هذه المبادرة كانت في الدعوة الاسلاميّة منذ نشأتها، وربّما لم يكن غيرُها. لقد كان بدء الدعوة الاسلاميّة بسبب حرمان طبقة هائلة من سكان مكّة حيث اشتعلت. والنبيّ محمّد كان من هذه الطبقة: كان محروما من المال والرزق اللذين كان يتمتّع بهما أقرباؤه الأدنون. وكان عائلا، ويتيما، وضالاً، على ما أشار اليه القرآن في وصفه له: «ألمْ يَجِدْكَ يتيمًا فآوى. ووَجدَكَ ضالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عائِلاً فأغنى»؟! (٩٣/ ٦-٨).

ومنذ الصغر، كان محمّد يجهد ويجاهد في تحصيل قوته اليومي بعرق جبينه. فكان تارة يرعى الغنم، وهو دون السادسة من عمره، وطورا يسافر مع القوافل التجاريّة، كخفير وأجير يتحمّل الحرّ والأعباء، وهو دون الثالثة عشرة؛ وكثيرا ما كان يبيتُ الليالي ضامرا يكاد يفنى جوعا وضنكا؛ وفي معظم حياته كان باحثا عن لقمة العيش في العسر والجهد.

والذين ناصروه وآزروه لم يكونوا أحسن حالا منه. فهم «أذلّة مكّة»، و«أراذلها»، اتّبعوه في جهاده لاجل الظفر بـ«مغانم كثيرة»[99]. وراحوا معه يقطعون طرق التجارة على قوافل قريش، ويشنّون الغارات على يهود يثرب،

(٩٩) القرآن ٤٨/ ١٩ ، ٢٠: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها».

ويغزون القبائل، يريدون العير والبضائع والمغانم. فقضوا بذلك على سبل عيش الأغنياء ومالهم... لقد كان الصراع بين محمّد وأنصاره من جهة، وقريش وقبائل البدو من جهة ثانية، كبيرا وعميقا وقديما.. وكان على محمّد القائد أن يحسمه قبل استشرائه.

في هذا المناخ من الصراع الطبقي نشأت الدعوة المحمّدية واضطرمت. وكان محمّد، وهو الفقير اليتيم، يدعو الفقراء واليتامى الى انتفاضة جارفة حتى النصر المبين. فجمعهم حوله، ودرّبهم على حمل السلاح، وعلّمهم أنّ الله انّما يريد المساواة والعدالة بين البشر، وانّه يسوّي بين السيّد والعبد، وانّ الرزق كلّه من الله والى الله، وانّ الظلم المتفشّي في طبقة «الملاء الأعلى» يجب أن يزول، وأن يزول معه الظالمون.

ولا عجب في ذلك، فانّ الفقر يولّد الحرمان، والحرمان يولّد النقمة، والنقمة تنجبُ الثورة. وأسباب الثورة لم تكن تُحصى في ذلك الحين. فسكّان مكّة يأكل غنيُّهم فقيرَهم، وقويُّهم ضعيفَهم. ومحمّد ينظر، ويسمع، ويتحسّس، ويتألم لآلام الناس وجوعهم. ولم تكن أسباب النقمة عنده أقلّ ممّا هي عند سواه: فهو، رغم أنّه من قريش التجّار، كان فقيرا معوزا، لا يملك من حطام الدنيا شيئا. وأعمامه تجّار أثرياء، ولم يهتمّ به الاّ عمّه أبو طالب أكثرهم عيالا وأقلّهم مالا، وقد دعاه عمّه هذا يوما قائلا: «يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مالَ لي. وليس ما يَمُدُّنا وما يقوِّمُنا، ولا تجارة»[١٠٠]. وحثّه، من ثمّ، على الالتحاق بقوافل خديجة.

وكمّ مرّة جمع محمّد أصحابه التعساء «الأذلّة» يعلّمهم قائلا: «أغزوا

---

(١٠٠) انظر : طبقات ابن سعد ١/ ١١٩ و ١٥٦ و ١٦٨، السيرة الحلبيّة ١/ ١٤٧، السيرة المكيّة ١/ ١١٨ وغيرها...

تستغنوا»[١٠١]، ويقول: «انّ الرجل يـقاتل ليغنم. ويقـاتل يغنم»[١٠٢]. وكم طلب منهم أن يصلّوا الى الله معـا: «ادعُ اللهَ أن يفتحَهـا علينا ويُغنِمنا ديارَهم»[١٠٣]. وكان يختصر مهمتّه بقوله: لقد «غزونا فسلمنا وغنمنا»[١٠٤]. والمحروم الجائع ربّما تكون ثورته لأجل المغانم عـديلَ الجهاد في سبيل الله. وقد حـدّثنا محمّد عن ذلك بقوله، وهو يمدح أحد صحابته انّه «كان كالمجاهد في سبيل الله، رجعَ غانِما»[١٠٥]... هذه «المغانم» التي شـرّعها الرسـول هي نتيجـة حتميّـة للثورة. والثورة نتيجة حتميّة للجوع والحرمان.

ولا بدّ لها من أن تكون . لكنّها بانتظار القائد.

---

(١٠١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٣٨٠ .

(١٠٢) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٤١٦ ، سنن ابن أبي داود، باب الجهاد، ٢٤، سنن النسائي، باب الجهاد، ٢١.

(١٠٣) سنن النسائي، باب الجهاد، ، ٢١.

(١٠٤) مسند أحمد بن حنبل، ٥/ ٢٤٨ ، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨. وشهادت أخرى كثيرة في كتب الاحاديث الستّة وفي الصحيحين. انظرها في مكانها.

(١٠٥) الموطّأ، باب السفر، ٥٣ .

خاتمة الفصل الرابع

في أواخر القـرن السادس للميلاد، كـان في مكّة أغنياء وفقـراء. وكان بينهمـا صراع. كانت الحـياة فيهـا تتجاذب بين الفـقر والغنى. وكان المجـتمع متصـدّعا. لمّا جاء محمّد، كـان الغنى ينحصر في أيد قليلة، وكان الفـقر تتّسـع رقـعتـه. وكـان جوع المحـرومين يضـمـر شرّا. والصـراع ينتظر اضطرامـا. والمجتـمع يترقّب ثورة. والثـورة رهن بوجود قـائد. والقائد وجـوده قليل. بل وجوده رهن بشدّة البؤس. وكلّما عظم البؤس، قوي الصراع، وكثرت المفاسد، وذرّت الثورة قرنها. واقترب وجودُ القائد.

واذا ما وُجِدَ القـائد، وكان شـعورًا حـسّاسًـا، متفـاعلاً مـع الاحداث، وغيـورًا على المصلحة العامـة، ومتجـرّدًا عن أنانيّته، وواعـيًا لخطورة دوره، ومتبصّـراً لمجريات الأمور، ورائيًا لما سيكون، وعالِمًا بالمسـتقبلات، وفطنًا في استمالـة الناس اليه، وعارفًا بمواطن الضعف والقوّة، وحـذِرًا من دهاء التجّار والملاعين، ومميّزًا لأصحـابه من الأعداء، وجسوراً على اظهار الشرّ، ومـقدامًا على فـعل الخيـر، ومبشّـرًا بتحـسين أوضـاع البـائسين.... ستكون الـثورة لا محالة. وستدقّ ساعة الحسم.

وهناك أيضـا شـرط جـوهري لمعـرفـة مَن يكون القـائد في مـثل هذه الأحوال. وبه يكون هذا القائد خطيرا. وهو أن يكون ممّن انفصـمتْ شخصيّته بصراع داخلي حادّ، وحـوى في نفسه صراعَ المجتمع، وتجـاذَبه الفقرُ والغنى على السـواء، ويكون من نسب شريـف، ومن عائلة كـريمة، ويقدر على جـمع الثروة إنْ أراد، ويزهد بها سـاعة يشاء. وإنْ حصل عليها يكون مـتجرّدا عنها،

ويكون سخي الكفّ في العطاء، مهتمّا بمناصريه اهتمامه بنفسه وأزود.

فكان محمّد ايّاه ذاك الرجل الذي حوى في نفسه صراع مجتمع مكّة. فهو ينتمي، من جهة نسبه، الى أعزّة قريش وأغنيائها؛ ومن جهة وضعه وسوء حاله، الى أذلّة مكّة وفقرائها. وهو يمثّل في شخصه تناقض مكّة بين الفقر والغنى: لقد قضى صباه فقيرا يتيما، ثم أصبح، بزواجه من خديجة، أحد الأثرياء الميسورين... فمع أيّ فئة يكون؟ والى أيّة جهة يميل؟ أيكون مع الفقراء وقد كان واحداً منهم! أم يكون مع الأغنياء وقد أصبح مثلهم!

يبدو أن صراع مجتمع مكّة انتقل بعنفه الى شخصية محمّد. فهو الفقير والغنيّ معا. وهو القائل: «أعوذ بك من شرّ فتنة الفقر»[١٠٦] وأيضا: «أعوذ بك من شر فتنة الغنى»[١٠٧]. وهو الذي عاش البؤس والحرمان، ثم تمتّع بما لزوجته من مال وثروة وأرزاق. وهو الذي عرف المساكين واليتامى، ثم عرف كيف يكون النعيم في بيت خديجة. لكأنّ محمّد هو مكّة، ومكّة هي محمّد، بما في الاثنين من تناقض وصراع وانقسام وانفصام.

هذا ولم يكن، في مجتمع مكّة، في ذلك الحين، مَن يكون في مثل وضع محمّد: فهو الفقير والغنيّ معا؛ وهو ربيب عبد المطلب زعيم قريش، وهو أيضا «عالة» على عمّه أبي طالب القليل المال والكثير العيال؛ وهو يتيم الوالدين والمحروم من حنان الأخ والأخت، وهو أيضا زوجُ خديجة صاحبة المال والجمال والتجارة الواسعة، وهو «الضالّ»[١٠٨] بلا عضد أو سند، وهو أيضا

---

(١٠٦) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٥٧، ٢٠٧.

(١٠٧) صحيح البخاري، باب الدعوات ٣٩، ٤٤، صحيح مسلم، باب الذكر ٤٩، سنن إبن أبي داود، باب الوتر ٣٢، الترمذي، باب الدعوات ٧٦... الخ.

(١٠٨) اشارة الى كلام القرآن: «ووجدك ضالاً فهدى» (٩٣/ ٦ – ٨).

تلميذ القس ورقة بن نوفل رئيس نصارى مكّة وعالم بالكتاب وأهله[١٠٩]؛ وهو جار بيت الله الحرام، وهو أيضا رفيق التائهين في دروب الصحراء...

سيرة محمّد ستُظهر لنا شخصيَته ورسالتَه ومدى نجاحِه في مهمّته هذه. والخوف من الفشل الذريع سيكون كالخوف من النجاح الكبير. اذا فشل – لا سمح الله – سيشتدّ البؤس والجوع على الفقراء أكثر ممّا كان عليه. واذا نجح كثيرا في مجتمع بدائي سيجرّه نجاحه الى اعتبار نفسه مصلحا عالميا في مستوى الكون. ويخشى أن يسحبه نجاحه الى النطق باسم الله والتنبؤ بالمستقبلات. واذا ما دخل الغرور نفسه سيعتبر نفسه نبيّا مرسلا، ورجلا معصوما.

في كلِ نجاحٍ يحقّقُه إنسانٌ ما يَربُضُ فَشَلٌ ما ، يأتيه من شرّ الكبرياء. والادّعاء شرُّ كل نجاح. وان لم يكن بينَ الأتباع والأصحاب رادِعًا يردعه، فان محمّدا سيصل الى هذه الحالة لا محالة. ويبدو أن قوّةَ شخصيته دفعتْ عنه كل رادع. وحاجةُ المجتمع اليه رفعتْ من منزلتِه كثيرًا. وضعفُ رفاقه ميّز مقامَه. فلننظر في ذلك كلّه.

---

(١٠٩) أنظر كتاب «قس ونبيّ» فصل في هويّة القس ورقة.

الفصل الخامس

وضع محمّد الاجتماعي

أوّلاً ... - ... اليتيم الضالّ

ثانياً - ... تربية محمّد الإبيونيّة

ثالثاً - ... نقمة في عمق النّبي

رابعاً - ... القـــرار الخطيـــر

خامساً - ثورة حتّى النّصر



أوّلاً - اليتيم الضالّ

ولد محـمّد في مكّة، ونشأ وتربّى وتدربّ علـى الحياة في مجـتمعـها. وكان يخالط الناس في جميع طبقاتهم، ويشاهد، ويسجّل، منذ صغره، ما كان يراه أمام عـينيه من صراع. وكان ينـفعل للظلم يلحق بفئـة كبيرة من البـشر. وكان هـو منهم في كل حال. فـهو ينتـمي الى مكّة الفـقيرة، والـى طبيـعتـها القاحـلة. كما ينتـسب الى والدين فقـيرين، على الـرغم من أنّهما مـن «قريش التجّار».

مات والد مـحمّد والولدُ جنين. ثـم ماتت أمّه وهو طفلٌ دون الســادسة. ولم يترك له الاثنـان شيئـاً للحياة: لا أخ ولا أخت. لا إبل ولا مــال. لا أرضون للزرع ولا سلعة للمتاجرة... هذا الحرمان الـكبير رقّم حياة الولد في الصميم. وشبّ الولدُ وكـبُر؛ فـكبر مـعـه الحرمـان ونمى. ولا بدّ أيضــا من أن يكشف الحرمان عن شيء. والله أعلم عمّا سيكشف!

والمفروض ألاّ يكشفَ عن أمر وسط. فَمِثْلُه إمّـا تحطِّمُه الحياةُ فلا يعود له شأن يُذكر؛ وامّا يقلبُ المجتمع فلا يعود المجتمعُ يُعرَفُ الاّ بالنسبة اليه. ألمهمّ في مـثل هذه الحال أن يَحظـى الولـد بمربّين ومدربّين قـادِرين، وأن تتفـاعل نفسيّـته بما حُرم منه، وأن تُعطى له فرصُ النجاح إن قَصـدَ أمَراً ما. والظاهر أنّ الأجواء كانت مهيّأة للقيام بالمقصود.

إلاّ أنّ أعظمَ الحرمـان عنده كان في شـعوره بالعزلة و فـقدان العـضد والسند، وشعوره بالحاجة لعاطفـة ما. فلا أب يعضده، ولا أم تحضنه، ولا أخ

يسنده، ولا أخت تحنّ عليه. ثمّ لا شيء ممّا تقوم به حياته. فَكَفَلَهُ جَدُّه عبد المطّلب، وكلّفه برعاية الغنم في شعاب مكّة، وهو دون السادسة. ولّما توفّي جَدُّهُ كَفَلَه عمّه أبو طالب، أكثرُ الأعمام فقرًا وأكثرُهم عيالا.

وزاد في تعاسته أمراضٌ كثيرة أصابته في كل جسمه: من رَمَدٍ في عَينيه الى نوباتٍ عصبيّة، الى رعاشٍ يصيبه ولا يسكن عنه، الى أمراض، لا نعلم طبيعتها، كان بعضُ الرهبان يعالجه منها، والى أمراض أخرى، كان يرقى منها عند بعض السحرة والكهان، ثمّ الى نوباتٍ وارهاصات وارتعاشات كان يشعر بشدّتها عليه، حتى بعد بدء دعوته...

ويضاف الى ما أصاب جسمُه ما تعرّضت اليه حياتُه من متاعب ومصائب: فتارة كان يرعى الغنم ليحصل على لقمة العيش، وهو صغير السنّ طريّ العود؛ وطورا يُنصَحُ بالسفر وراء القوافل التجارية العابرة الصحراء من مكّة الى الشام، ومن الشام الى مكّة. وكان له من العمر، في رحلته الأولى، تسع سنين لا غير... واستمرّ الولد يتحمّل الأعباء حتى الخامسة والعشرين، ذاق فيها الأمرّين.

وحتى بعد أن تغيّرت أحواله، وأغنتْه خديجة من مالها وتجارتها، استمرّ على الجُهد والجوع والفاقة التي اعتادها منذ صباه. عن ابن عبّاس قال: «إنّ النبيّ كان يبيتُ الليالي المتتابعة طاوياً، وأهلُه (أولاده) لا يجدون عشاء. وكان عامّةُ خبزهم الشعير»[1]. وعن فاطمة ابنته، لمّا جاءت أباها بكَسْرَةِ خبز قال لها: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرصٌ خبزتُه فلم تطبْ نفسي حتى أتيتُكَ بهذه الكسرة. فقال: «أمَا أنّه أوّلُ طعام دخَلَ فمَ أبيكِ منذ ثلاثة أيّام»[2]. وعن أبي هُرَيرة: «انّ رسول الله كان يشدّ صلْبَه بالحجر من الغرْث». وعن

---

(١) طبقات ابن سعد، ١/ ٤٠٠ و ٤٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ١/ ٤٠٠.

عائشة قالت: «انّ رسول الله كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز برّ»(٣). وكان النبيّ يصلّي: «أللهمّ انّي أعوذ بك من الجوع، فانه بئس الضجيع»(٤).

وفي رواية عن النبيّ أيّام شبابه تقول: «انّ الرسول لمّا أمَرَ بأن يُستَطْلَعَ خبرُ القتلى من قريش يومَ بَدْر، وأن تُلْتَمَس جثّة أبي جهل في القتلى، قال لهم: «أنظروا، إنْ خفي عليكم في القتلى، الى أثرِ جرحٍ في ركبتِه، فإنّي ازدحمتُ يومًا، أنا وهو، على مائدةٍ لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان. وكنتُ أشفَّ منه بيسير، فدفعتُه، فوقعَ على ركبتيه، فخُدِشَتْ ساقُه وانهشمتْ ركبتُه. فأثرُها باقٍ في ركبتِه. فوجدوه كذلك»(٥).

وشهد محمّد، فيما بعد، على حياته التعيسة التي عاشها في طفولته، فقال يوما لرجلٍ ارتعد أمامه: «هوّنْ عليك. فإنّي لستُ بملِك، إنّما أنا ابنُ امرأة من قريش كان تأكلُ القديد»(٦). وقال عن رعايته الغنم: «وأنا رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط»، أي بأجزاء من الدراهم تُشترى بها الحوائج الحقيرة(٧). وقال عن الاهتمام باليتامى ، وهو يتذكر يتمه: «ارحموا اليتامى، وأكرِموا الغرباء. فانّي كنتُ في الصِغَر يتيمًا، وفي الكِبَرِ غريبًا»(٨).

والقرآن نفسه لم يتورّع عن ذكر اليتيم الضالّ، قال: «ألم يجِدْكَ يَتيما فآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائلاً فَأغنَى» (٩٣/٦-٨). ولا يزال اللّهُ يذكّره بأيّامِ فقره وتعاسته، بعد أن شبّ وكثر مالُه، فيقول: «ألم نشرَحْ لك

---

(٣) المرجع نفسه، ١/ ٤٠٩ .
(٤) طبقات ابن سعد، ١/ ٤٠٩ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٨، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢١٧.
(٦) طبقات ابن سعد، ١/ ٢٣ .
(٧) السيرة الحلبية، ١/ ٢٠٥ ، طبقات ابن سعد، ١/ ١٢٥.
(٨) السيرة الحلبية، ١/ ٨٢ .

صدرك»، ووضــعْنا عنك وِزرَك، الذي أنْقَضَ ظَهْرك، ورفــعْنَا لكَ ذكرَك. إنَّ معَ العُسْرِ يسرا. انّ مع العسر يسرا» (٩٤/ ١-٦)[٩].

***

نختــصر: ١- إنّ انقســامَ مجــتمع مكّة الى أعــزّة وأذلّة، ٢- وانقسامَ قريش الى بطاح وظواهر، ٣- ويُتْمَ محــمّد من الأب والأم، ٤- وحرمانَه من حنان الأخ والأخت، ٥- وافتقارَه من كل ما تقوم به الحياة من مال ورزق، ٦- وتبرّمَ أعمامه الأغنياء منه، ٧- واهتمامَ عمّــه أبي طالب به وهو مثله في الفقر والعوز، ٨- ورعايتَه الغنم لأهل مكّة، ٩- وسفرَه المرهق في خــفارة القوافل، ١٠- وشعورَه الدائم بالجوع والحرمان، ١١- وأمراضه العصبيّة التي انتابته منذ طفولته، ١٢- وشكاوَى التعساء أمثــاله وهم كثيرو العدد، ١٣- وانفعالَه العصبيّ لهذه الشكاوى المؤلمة... جــميعها، ثلاثة عشر عامــلاً من عوامل النقمة والثورة. يضــاف اليها مــا تعلّمه وتربّى عليــه من مبادئ «الرحــمة» ومحــبّة الفقــراء. وهي تربية إبيــونيّة نشــأ عليهــا، وتعلّمهــا على يدي نسيــبِه، ابنِ عمِّ زوجته، ألقسّ ورقة بن نوفل.

هذه كلّها ســتكوّن شــخصيّــة محمّد المميّــزة والفريدة في مجتــمع مميّز بفساده كمجتمع مكّة.

---

(٩) يفهم المسلمون بشرح الصدر معجزةً أحدثها الملاك في شقّ صدر محمّد لمّا كان طفلاً.

ثانياً – تربية محمّد الإبيونيّة

لن نتناول في البحث جميع نواحي حياة محمّد. يهمّنا منها فقط تربيته، منذ صغره حتى زواجه من خديجة. وتقوم هذه التربيّة على ما تعلّمه وشاهده وانفعل له في بيت جَدّه عبد المطّلب، وفي كفالة عمّه أبي طالب، وفي البيئة التي عاش فيها، وتأثّر بها، وفي المناخ الديني الذي غمره وثبّتَ قناعاته، وتدرّب على تعاليمه وعقائده وعاداته... طبعا انّنا لا نعرف مدرسةً للعلم دخلها محمّد، ولا أسماء الاساتذة الذين أعطوه المعرفة، ولكنّنا نعرف «مدرسة الحياة» التي علّمته ودرّبته ووجّهته، وانفعلت شخصيته بها.

من مدرسة والدَيه لم يتعلّم شيئا، لأنّه فقدهما طفلا. ولكن ما تركا له من يتم وفقر وحرمان فحدّث ولا حرج . وقد تناولنا ذلك آنفاً. ولكن، ما ان فتح الصبيّ عينيه حتى وقعتا على خادمة أمينة كانت تُساعدُ أمّه في تحصيلِ رزقها، واسمها «بركة» الحبشية، وكنيتها «أم أيمن»، وسيكون لها في ذاكرته مكان. ثم خادمة حبشيّة ثانية اسمها «أم حبيبة»، وكنيتها «أم يوسف». وكان له أيضا، بحسب عوائد قريش، مرضعة من بني سعد اسمها «حليمة السعدية»، هذه تكفّلت برضاعته شفقةً عليه ورحمةً بيتمه وتعاسته.

أمّا من مدرسة جَدّه عبد المطّلب حيث قضى الصبيُّ بعضَ السنين، فقد اكتسب أمورا عديدة، وانطبعت في نفسه صور جليلة، ستوجّه حياته في المستقبل، وتكبر معه، وتنمي كلّما كبر في السنّ ونمى. وكان الجَدُّ السند الوحيدَ للصبيّ، فلا بدّ، والحالة هذه، من أن يطبعه بطابعه، ويعلّمه من مدرسته. وكان الصبيّ يأخذ الجَدَّ مثالاً له، يقلّده، ويجالس أصحابه وندماءه.

هؤلاء كانوا ذا مكانة في الجـزيرة آنذاك، وكثيـرا ما كانوا يلجأون الى الكعـبة والى دار جدّه المحاذية لها . وكثيـرا ما كانوا يتكلّمون على المظالم الحاصلة في مجتمع مكة. ومحمّد كان هناك. يسمع ويشاهد ويسجّل.

وصفاتُ عبد المطّلب حدّثتنا عنها مصادر عديدة. تقول هذه المصادر: لقد كان عبد المطّلب صاحبَ مناقب سامـية، أهلّته لأن يكون زعيم مكّة بغير منازع. وقد اشـتهر، أكـثر ما اشـتهر، بالكـرم والجود والعدالة وانصـاف المحرومين. فلُقِّبَ بـ «شَـيْبَـة الحَمد»، لكـثرة حمـدِ الناس له لأنّه «كـان مُفْزِعَ قـريش في النوائب وملجـأهم في الأمور». وكـان يقـال له «الفيّـاض» لجُودِه. ويقـال له: «مطعِمُ طير السـماء»، لانّه كان يرفعُ من مائدتِه للطيـر والوحوش في رؤوس الجبال» . وكان يأمر أولادَه بتـرك الظلم والبغيّ، ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور. وقد كان «آمَنَ بأنّ وراءَ هذه الدار دارًا يُجزَى فيها المحسِنِ بإحسانِه، ويُعاقَب المسيءُ باساءته»[١٠].

ومن مناقـبـه أيضـاً، إنّه «رفضَ عـبـادةَ الأصنام، ووحّـد الله، ووفّى بالنذر، وسنَّ سنَنَاً نزل القـرآن بأكثـرها، وجاءتِ السنّة من رسول الـله بها». وهي: الوفاء بالنذر، ومائة من الابل في الدّيّة، وألاّ تُنكحَ ذاتُ محرَم، ولا تؤتَى البيـوت من ظهورها، وقطع يد السـارق، والنهي عن قتل الموءودة، والمـباهلة، وتحريم الخـمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليـه، والقرعة، وألاّ يطوفَ أحدٌ بالبيت عريانا، واضافـة الضيف، وألاّ يُنفقوا اذا حَجّـوا إلاّ من طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهـر الحرم، ونفي ذوات الرايات... حتى كـانت قريش تقول: «عـبد المطّلب ابراهيم الثاني»[١١].

(١٠) أنظر : الحلبية ١/ ٤، المكية ١/ ٧٥ ابن هشام ١/ ٤٣، الازرقي١/ ١٤٤، طبقات ١/ ٨٣، ابن كثير البداية٢/ ٢٥٢، بلوغ الارب ١/ ٣٢٤، ابن حزم، صوامع السير ٢/ ٢، ثمار القلوب ٩٧، الطبري ٢/ ٢٤٧ وغيرها .

(١١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠ – ١١.

وعرف عن عبد المطّلب أيضا أنّه «أوّل من تحنّث في حراء. وكان، اذا دخل شهر رمضان، صعد حِرَاء، وأطعم المساكين. ثمّ تبعه على ذلك مَن كان يتعبّد، كورقة بن نوفل وأبي أمّية بن المغيرة»[١٢]. وكثيرا ما كان له ندماء وأصحاب من الرهبان والأحبار وأسياد القوم، وكانوا يأمّونه في بيته، ويأتونه زائرين، ويجالسونه، ويتبادلون معه الأحاديث، ويتشاورون في كيفيّة رفع المظالم عن الفقراء ، ويعملون على إعالة المساكين، والاهتمام بالمحرومين الذين يؤلّفون عددا كبيرا من سكّان مكّة ويهدّدون، اذا ما جاعوا، تجارة قريش.

في هذا المناخ الإبيونيّ في بيت عبد المطّلب، تربّى محمّد، وتدرّب. ومنه أخذَ مواضيعَ تأمّلاته عندما سيختلي يوما بربّه في غارِ حِراء. وربّما تكون سيرة عبد المطّلب، لكثرة اعتنائه بالفقراء والمساكين، كَسِيرة أولئك «الإِبيونيين» النصارى الذين عرف عنهم، طبقا لاسمهم العبراني، عنايتُهم بـ «الفقراء». وربّما انتمى عبد المطّلب اليهم . ويُرجِّحُ انتماءَه هذا مناقبُه التي رأينا، ومنادمتُه للقس ورقة بن نوفل الذي كان ينقل انجيلهم العبراني الى العربية[١٣]. ولا يستبعَد أن يكونَ محمّد، الصبيّ الناشئ، تأثّر بهذه الحركة «الإِبيونيّة»، وأخذ تعاليمه عنها، وتبنّاها في سلوكه، وعمل جهدَه في تطبيقها. كما لا يُستبعد أن يكون القرآنُ المكّيّ كتاباً من كتبها.

***

بعد موت عبد المطّلب انتقل الولد الى كفالة عمّه أبي طالب. ولم يكن أبو طالب، على فقره[١٤]، أقلّ محبّة للفقراء والمساكين من أبيه عبد المطّلب. وقد

---

(١٢) السيرة المكيّة ١/١٧٨، ابن الاثير ٢/١٥ .

(١٣) انظر كتاب قس ونبيّ في ابيونية القس ورقة.

(١٤) جاء في الطبقات: «وكان ابو طالب لا مال له» (١/١١٩).

نقلت عنه كتبُ السِـير والأخبـار أنّه كان «كأبيه عـبد المطّلب»[١٥]. وقد جاء في وصيّتـه الأخيرة قولُه لـبنيه، وهو على فراش الموت: «أجيـبوا الداعي، وأعطوا السائل. فـانّ فيهـما شرفَ الحيـاة والممات»[١٦]. وربّما تعـرّف اليه الناس من صفتـه الابيونيّة هذه، فـ«أخبـرنا خالد بن خدّاش قال: توجّـه الى الشام فنزل منزله، فأتاه فـيه راهب فقال: انّ فيكم رجـلا صالحا. فقال: انّ فـينا مَن يُقري الضيف، ويفكّ الأسير، ويفعل المعروف»[١٧]. وكان أبو طالب ينشد:

ونُطعمُ حتى يأكلَ الطيرُ فضلَنا ... اذا جُعلتْ أيدي المفيضـينَ تَرْعَدُ[١٨]

وكان محـمّد في بيت أبي طالب يتمتّع بعطفٍ وعنـايةٍ تامّين. وقد أفاده فقرُ عـمّه بأن راح يتّكل على نفسه بنفـسه، ويعمل، منذ صغـره، على تحصيل عيشه. فسافر الى الشام، في خـفارة القوافل، وكان كأحد الأحابيش أو الأرقاء الذين يعملون بالأجـرة. وكان يسمع شكـاوى المأجورين أمثـاله، ويتململ من سوء حـالتهم، ويسجّل ما يسـمعه ويشاهده... هذه الأسـفار وما رافقـها من خـبـرةٍ أفادت مـحـمّدا، ودرّبته علـى الحيـاة، وشـدّدت عـضله، وعركـتـه بصعوباتها، ونفثت فيه روحا حماسيا ثوريّا لأن يأخذ منها موقفا.

***

ويضاف الى ما تعلّمه محمّد في بيت جدّه وعمّه من تعاليم «ابيونيّة» ما رآه واختبره وتعلّمه في مجتمعه. ولا بدّ من أن يكون تعرّف على أصدقاء جدّه وعمّه وندمائهمـا. وقد ذكرت عنهم كتب الاخبار الكثير من مـآثرهم الرحيمة. فعـبد الله بن جدعان التـيمي، صـاحب الأمـوال الوفيرة، «كان يُقـري الضيف

(١٥) السيرة المكيّة ١/ ٩١، السيرة الحلبية ١/ ١٢٥ .
(١٦) السيرة المكية ١/ ٩٩.
(١٧) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٠ .
(١٨) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٠ .

ويطعم الطعام ويفعل المعروف. وكان له جفنة« يأكل منها القاعدة والراكب»[١٩]. والرهبان النصارى، الذين تعرّف عليهم في رحلاته، يَعتبرون محبّةَ الفقراء عديل محبّة الله؛ فكانوا يهتمّون باطعام المسافرين من أهل مكّة كما جاء عن راهب بحيرا: «وكانت قريش كثيرا ما تمرّ على بحيرا، فيصنع لهم طعاما كثيرا»[٢٠].. وكم مرّة سنحت الفرصة لهؤلاء الرهبان ليعلّموا ضيوفهم أصول النصرانية، ويدرّبوهم على محبة الفقراء والرحمة بالمساكين.

وكان محمّد يسمع ويسجّل ويتأهّب لتلك الساعة الآتية. ولم ترحل صورة القس ابن ساعدة الإيادي من ذاكرته طوال حياته، وقد ذكرها بعد أربعين سنة لوفدٍ من إياد، ممّا يدلّ على أثرها العميق في ذهنه وضميره. وقد كان القس يعظ الناس في سوق عكاظ، ويكلّمهم على المفاسد المتفاقمة في المجتمع، وأهمها ظلم المساكين، وجمع المال، وأكل أموال اليتامى[٢١]. وقد انطبعت صورة الواعظ في مخيّلة محمّد وفعلتْ فيه فعلها، وراح هو يغذّيها بما يراه في مجتمعه موافقا لتربيته وشعوره الباطني وتعاليمه الابيونيّة.

وليس أدلّ على تربية محمّد على الرحمة والعدل من ملازمته القسّ ورقة بن نوفل نسيب زوجته خديجة. وقد عاش معه أكثرَ من أربعٍ وأربعين سنة. اشتهر القسّ ورقة في حياته النصرانيّة باعتكافه في غار حراء، وصيامِه طوال شهر رمضان، وانقطاعه عن الناس، وخَلوتِه بربّه في العبادة والصلاة، واهتمامِه البالغ بالفقراء والمساكين[٢٢]. وقد اقتدى محمّد به خير اقتداء، واهتدى بهديه، وهو القائل عنه وعن جماعته النصرانيّة : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه» (٦/ ٩٠). ثم لازمه في بيت عبد المطلب، ثماني سنين، وفي

(١٩) السيرة لحلبية ١/ ٢١٢، والسيرة المكيّة ١//١١٦.
(٢٠) الحلبية ١/ ١٣٠ – ١٣٥، ابن الاثير ٢/ ٣٧، تاريخ الطبري٢/ ٣٢ .
(٢١) طبقات ابن سعد ١/ ٢ و ٥٥، السيرة المكية ١/ ١٣٩.
(٢٢) السيرة الحلبية ١/ ٢٥٩، السيرة المكية ١/ ١٧٨.

غار حراء، قبل البعثة، خمس عشرة سنة، وبعد البعثة، ثلاث أو أربع سنين؛ وكان يتعلّم منه مبادئ الإبيونيّة، ويتدرّب على يده، ويتوجّه بارشاداته، ويتمثّل بسيرته، ويسمع مواعظه وتأمّلاته، ويستوعب تفاسيره للتوراة والانجيل، ويحضر نقله «الانجيل العبراني».. حتى قيل عن محمّد ما قيل عن القسّ ورقة: «كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهرا.. يطعم من جاءه من المساكين»[٢٣].

وفي النهاية، وقع النبيّ في يد القسّ وقعةً إلهيّة، وتزوّج من ابنة عمّه خديجة. وكان القس هو المكلِّلُ و«الشاهد» على الاكليل، فقال: «اشهدوا عليّ يا معشر قريش: انّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبدالله»[٢٤]. وبعد هذه الوقعة الالهيّة، راح القس يعلن المرّة بعد المرّة عن نبوّة(؟) محمّد، وعن دوره العتيد، وعن الدعوة التي يريد تحقيقها[٢٥]. ولمّا توفّي القسّ، حزن محمّد عليه حزنا شديدا، وانقطع الوحي عنه. فقيل: «ولم يَنْشَبْ وَرَقَة أن تُوفِّيَ وَفَتَرَ الوحي»[٢٦].

***

واذا رجعنا قليلا الى الوراء، نجد فضيلة الكرم والعناية بالمساكين متأصّلة في أجداد النبيّ. فعبد مناف بن قصيّ كان يسمّى «الفيّاض لكثرة جوده»[٢٧]. وهاشم به عبد مناف لقّب بـ«هاشم» لأنّه أوّل من هَشَم الثريد.. وأطعمه للمساكين. وقد قيل فيه شعرا:

---

(٢٣) سيرة ابن هشام ١/١٧٦، ٢١٩، ابن سعد ١/١٥٣، الطبري ٢/٣٠٠.
(٢٤) السيرة الحلبية ١/١٥٥، السيرة المكية ١/١٢٣.
(٢٥) انظر قس ونبي، فصل «القس يعلن خليفته»، ص ٥٢ – ٦١.
(٢٦) صحيح البخاري بشرح الكرماني، ١/٣٨.
(٢٧) السيرة الحلبية ١/٢١.

عَمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكّة مسنتون عجاف[٢٨].

وكان هاشم «يعمل الطعام للحجاّج، يأكل منه مَن لم يكن له سعة ولا زاد»[٢٩]. وقال فيه بعضهم: «لم تزل مائدته منصوبة، لا تُرفع في السرّاء والضرّاء»[٣٠]. و«كان يُخرجُ مالاً كثيراً، يسقي ويطعم»[٣١] المسافرين والجائعين وزوّار بيت الله الحرام.

وقد عُرف آل عبد مناف جميعهم بالكرم والجود، لكأنّهم من جملة «الإبيونيين» النصارى. وامتدحهم الشعراء، وشدّدوا على سخائهم، فقالوا:

قلْ للذي طلبَ السماحَة والنَدى هلاّ مررتَ بآلِ عبدِ منافِ
الرائِشون وليسَ يوجدُ رائشٌ والقائلون هَلُمَّ للأضيافِ[٣٢].

وقالوا أيضا:

يا أيها الرجل المحوِّلُ رحلَهُ ألا نزلتَ بآلِ عبدِ منافِ
هبلتْك أمّك لو نزلتَ برحلِهم منعوك من عدمٍ ومن اقرافِ
الخالطينَ غنيَّهُم بفقيرِهم حتى يعودَ فيقرُهم كالكافي[٣٣].

أمّا أهل قريش فقد عقدوا «الأحلاف» نصرة للمظلومين المحرومين. فكان «حلف الفضول الرابع» في بيت أبي جدعان، وقد حضره النبي. وممّا اتُّفق عليه في هذا الحلف: «ردّ الفضول الى أهلها»، أي إعطاء ما يفضل للمحتاجين

(٢٨) طبقات ابن سعد ١/٧٦، تاريخ اليعقوبي ١/٢٤٤. عمرو هو اسم هاشم. هشم الثريد: كسر الخبز وفتّه وبلّه بالمرق. مُسنتون عجاف: أصابهم الجدب.
(٢٩) السيرة الحلبية ١/٩.
(٣٠) المرجع نفسه.
(٣١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٤٢ – ٢٤٣.
(٣٢) الحلبية ١/٨ –٩: الرائش أي الذي يطعم ويكسي.
(٣٣) الحلبية ١/٨ –٩: «منعوك من عدمٍ ومن إقرافِ» أي من الفاقة والتعب.

اليه. فـهم أهله. وقيل فيه أنّ قـريشا جعلوا الصَـدقة وإطعام المحتـاج من أمور الدين. وبذلك سمّي أهل قريـش «المجيرين، لكرمهم وفخـرهم وسيادتهم على سائر العرب»[٣٤]. واشتهر منهم نعيم بن عـبد الله بن جدعان الذي كان «ينفق على أرامل بني عدي وأيتـامِهم»[٣٥]، وحكيم بن حزام، ابن عمّ خـديجة، ينفق على المحتاجين[٣٦]، وآخرون كثـر، حتى أصبح إنفاق قريش عـلى المساكين يعدّ عندهم دينا متّبعا وعرفا مقدّسا.

***

في هذا المناخ نشـأ مـحـمّد، وتربّى، وتدرّب. وهـو، كمـا يظهـر، مناخٌ «ابيوني» نصرانيّ. والإبيونيّ هو الباحث عن الفقير ليداويه بالرحمة والعطاء. وبين قـريش الملقّـبين بـ«الحُمْس» أي المتـشـدّدين في دينهم، و «الابيـونيّين» النصـارى الآخـذين اسمـهم من قـول المسـيح «طوبى للفـقـراء»، أي «طوبى للابيونيّين»، بحسب لغتهم العبرية، أشياء كثيرة مشتركة.

فهـل يعقلُ ألاّ تكونَ قـريشٌ على ما كـان عليه القس ورقـة في مذهـبه «الابيـوني»؟ وهل يعقلُ ألاّ يكونَ مـحمّـدٌ على مذهب مـعلّمِه ومـدرّبِه ومكلّلِه ومـرشِده؟ وهل يعـقلُ ألاّ يكونَ مـحمّـد أحدَ «الإبـيونيين» «الحُـمْس» الذين يتشدّدون في اعالة المساكين؟ لا غرابة في الأمر اطلاقا.

---

(٣٤) السيرة الحلبية ١/ ٥٧ .
(٣٥) الاصابة ٣/ ٥٢٧ ، ررقم ٨٧٧٨.
(٣٦) نسب قريش ١/ ٣٦٧ رقم ٦٤٤.

ثالثاً - نقمَة في عمْق النّبيّ

في مكّة تناقض في كل شيء: تـناقض بين طبقـتي المجتـمع؛ وتناقض بين جدب الطبيـعة وثروة الموقع التجاري؛ وتناقض بين قسـمَي قريش: أغنياء البطاح وفقراء الظواهر؛ وتناقض في بيت عبد المطّلب: بين أولاده؛ وتناقض بين الجشع والجوع؛ وتناقض بين الكرم والبخل؛ وتناقض بين المصرِف وجهَه عن اليتـامى والأيامى، والمهتّم بكل عائل مـسكين... وتناقض في حياة محـمّد: بين طفولة تعيـسة محرومة ورجولة أثْرَتْ بـالرزق والمال، وتناقض بين مبغض له حتى الموت ومحبّ له حتى التضحية بالنفس....

هذه التناقضات جميعها لن تمرّ دون أن تـؤثّر في نفسيّة محمّد، وتفعل فيـها في العـمق. وما أدرانا تكون «ردّات الفـعل» عنده، عندمـا يصبح واعـيا، مدركا، مدرّبا، ومعَدًّا لكل الاحتمالات الفعليّة والانفعاليّة! ويجب ألاّ تكون «رَدّة الفعل» المحمّدية تعبيرا مستهجنا لدينا: فكل شـيء في حياة النبيّ كان ردّة فعل بسـبب هذا التناقض العميق في مجـتمـعه وفي حـياته. وكل شيء كـان في تعاليمه «نقمة»، و «تحدّيا»، و «ثورة».

فـ «التناقض»، و «ردّة الفعل» و «النـقمة» و «التحـدّي» و «الثورة» هي من مقوّمات شخـصيّة محمّد، ومن العناصر الجوهريّة لتعاليـمه العتيدة، ومن الدوافع الصاخبة لجهاده المستميت في سبيل حركته الاصلاحيّة.

لقد حـزّ في نفس محمّـد أن يُحرَم وحدَه مـن ولدِ هاشم، فيمـا أقرباؤه يتنعّمون بالخيرات والأرزاق. وعزّ عليه، وهو من قبيلة قريش التجّار، أن يكون

خفيرا مستـخدَما كأحد العبيد والأحباش. لقد تألّم جـدّا من بخل عمّيه الثريين العبـاّس وعبد العـزّى، بقدر ما كـان يتألّم من يتـمه وبؤسه وحـرمانه. وتألّم أيضـا، وهو من آل عبد المطّلب سَدَنَة الكعـبة وأشراف مكّة، أن يكون أجيرا تائها وراء الغنم والجمال، لا ملجأ له ولا سكينة. وتألّم من التفتيش عن لقمة العيش، فرحل بسببها الى الشام، فيما أعمامه وعيالهم يأكلون حتى التخمة، ويشربون في كؤوس من فضة وذهب...

وأكثـر ما كـان ألمه من اهتمـام أبي طالب به، وهو أكثـر أعمـامه فـقراً وعوزاً، وأكثرهم عيالاً، وأقلّهم مالاً. وكم قيل في أبي طالب بانّه كان «مقلاً من المال. فكان عياله، اذا أكلوا جميعاً أو فرادى، لم يشبعوا»[٣٧]. وكمّ مرّة حثّ أبو طالب ابن أخيه ليذهب الى الشام في المتاجـرة، ويخفف عنه أعباء الحياة، حتى قال له يومـا: «يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مال لي. وان كنتُ أكـرهُ أن تأتي الشام، ولكن لا نجدُ من ذلك بدّا»[٣٨]. ولمّا تزوّج مـحمّد من خـديجة «فـرح أبو طالب فرحا شديدا. وقال: «ألحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب، ودفع عنّا الهموم»[٣٩].

وممّا زاد في ألم النبيّ ونقمـتِه شعورُه بالوحدة والعـزلة. وحده يواجه نوائبَ الدهر ومتاعبَ الحـياة. لا أب له ولا أم. لا أخ ولا أخت. لا مال ولا رزق. وأصابتـه الأمراض، وهزّته النوبات العـصبـيّة... ومن كانت هذه حـاله فكيف تكون حياته؟! وكـيف تكون «ردّاتُ فعله»!!. لا بدّ من أن يجد نفسـه أمام أحد أمرين: إمّـا الانتحـار وإمّا الانتـقام. لكنّه لم يُقـدِم على الانتحار، بـل على ما يشبهه، أي على «الاعتكاف في غـار حِراء»، وعلى «الاستجارة بربّه»، والهرب

(٣٧) طبقات ١/ ١١٩، الحلبية ١/ ١٨٩، المكّية ١/ ٩١، سيرة ابن هشام ١/ ١٧١ و ٢٢٩، الكامل لابـن الاثيـر ٢/ ٣٧، تاريخ الطـبـري ٢/ ٢١٣، الروض الانف ١/ ١٢١، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٩، أنساب ١/ ٩٦...

(٣٨) طبقات ١/ ١٢٩، الحلبية ١/ ٢١٦، المكيّة ١/ ١١٨ ...

(٣٩) طبقات ١/ ١٥٦، الحلبية ١/ ٢١٦، المكيّة ١/ ١٢٣...

في شعاب مكّة، وراء قطعان الغنم، والرحيل الى الشام مع القوافل، و«الخلوة» الطويلة التي حبّبه الله بها، على ما قالتْه عائشة[٤٠].

وبعد الاعتكاف والخلوة، سيعود، بدون شكٍّ، الى الانتقام: الانتقام من الفقر والجوع بالغنى وكثرة الارزاق. وكان له ذلك . والانتقام من حاجته العاطفية الى الأب والأم بنساء عديدات. وكان له ذلك. والانتقام من يتمه وحرمانه بالاهتمام البالغ باليتامى والمساكين. وكان له ذلك. ومظاهر نقمته سهلة التحصيل من مجريات حياته وسيرته، لا بدّ من تفصيلها:

فزواجه من خديجة، وهي امرأة لرجلين قبله، وتكبره نيفًا وخمس عشرة سنة، هو من هذا القبيل. لقد كانت له مكان أمّه، فوفّرت له المال والجاه والحنان والكفاية. ولم يكن فقدانُه لأمّه بهيّنٍ عليه، اذ راح يرى في كل امرأة تكبره قليلا، أو يشعر منها بعاطفة، كأنّها أمّه. فها هو ينادي «أمَّ أيمن» مثلا: «**يا أمّاه**. وكان، إذا نظر اليها، قال: «هذه بقيّة أهل بيتي»[٤١]. ويقول عنها: «مَن سرّه أن يتزوّج امرأة من أهل الجنّة، فليتزوّج أمّ أيمن»[٤٢].

وعن فاطمة امرأة عمّه أبي طالب قال عند موتها: «**اليومَ ماتت أمّي**. وكفّنها بقميصه، ونزل على قبرها، واضطجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله! لقد اشتدّ جزعك على فاطمة؟ قال: « **إنّها كانت أمّي**. ان كانت لَتُجيعُ صبيانَها وتُشبعُني، وتُشعّثُهم وتُدهنُني. **وكانت أمّي**»[٤٣].

وربّما كانت كلّ امرأة تهتّم به، وتعطف عليه، عرفها سابقا أم لم

---

(٤٠) صحيح مسلم ١/٧٨، صحيح البخاري ١/٣٩، طبقات ١/١٩٤، ابن هشام ١/٢١٦، الحلبية ١/٢٥٨، نهاية الارب ١٦/١٧٠ ..

(٤١) طبقات ٨/٢٢٣. وفي الحلبية ١/١٧٢ قال لها : «**انت أمّي بعد أمّي**».

(٤٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٤ .

(٤٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٤ .

يعرفهـا، كأنّها أمّه. ففي رواية «اسـتأذنتِ امرأةٌ على النبيّ قد كـانت ترضعه. فلمّا دخلت عليه قال: «**أمّي أمّي**. وعمد الى ردائه فبسطه لهـا فقعدت عليه»[٤٤]. وفي رواية أخرى كـان يقول ذلك لأختـه في الحضانة إسـمها «الشيـماء»، اذ كانت ترقصه وتغنّي له بقولها:[٤٥]

هــــذا أخٌ لم تلـــدْه أمّـــي   وليس من نسلِ أبي وعمّي

فانْمِهِ أللهمّ فيما تَنــمي[٤٦].

وكان كلّ مرّة يمرّ بـ «الأبواء» حيث قـبرُ أمّه، يبكي.. ويبكي المسلمون لبكائه. وفي أواخر حـياته، فيـما هو ذاهب الى فتح مـكّة، مرّ بالأبواء، وجلس قبالـة قبر أمّه، وجلس الناس حـوله، ثم قام وهو يبكي. فاستـقبله عمـر فقال: «بأبي أنت وأمّي يا رسول الله! مـا الذي أبكاك؟ فقال: **هذا قبر أمّي**... ذكرتُها فرقَقْتُ فبكيتُ. فلم يُرَ يوماً كان أكثرَ باكيا من يومئذ»[٤٧].

ولم تقلّ حاجةُ محمّد الى أخ يعضده عن حاجته الى حنان الأم وعطفها. يُروى أنّه جاء يوما بيتَ عليّ بن أبي طالب وامرأتِه فاطمـة «فاستفتح فخرجتْ اليه أمّ أيَمن فـقال: أثمّ أخي؟ قـالت: وكيف يكونُ أخـوك وقد أنكحتـه ابنتك؟! فقال: فانّه كذلك»[٤٨]. وفي حديث آخر قال: «أثمّ أخي! فقالت أمّ أيمن: بأبي أنت وأمّي يا رسـولَ الله! مَن أخوك؟ قـال: علي بن أبي طالب. قالت: وكـيف يكون أخَاك وقد زوّجتَه ابنتَك؟ قال: هو ذاك يا أمّ أيمن»[٤٩].

وربّما كانت حاجة محمّـد الى الأمّ والأخت أكثر من حاجته الى الزوجة

---

(٤٤) طبقات ابن سعد ١/ ١١٥.

(٤٥) السيرة الحلبية ١/ ١٦٧.

(٤٦) طبقات ابن سعد ١/ ١١٦.

(٤٧) طبقات ابن سعد ١/ ١١٧.

(٤٨) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٣.

(٤٩) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٤.

وكثـرة النساء! فزواجـه من خديجـة بعمر الأربعين، ومن عـائشة بعـمر ستّ سنين، كان من هذا القبيل: تلك عوّضـت عليه بالأمّ. وهذه بالأخت. وكان يهمّه جـدًا أن يكون له من بناته بنون لكي يـكون له معـهم في حـيـاته بعضُ الحبّ والحنان. فلذلك زوّج بناتِه بعـمر مبكّر: فـزوّج ابنتَه الكبرى زينت بعـمر ثلاث عشرة سنة، لكنّها توفّيت بعد ثماني سنين[٥٠]. وزوّج ابنته رقيّة بعمر ثماني سنين، ولم تلد ولدا، وتوفّيت في السنة الأولى للهجرة[٥١]. وزوّج فاطمة بعمر ثماني عـشرة سنة، ومـاتت بعمـر تسعٍ وعشريـن عن أربعة أولاد[٥٢]. وزوّج ابنته أمّ كلثـوم بعمر ثمـاني سنين، ثمّ توفّيت في التاسـعة بعد الهـجرة[٥٣]... ومات له ولدان ذكران أو ثلاثة، في عمر الطفولة...

***

ماذا يعني كلّ ذلك؟ مـاذا يعني موت أبيه وهو جنين؟ ومـاذا يعني موت أمّه وهو دون الثالـثة؟ وماذا يعني موت أولاده الذكور عن سـنّ مبكّر؟ وموت بناته في ريعان العمر؟ وماذا يعني عـدم انجابه البنين رغم تعدّد النساء عنده؟ وماذا يعني تزويجـه بناته في سنّ الطفولة؟ ومـاذا يعني بكاؤه المستـمرّ على أمّه، وقـد بلغ من العمر باكيـا ستين سنة؟ وماذا يعني زواجـه من امرأة أرملة لرجلين تكبره خمسَ عـشرة سنة؟ وماذا يعني زواجه من ابنة تصغـره خمسا وأربعين سنة؟ وماذا يعني زواجه من أرامل، ومن أرامل فقط؟ ما عدا عائشة؟

ما هي أسباب ذلك؟ وما تكون النتـائج بحسب العلوم الجنسيّة والعلوم النفسيّـة؟ هل بُنْية النبيّ لم تكن سليمة حـتى لم يُنجبْ، وان أنجب كان انجابه

(٥٠) طبقات ابن سعد ٨/ ٣١.
(٥١) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٤.
(٥٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٦.
(٥٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨.

للموت؟ هل أثّرت فيه تلك الأمراض التي أصابتـه في طفولته فظهرت في حياة بنيه؟ هل تكون العلّة في والدَيهِ اللذين ماتا بمرض خبيث أو بداء ساري؟ وهل كل ذلك كـان بسـبب اضـطراب جنسي؟ أم هـو من صـفـات الـنبـوّة ومستلزماتها!!..

ولكنّنا نعلم أمـراً أكيـدا وهو أن النّبيّ سوفَ يزدادُ، بسـبب ذلك، نقـمةً فوق نقـمة، سوفَ يتـفاقم عنده التبـرّمُ في الحيـاة. وربّما زاده ذلك خللاً في الأعصاب ونوبات وصرعـات. وقد استفاضت كتبُ السير في اظهـارها. فعمّا تسفر أوضـاع كهذه؟ والحقـيقة إن لم تكن مفـاسد المجتمع المكّي كـافيةً لأن تعملَ من محـمّد رجلَ ثورة، فإنّ ما في نفسـه وحياته من نقمة سـيحوّله الى رجلِ ثورةٍ، لا محالة. وساعة الحسم ليست ببعيدة:

فمترفو مكّة يكدّسون الأرزاق، ويوسّعون تجارتهم، ويستغلّون مواسم الحج، ويستفيدون من قدسية الكعبة، ويحرّمون أشهراً لمصلحتهم... وهم، مع ذلك، لا يكتـفون. بل راحـوا يظلمون الناس، ويتـلاعبـون بالموازين والمكاييل، ويأكلون أموال اليتامى ظلما، ويتعاطون الربا والربح الفاحش، ويسخّرون كل شيء في سبيل مصلحتهم.... أمّا الفقراء فـقد رآهم محمّد يتضوّرون جوعا، لا يملكون من خيور الدنيـا شيئا، ولا يصحّ لهم حتى الهـواء. ولئن ابتغوا بعض الهناء فيعمـدون الى قتل بناتهم خشية الجوع، والى اكـراه نسائهم على البغاء خوفـا من الفاقـة، والى وأد البنات رهبة الحاجـة، والى قتل الأولاد أو بيـعهم عبيدا ورقيقا أبيض رغبة في لقمة العيش.

لقد رأى محمّد كل هذه التناقضات، وشاهدها بأمه عينه، وشعر بها في حياته الشخصيـة، وانفعل لها في صميمه، وانفرط لها قلبـه، وآلمته أحاسيسه الرهيفـة.. فمـاذا ستكون النتيـجة اذاً؟ نقـمة على نقمـة، وانتقـام لا حدود له، وثورة قد لا تُبـقي شيئاً قـائماً. مظالم الأرض والمجتمع، كلّهـا نفذت به الى أن

يعدّ العدّة لثورةٍ، إنْ خسر فيها، لا يخسر شيئا؛ وان ربح، دانت له الجزيرة، وإنْ دعمها بتعاليم سماويّة خضعت له الدنيا.

وقد يكون التفت محمّد الى أمثاله، والى مَن يُشبُهه ببعضِ حاله، فرأى أن كثيرين مثلَه يتألمون، وكثيرين يتأفّفون، منهم من يستجدي لقمة العيش، ومنهم من يموت جوعا وعوزا. وفي كثيرين ابتدأت النقمة ذاتُها تفعل فعلها في نفوسهم، وتُعدُّهم للسيطرة على ممتلكات المترفين، والسطو على أموالهم وأرزاقهم بالقوّة والعنف....

وبالفعل ، جاء مصلحون قبل محمّد، وقليلا ما توفّقوا. وجاء متنبّئون عديدون ينذرون بالويل والثبور، حاولوا اصلاح الفساد فلم يفلحوا.... أيكون هو منهم فيفشل؟ أم يستعدّ لحملته، وثورتِه استعدادا أكمل؟ الاّ أنّ واحدا من هؤلاء لم يكن بمثل حاله. فهو في قمّة البؤس والحرمان. وهو يعرف الأوضاع بمجملها وتمامها: شعر بها، وعاشها، وعملت فيه عملها. ثمّ أنّه ابن قريش البطاح، وحفيد زعيم مكّة، وربيب القسّ ورقة، وزوج الثريّة خديجة، وصديق أبي بكر الخبير بالأنساب وأحوال مكّة. وهو بالتالي في «مِنعَةٍ من قومه»... فلا بدّ له اذاً من النجاح.

وزاد في امكانيّة نجاحِه تعرُّفه العميقُ على المأجورين، وشعورُه في الصميم بأحوال اليتامى وأبناء السبيل والمساكين. فخالطهم في رحلاته، واطّلع على أحوالهم البائسة عن كثب، وسمع شكواهم المريرة، وسجّل في ذاكرته أحاديثهم، وفكّر في عقله الثاقب بأسباب شقائهم، وعرف لدقة ملاحظاته ما كان يجول في خاطرهم... فازاداد نقمة على نقمة. وقرّر النجدة... ولكن لا بدّ أيضا من اعداد العدّة لهذا القرار الخطير.

رابعاً - القَرَار الخَطير

لقد قرّر محمّد الاصلاح. وكل شيء عنده معدّ له. وهو الآن في وضع يجعله يستطيع القرار، ويكفل لقراره النجاح. والإصلاح يكون على صعيدَين لا محالة: صعيد العلم وصعيد العمل. ولم ينقصه من العلم شيء، فالقسّ ورقة بقربه، ينقل «الانجيل العبراني»، وهو انجيل «الابيونيين» أصحاب عقيدة أعمال البرّ والاحسان والصدقات مع كل صاحب حاجة. ولم ينقصه من القدرة على العمل شيء، فهو حفيد عبد المطلب وزوج خديجة التي يعدل غناها نصف غنى قريش، وهي امرأة نافذة في قومها، قديرة على ما تريد، تتحكّم بالرجال كما تتحكّم بالمال.

بيد أنّ هذا القرار الخطير لم يكن بدون صراع في نفس محمّد. وربما تردّد كثيرا. ولم يتّخذ بسهولة ورضىً. والحقيقة كانت كذلك: فمحمّد ،، ولئن كان فقيرا ويتيما وضالاً، الاّ أنّه أصبح ، في ظلّ خديجة، ميسورا وصاحب ثروة. فهل يقرّر اذاً، بعد الذي أصبح عليه من غنى ، ضربَ الأغنياء ونصرةَ المساكين؟ أم يقرّر نصرةَ الأغنياء وارضاءَ المساكين كيفما كان؟ هل يريد الثورة لأجل الثروة؟ وها هي الثروة تأتيه بدون ثورة! هل كان يريد أن يصبح تاجرا وربّ عمل، بعد أن كان أجيراً؟ فها هو، بأموال خديجة، يصبح من أرباب العمل الكبار! فما العمل اذاً: أينصر الأغنياءَ على الفقراء، وقد أصبح مثلهم! أم ينصر الفقراءَ على الأغنياء، وقد كان منهم؟ انّه صراع حقيقي في نفس النّبيّ.

ولكن، كما يبدو، لم يتأخّر محمّد في اتّخاذ قراره النهائي. فجمع حوله «أذلة » مكّة ووعدهم برفع مستوى الحياة عندهم. فاستجاب معظمهم. ودعم

استجابتـهم بتعاليم «ابيونيّة» كفل بها دعـوته وصوابيّتها. فاستـهوى أتباعَه صدقُ سيرته، وعظمُ تعاليمه، ومحـبّتُه لهم، ونجدتُه ايّاهم، وأمانتُه في العمل، وحسنُ تدبيره. فتحمّسوا له، وتجمّـعوا حوله، وجاهدوا معه، وتبعوه. وبدأت بذلك طريقُهم الى الثورة. فكانت خطوات محمّد الأولى موفّقة وصائبة صوّبت معها سائر خطوات الدعوة.

***

وكان وراء هذا القرار الخطير أشخاصٌ خطيرون ثلاثة: ألقسّ ورقة بن نوفل، وخديجـة بنت خويلد، وأبو طالب بن عـبد المطّلب. ألأوّل منظِّر الحـركة، والثاني ممّولُهـا، والثالث داعمٌ ومسـاند. وَرَقة هيّأ التـعاليم، وخديجـة أعدّت المال، وأبو طالب دعم بنفوذه ومـقامه. ولم تبخل علينـا كتبُ السيرة عـمّا كان عليـه الثلاثة، الى درجـة أنّهم عندما توفّـوا حزن محـمّد، وانقطع عنـه العون و«الوحي». ودعيت سنة وفاتهم، بالنسبة الى النبي، بـ«عام الحزن»:

بموت القس ورقة «فَتَرَ الوحي»[٥٤].

وبموت خـديجة «تتـابعت على رسـول الله المصائب، اذ كـانت له وزيرَ صدق على الاسلام، يشـكو اليها»[٥٥]. هي التي «آمنت به، وصـدّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمـره، وكانت أوّلَ مَن آمن بالله وبرسـوله، وصدّق بما جاء منـه. فخفّف الله بـذلك عن نبيّه، لا يـسمع شيـئا ممّا يكرهه من ردٍّ عـليه وتكذيب له، فيـحزنه ذلك، إلاّ فرّج الله عنه بها اذا رجع اليـها. تثبّتـه. وتخفّف عليه. وتُصدِقُه. وتهوّن عليه أمر الناس»[٥٦]

(٥٤) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١/ ٣٨.
(٥٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥.
(٥٦) المرجع نفسه ١/ ٢٢٤.

وبموت أبي طالب «نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب... اذ كان أبو طالب لابن أخيه عضدًا وحرزا في أمره ومنعةً ونصراً على قومه»(٥٧).

***

ثمّ إنّه كان لمحمّد الذكاء الكافي لاستمالة الناس اليه: فهو يعرف مع من يجب أن يبتدئ، ومع أيّة فئة يستطيع أن يعمل ليكفل لثورته وتعاليمه النصر والنجاح. وكان يعرف أيضا بأيّ أسلوب يتكلّم ليؤثّر فيهم، وبأيّة لغة يتحدّث عن قضايا هامّة، وبأي تعبير يواجه معضلةً اجتماعيةً جليلة... فأسلوبه كان في بدايته، وباتّفاق الجميع اسلوباً مفصّلاً، صارماً، يتحدّث عن أمور الجنّة والنار في سبيل الدعوة الى الأخلاق والإصلاح والعناية الفائقة باليتامى والمساكين، أي في معرض المطالبة باصلاح اجتماعي شامل.

وهذا هو معنى ما جاء على لسان عائشة. قالت: «في أوّل القرآن يَذكرُ الجنّة والنار. ولمّا دخلَ الناسُ في الاسلام جاء ذكرُ الحلال والحرام». وبهذا المعنى قال السيوطي: «لم يكن بمكّة حَدٌّ، أي تشريع، ولا نحوه». ونقل عن الجعبري قوله: «كل سورة فيها فريضة أو حدّ فهي مدنيّة»(٥٨). وفي ذلك أيضا قال سيّد قطب، أحد مفسّري القرآن المعاصرين: «واننّا لننظر فلا نجد فيها (السورة المكية) إلاّ القليلَ من تلك الأغراض التي يراها بعضُ الباحثين أكبر مزيا القرآن... لا نجد علوما كونية في هذه السور على وجه الاجمال. وكذلك لا نجد التشريع، ولا نجد النبوءات»(٥٩). وهذا ما حمل جولد تسيهر الى القول: «محمّد لم يبشّر بجديد من الأفكار، كما لم يمدّنا أيضا بجديد في ما يتّصل

---

(٥٧) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥ – ٤٦.

(٥٨) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ١٨.

(٥٩) سيّد قطب، التصوير الفنّي في القرآن، ص ٢١.

بعلاقة الانسان بما هو فوق حسّه وشعوره وباللانهاية»[٦٠].

فتعاليم محمّد الأولى كانت في إصلاح مجتمع فاسد، في محاربة الغنى والأغنياء، في محبّة الفقراء والمساكين، في إبطال الظلم اللاحق باليتامى والأرامل، في وعده للمحسنين بالجنّة، وفي محاربة المادّية في التجارة والافتخار بكثرة المال والأولاد.. كلّ ذلك كان يحدّ من ذكر الله واقامة الصلاة والتأمّل بالحساب والعقاب.... ولم يكن محمّد، في بدايته، يعي بأنّه نبيّ. بل كان يعي تماما بأنّه جاء ليصلح مجتمعا فاسدا في كل شيء. وبصلاح المجتمع تصلح العبادة والصلاة ويرسخ الايمان، ويقوم الصراط المستقيم.... ولكن، كانت له الجرأة بفرضه تعاليم اجتماعيّة وكأنّها دين منزل، وتكلّم بحماس كأنّ كلماته وحي نبويّ.

ولذلك كان معظم الذين اتّبعوه في البداية من الفقراء والأذلّة. أمّا الأغنياء الأعزّة فاحتقروا كلامه، وأعرضوا عن تعاليمه، وعيّروه بأصحابه الذين استجابوا له، بأنّهم «أذلّة»و «أراذل». فقالوا له، كما قيل لنوح من قبل: «أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» (٢٦/ ١١١)؟ أو قولهم: «وما نراك اتّبعك الاّ الذين هم أراذلنا» (١١/ ٢٧)... واعترف محمّد يوما بأنّ الذين اتّبعوه هم بالفعل كذلك، فقالها مرّة لأصحابه بعدَ معركة بَدْر: «لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة» (٣/ ١٢٣). ولذلك سخر الأعزّة منه ومن تابعيه، وقد أشار هو نفسه الى ذلك بقوله: «زُيِّنَ للذين كفروا الحياةَ الدنيا، ويَسخُرون من الذين آمنوا» (٢/ ٢١٢). وأيضا كذّبوه واستهزأوا به، فقال أيضا: «وما يأتيهم من رسول الاّ كانوا به يستهزئون» (١٥/ ١١). وغير ذلك اشارات قرآنية عديدة[٦١].

---

(٦٠) جولد تسيهر، العقيدة، والشريعة في الاسلام، ص ١١.

(٦١) القرآن: ٢/ ١٤، ٤/ ١٤٠، ٦/ ١٠، ١٣/ ٣٢، ٢١/ ٤١، ٤٣/ ٧، ٣٦/ ٣٠، ٦/ ٢٦....

وسرعان ما شعر هؤلاء الأعزّة بقوة دعوة محمّد، وبالخطر يحدق بهم، وبمقاصد الثوّار في قطع طرق التجارة والرزق عليهم. وأحسّوا أنّ محمّداً سوف يُخرجهم من مكّة، ويؤلّب «المساكين» عليه. فقاوموه، وهمّوا بقتله، أو بإخراجه من مدينتهم. وأشار القرآن الى تهديدهم هذا بقوله: «واذ يمكُر بك الذين كفروا لِيُثْبتوك (يوثقوك ويحبسوك) أو يقتلوك، أو يُخرجوك، ويمكرون.. ويمكر الله، والله خير الماكرين» (٨/ ٣٠)... إلاّ أنّ محمّداً علم بنيّاتهم، فأشار الى صحبه أن يتركوا مكّة. فتركوها أوّلاً وثانياً الى الحبشة، وثالثاً الى الطائف، وأخيراً الى يثرب... وفي يثرب، حيث له أقرباء ومناصرون، رأى أنّ الثورة تستطيع أن تبدأ من هناك. فذهب اليها. واشتعلت الثورة. وانقلب كلّ شيء في تاريخ الجزيرة والشرق[٦٢].

وقبل أن نتوقّف على تعاليم محمّد الإصلاحيّة، وهو موضوع الفصل التالي، نكمّل سيرته مع أعزّة مكّة. وندخل في عنف ثورته عليهم. ونتوقّف على نتائجها بعد أن تأكّد نجاحُها.

---

(٦٢) يبدأ المسلمون تاريخهم بالهجرة من مكّة الى المدينة، وذلك لاهميّة هذا الحدث عند النبي الذي عرف اختيار المكان المناسب لإشعال نيران الثورة.

خامساً – ثورَة حَتى النَصر

في بداية القرن السابع للميلاد، أصبحت الثروة في مكّة بأيد قلّة من الناس. وفشى الفقر في الكثيرين. وأصبح العداء بين طبقتي المجتمع مستحكما. «وبقاء أيّ منهما يعتمد على فناء الآخر... وعلى كل طرف أن يصفّي الطرف الآخر... وعلى الرسول أن يقوم بثورة شاملة مستخدما سلاح العنف الثوري لمواجهة العنف الرجعي... وكانت أخطر المهمّات أمام الرسول هي مهمّة الإعداد للثورة والتخطيط لها، وتنظيمها، ورسم استراتيجيّتها، وتحديد اطارات حركتها»(٦٣)، واختيار قاعدتها، وتعيين مركزها الرئيس، اذ «وجد الرسول أن لا مفرّ من خوض غمار نضال مسلّح»(٦٤).

لقد حاول محمّد ايجاد هذه القاعدة في مكّة. ولكنّ القوى المعادية كانت أعظم من أن يكون له ذلك. فاضطهدته مكّة، فهاجر أصحابه الى الحبشة. ولكنّه لم ييأس، ثم أكمل نضاله. وأكملت مكّة أيضا اضطهادها له. فهاجر ثانية الى الحبشة. ولم ييأس... ثم عاد وضاعف نشاطه، ورأى أن يترك مكّة الى الطائف لأنّ في الطائف محرومين كثيرين، قد يمدّون له يد المساعدة. ولكنّ الطائف خذلته. وباء سعيه فيها بالفشل. و«اكتشف انّها لا يمكن أن تصلح قاعدة ثوريّة، نظرا للعلاقات الوثيقة التي تربط بين تجّارها وتجّار مكّة. كما أنّها من الناحية الجغرافية لا تبعد عن مكّة –مركز القوى المعادية– الاّ بحوالي

(٦٣) حسنين كرّوم، نظرية الثورة والتنظيم في كتاب محمّد. نظرة عصرية جديدة، ص ١٧١ و ١٧٢.

(٦٤) حسنين كرّوم، المرجع نفسه، ص ١٧٥.

٤٠ ميلا الى الشرق. وهذه المسافة القصيرة تجعلها غير مأمونة، اذ يمكن لقريش مهاجمتها باستمرار، وتجريد الحملات عليها بكثرة، نظرا لقربها»[٦٥].

ورجع الرسول الى مكّة، واعتكف في بيته، يبحث عن مركز آخر. فكانت يثرب. وكان ذلك لأسباب عدّة. منها : إن يثرب بلدة غنيّة، وتتيح امكانيّات كبيرة من الناحية المادّية. كما أنّها تبعد عن مكّة بحوالي ٢٥٠ ميلا، أي أنّها ستكون في مأمن من الهجمات المتتالية والمفاجئة من مكّة... ثمّ انّ يثرب تسيطر على طرق تجارة مكّة مع الشام من جهة الشمال، وهذا يعطي فرصة لتسديد ضربة قاتلة الى مكة التي تعتمد على التجارة وقوافلها. وفي نفس الوقت فانّ موقع يثرب يتيح فرصا واسعة لشنّ الغارات في اتّجاهات متعدّدة، ويتيح فرصا واسعة بالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها[٦٦].

ولمحمّد، في يثرب، معارف وأقرباء، أنصار وأصدقاء. فأمّه «آمنة» من بني النجّار من يثرب. وأخواله لا يزالون هناك. وقد زارهم مرارا، وتعرّف عليهم وعلى مدينتهم. وأمّه توفّيت بـ« الأبواء» بالقرب منها. وكان، كل مرّة يمرّ بيثرب للمتاجرة، يزور قبرها ويبكي. فوُجد عنده ما يشدّه اليها... وفي «العقبة»، اجتمع محمّد مع أنصاره مرّة ومرّتين، وكانوا كثيرين ، وبايعوه، سرّا، وهم من مختلف بطون المدينة[٦٧]. وكذلك أيضا، وممّا ساعد محمّد لاختيار يثرب، وَهَنُ مجتمعها، واختلافاتٌ عميقة فيما بين الأوس والخَزرج، واحتكارُ اليهود لخيرات القبائل، وبغضُ الجميع لهم. واليهود خيراتهم كثيرة وهم جبناء. وقد يقدر محمّد عليهم، ويبدأ ثورته بهم.

(٦٥) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٦٦) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٦٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١ / ٢١٩ – ٢٢٣. سمّيت بيعتهم هذه "بيعة العقبة الأولى" و"بيعة العقبة الثانية". وفيهما تمّ الاتّفاق بين محمّد والأنصار (هؤلاء هم الذين تبعوه من المدينة). وأمسى كلّ شيء معدّاً إعداداً كاملاً.

استقرّ الرأي اذاً على يثرب. فبعث محمّد أصحابه اليها. ووعدهم بالنصر، لأنّهم أصحاب حقّ. والمستضعَفون أمثالهم لا بدّ من أن يرثوا الأرض وما عليها. ألم يقل القرآن: «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمّة ، ونجعلهم الوارثين»؟ (٢٨/ ٥). وأيضا: «وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعَفون مشارقَ الأرض ومغاربَها التي باركْنا فيها» (٧/١٣٧).

ولدفعهم وحماسهم، وَعَدَهم بمغانم كثيرة قد يحصلون عليها. قال: «وعدكم اللهُ مغانمَ كثيرة تأخذونها» (٤٨/ ٢٠). وقال أيضا: «عند الله مغانم كثيرة» (٤/ ٩٤)، «ومغانم كثيرة يأخذونها» (٤٨/ ١٩). ثم وعدهم بتسديد الضربة القاضية على أصحاب المال الذين يأكلون من أمامهم كل شيء، وذلك «كي لا يكون دولة بين الأغنياء» (٥٩/ ٧).

***

ومن يتفحّص كتب السيرة والأخبار يجد أن حروب محمّد ضدّ قريش لم تكن لأجل هدايتهم الى الايمان، بقدر ما كانت ضدّ ثرائهم غير المشروع. لقد كانت ثورته من أجل الحياة، من أجل رفع مستوى العيش عند «أذلّة» مكّة ومحروميها. فغزواته كلّها كانت، في الواقع، لأجل منافع مادّية، ولأجل ضرب المترفين. ولم يكن اعتراضه لقوافل قريش التجاريّة جهاداً في سبيل الله، بقدر ما كان لأجل «العِير» والسطو على أموالها وبضائعها. ولم تكن حربه ضدّ يهود يثرب الاّ لأجل سلبهم أموالهم الباطلة. وقريش نفسها، بما عرف عن تسامحها الديني، كما نرى بعد حين، لم تحارب النبيّ لأجل دعوته الى إله لم يعرفوه، أو دين جديد. والدليل على ما نقول نأخذه من المؤرّخين المسلمين أنفسهم. فها نحن ننقل عنهم ما جاء عندهم:

خرج رسول الله غازيا حتى بلغ مكاناً يُدعَى وَدَّان «يعترض عِيرًا

لقريش»[٦٨]. ثمّ خرج فـي غزوة **بُواط** «يريد عِيـرًا لقريش فيها أمـيّة بن خلف وألفان وخمسمائة بعير»[٦٩]. وبعدها غزا **العَشيرة** «يريد عِيرًا لقريش متوجّهة الى الشام. يقال أن قـريشا جمعت جـميع أموالها في تلك العـير. ويقال أنّ في تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعـير... ولم يبق بمكّة لا قرشيّ ولا قرشيّة له مثقال فصاعداً إلاّ بعث به في تلك العير»[٧٠].

ومرّة أمر الرسـول سعد بن أبي وقّاص يقول له: «أخرج يا سـعد حتى تبلغ **الخرّار**، فإنّ عِيرًا لقـريش ستمرّ به»[٧١]. وغزا الرسول بنفسه «حتى بلغ **الأبواء**، يعترض لعـيرِ قريش»[٧٢]. وفي سريّة **نخلة** دعا الرسول عبد الله بن جحش يقول له: «سر حتى تأتي بطنَ نخلة... فترصّد بها عِيرَ قريش»[٧٣].

ثم خـرج النبيّ وصـحبـه في غـزوة **بدْر الكبرى** طالبـاً عِـيرَ قـريش «ووجدها سبقتـه بأيّام. ولم يزل مترقّبا قفولَها. فلمّا سـمع بقفولها من الشام ندب المسلمين (أي دعاهم) وقـال: «هذه عير قريش، فـيها أموالهم. فـاخرجوا إليها. لعلّ الله أن ينفلكموها (أي يدفعها اليكم). فانتدب الناس (أي استجابوا). ثم جمع الرسول أصـحابه ودعا لهم قائلا: أللهم! إنّهم حفاة فـاحملهم، وعراة فاكسِهم، وجياع فأشْبعْهم. وما منهم رجلٌ إلاّ رجع بجملٍ أو جملَين. واكتسوا، وشبعوا بما أصابوه»[٧٤].

وفي غزوة **بني قينقاع** –وهم أكثـر اليهـود مالاً– سار مـحمّـد اليهم

(٦٨) طبقات ٢/٦، ابن هشام ٢/ ١٧٠، الواقدي ١/ ٢ و ٩ الحلبيّة ٢/ ٣٤٧ .
(٦٩) ابن هشام ٢/ ١٧٦، الواقدي ١/ ٢ و ١٢، الطبري ٢/ ٤٠٧، حلبية ٣٤٨.
(٧٠) ابن هشام ٢/ ١٧٦، الواقدي ١/ ٢، طبقات ٢/ ١٠، الطبري ٢/ ٤٠٨...
(٧١) الواقدي ١/ ١١، طبقات ٢/ ٧ .
(٧٢) الواقدي ١/ ١٢.
(٧٣) طبقات ٢/ ١٠ – ١١، الواقدي ١/ ١٣ – ١٤.
(٧٤) طبقات ٢/ ١١، الواقدي ١/ ١٩، ابن الاثير ٢/ ١١٦، ابن هشام ٢/ ١٨٢...

وحاصـرهم وأخذ أمـوالهم وسلاحهم وجـلاهم عن المدينة»[٧٥]. وفي **قراقر**، سار محمّد الى بني غطفان، ووجد عندهم خمـسمائة بعير، فحازها وخصّ كلاً من أصـحابه ببـعيـرَين[٧٦]. وفي غزوة **بني النضـير**، أمر رسـول الله بقطع النخيل، وبحـرقها، قصـد إنزال الفقر والفـاقة في اليهود. فناداه أصـحابه: يا محمّد! قد كنتَ تنهي عن الفساد، فـما بالُ قَطْع النخل وتحريقها؟ !!! فأنزل الله آية تبرّر فـعله: «ما قطعتم من لِـينَةٍ (نخلة) أو تركتمـوها قائمةً على أصـولها فبإذنِ الله» (٥٩ / ٥). وخرج اليهود من مدينتهم وسكن الخراب بيوتهم[٧٧].

وفي غزوة **دومة الجندل** «هجم الرسول على ماشيـتهم وعلى رعاتهم فأصـاب من أصاب. وهرب من هرب. وأخذ منـهم رجلا وسأله عنهم، فـقال: هربوا حيث سـمعـوا أنّك أخذتَ نِعَمَـهُم (أي إبلَهم)»[٧٨]. وفي غزوة **المصطلق** «استاق الرسول إبلَهم وشياهَهم. فكانت الإبل ألفَي بَـعير والشاء خمسةَ آلاف شاة وغـير ذلك. وقسم المغانم على أصـحابه»[٧٩]. وكذلك في **خَيبرَ** فقد قطع النبيّ نخيلَها، فـوقع المسلمون في قطعِها حتى قطعوا أربعـمائة نخلة، وقطعوا عنها الماء والشرب، ونبشوا الخِرَب في سـبيل الكنوز المدفونة، وظفروا بمغانم باهظة[٨٠]. وقبل الزحف على **مؤتة** صلّى الرسـول لأصحابه قـائلا: «دفع الله عنكم وردّكم غانمين»[٨١].

وفي **حُنَين** أتاه رجل يقول له: «فإذا أنا بهـوازن عن بكرة أبيهم بظَعْنِهم

---

(٧٥) الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣٨، السيرة الحلبية ٢/ ٢١٧ – ٢٢٠ .

(٧٦) طبقات ابن سعد ٢/ ٣١، السيرة الحلبية ٢/ ٤٨٠ .

(٧٧) السيرة الحلبية ٢/ ٢٧٧ – ٢٨٣ .

(٧٨) السيرة الحلبية ٣/ ١٢١ – ١٣١ .

(٧٩) الطبري ١/ ١٢٦٥، طبقات ٢/ ١، ابن الاثير ١/ ٢٣١، عيني ٢/ ٥١٩ .

(٨٠) تاريخ اليعقوبي ٧٠ – ٧١ .

(٨١) المرجع نفسه.

ونِعَمِـهِم وشَبَـابِهم اجتمـعوا الى حُنين». فـتبسّـم محمّـد وقال: «تلك غنيـمة المسلمين غـدًا إنْ شـاء الله». فأجـمع أمـرَالسيـرِ الى هوازن، وخـرج أهلُ مكّة ركباناً ومشاةً حتى النساء يمشِـينَ على غير وَهَن يَرجُون المغانم. وأمر رسـول الله بالسـبي والغنائم أن تُجـمع. فكان السـبيُ سـتةَ آلاف رأس والإبل أربعـة وعشرين ألفا والغنم أكثر من أربعين ألفا وأربعة آلاف أوقيّة فضـة»[٨٢].

وبعد انهزام هوازن في حنين توجّه رسول الله اليهم الى **الطائف**، وأمر، وهو في طريقه اليهم، أن يهدم كل حصن، ويحرق كل بستان، وينبش كل قبر. وأمر بقطع الأعناب والنخيل وتحريقهـا. فقطع المسلمون قطعا ذريعا[٨٣]. ومن **تبّوك** «ظفر المسلمون بالغنائم والسبايا»[٨٤].

***

هذه السـيرة الغـانمة تدعـمهـا أحـاديث نبويّة صـريحـة وأخبـارٌ من الصحابة واضحة. قـال الرسول: «أغزوا تستغنوا»[٨٥]. وقال: لقد «أحلّ (الله) لنا الغنائم»[٨٦]، وقـال: «أُحلّت لأمّـتـي الغنائم»[٨٧]، «وأُحلّت لكم الغنائم»[٨٨]، و«أحلّت لي الغنائم»[٨٩]. وقد شـهد المسلمون أنفسـهم على ما غنموه، فأخبرونا بذلك قائلين: «وغنمنا المتاع والطعـام والثياب»[٩٠]، و «غنمنا البقر والابل»[٩١]،

---

(٨٢) الحلبية ٣ / ١٣١ – ١٤٧.
(٨٣) المرجع نفسه.
(٨٤) المرجع نفسه.
(٨٥) أحمد بن حنبل ٢ / ٣٨٠.
(٨٦) أحمد بن حنبل ٥ / ٢٤٨، ١ / ٣٠ و ٣٣، سنن ابن أبي داود،جهاد، ١٢١،
(٨٧) إبن حنبل ٥ / ٢٥٦، البخاري، خمس ٨، الترمذي، سير ٥.
(٨٨) صحيح البخاري ،باب الخمس ٨.
(٨٩) البخـاري، يتم ١، الدارمي، صلاة ١١١، سيـر ١٢٩، إبن حنبل ١ / ٣٥١،٢ / ٤١٢، ٣ / ٣٠٤، ٤ / ٤١٦، ٥ / ١٤٥، ١٤٨...
(٩٠) صحيح مسلم، باب الايمان ١٨٣ .

و«غنمنا غنائم كثيرة»[٩٢]. ويختصرون لنا جهادهم: «فغزَونا فسَلِمْنا وغَنِمْنا»[٩٣]. وكل مرّة كانوا يحددون لنا موقف الرسول بقولهم: «فقفل رسول الله (ص) وأصحابه منصورين غانمين»[٩٤]. ويعطوننا مفهوما جديدا للشهادة والموت في سبيل الله فينقلون لنا عن لسان النبي قوله: «فان الرجل يقاتل ليغنم. ويقاتل ليغنم»[٩٥]... وغير ذلك من تعاليم وغنائم كان قد قرّرها القرآن وأثبتناها في محلّها.

***

هذه هي سيرة الرسول بأمّها وأبيها: جهاد وثورة في سبيل الثروة. لكأنّها ثروة حتى النصر. فجميع غزواته وسراياه، وقد بلغت التسعين، أي بمعدّل عشر غزوات في السنة، كانت، على ما نقرأ في كتب النبوّة، مغانم بمغانم، وأسرى، وسبايا، وأموال. ثم تدمير لقرى أعدائه، وتقطيع أشجارهم، وتحريق ممتلكاتهم، ونهب عِيرهم، وتفجير بيوتهم، وتهجيرهم... وكلّها حلال في سبيلِ النّصر، نصر الفقراء على الأغنياء.

---

(٩١) صحيح البخاري، باب المغازى ٣٨.

(٩٢) صحيح مسلم، باب المساقاة ٨٠.

(٩٣) ابن حنبل ٥/٢٤٨ – ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨.

(٩٤) صحيح البخاري، باب الأدب،١١٥.

(٩٥) ابن حنبل ١/٤١٦، داود، جهاد ٢٤، نسائي، جهاد ٢١ .

خاتمة الفصل الخامس

بعد الذي رأينا يبقى لدينا سؤال واحد لا غير: لماذا اضطهدتْ قريشٌ محمّداً؟ أبسبب دعوته الى دين جديد؟ أم بسبب دعوته الى إصلاحٍ اجتماعيٍّ شامل؟ يُجمع المسلمون على القول بالدِّين الجديد، دون أن يتحمّسوا كثيرا للسبب الاجتماعي. فقريش، عندهم، كانوا كفّاراً، لا أكثر ولا أقلّ. واتُّخذوا بكلمة أبي جهل على محمّد: «لقد جاء محمّد ليسفّه آلهتنا». واعتبروا أنّ هُجرات النّبيّ الى الحبشة والى يثرب، انّما حصلت بسبب كفر قريش. وظنّوا أنّ دعوة محمّد الى التوحيد، ونبذ الأصنام، وتبشيره بالاسلام الحنيف.. كانت سببا لعذابه وعذاب صحبته.

والحقيقة تُقال: لا النبيّ دعا الى دين جديد، ولا قريش كانوا كافرين، ولا هجراته كانت بسبب الاسلام والقرآن والنبوّة، ولا عذاباته كانت بسبب تعاليمه التوحيدية.... ولا النبيّ كان يلاحقهم بسبب دعوته إلى إلهٍ لا يعرفونه... والأدلّة على ذلك لا تحتمل شكّاً :

لقد عُرف أهل قريش بالتساهل الديني، وببعدِهم عن التعصّب في ما يخصّ الشؤون الدينية: لقد تحالفوا مع بني غسّان المسيحيين[٩٦]، وأنزلوهم في جوار الكعبة، أي في أقدس بقعة من مكّة[٩٧]. وسمحوا لكلّ غريبٍ عنهم بأن يحجّ الى بيت الله، ويتمتّع بحقوقهم، وسمحوا له بالجلوس الى جنب شيوخ

---

(٩٦) أسد الغابة ٥ / ١٥، الازرقي ٤٦٦.

(٩٧) الازرقي ٤٥٨، ٤٦٠.

مكّة[٩٨]، واستقبلوا كلَّ طارئ عليهم، كما حدث لهم مع الموحّدين الهاربين من يثرب، في وقعة أُحُد، عندما هرب أبو عامر الراهب ورفاقُه من النصارى [٩٩]... هذا مع ميلهم الى السلم والهدوء، ومجانبة الحرب والتعصّب.. ومع قبولهم بكلِّ مَن يحجّ الى الكعبة مهما كانت عقيدته الدينية[١٠٠].

أضف الى ذلك أنّ الكعبة لم تكن، حتى عهد النبي، تنتمي الى إلهٍ معيّن معروف. وليس ما يكشف لنا عن شخصيةِ ذاك الإله الذي طالما دعاه القرشيّون بـ «ربّ البيت»، و «ربّ الكعبة»... ثمّ أنّ الجميعَ كانوا يحجّون الى الكعبة، وذلك بسبب انفتاح الكعبة، واتّساع تجارة مكّة، وانتفاع أهلها من تبادل السلع على أنواعها ومن مختلف مصادرها... «ولم تُعَمَّدِ الكعبة بعصبيتها الاسلاميّة، الاّ في العصور العبّاسيّة اللاحقة»[١٠١].

والنصارى أنفسهم لم يكونوا يُحرَمون من إقامة عباداتهم في قلب الكعبة، وبذلك كانوا «في حِلٍّ من الاشراك»... وهذا موقف مؤرّخي السِيَر المسلمين أنفسِهم من «الأحناف»، واعتبارهم موحِّدين، ملازمين الكعبة، متعصّبين للإسلام. ولم يكن موقف النصارى مختلفاً عن موقف الأحناف! «ان كثيرا من النصارى كانوا في تساهلهم العجيب، يوفّقون بين عقائدهم التوحيدية وإكرام الكعبة وغيرها من أماكن العبادة»[١٠٢].

لهذا «لا يمكن أن يُدَلَّ دلالةً واضحة على التعصّب الجنسي والديني بين العرب، الاّ بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني، وعمل أئمّة التحليل والتحريم

(٩٨) الازرقي ٤٦٥، رسائل الجاحظ ٦ حيث لبعض الأجانب حقوق قريش.

(٩٩) سيرة ابن هشام ٥٦١ – ٥٦٢.

(١٠٠) ابن الأثير، النهاية ٤ / ١٩٤.

(١٠١) الذهبي، ميزان الاعتدال ٢ / ١١٢.

(١٠٢) ابن الأثير، النهاية ٤ / ١٩٤.

المثقّفين على طريـقة أرباب التلمود»[١٠٣]... «هذا ولم يكن من إحراجٍ في شأن الدين، فانّ النظام القرشي، والساهرين عل تنفـيذه من أعضاء «الملأ»، كان من أبغض الأمور لديهم التـدخّلُ في معتـقدات الناس أو الضغطُ على آراء الغـير. ذلك انّ العربي، اذا ما تُرِك لطبيـعته، كان أقرب ما يكون الى التسـاهل ، متّخذا شعارَه، قبل زمن القرآن، أن «لا إكراهَ في الدين» (٢/٢٥٧)، متوصّلا الى قمّة التساهل بفضل نزعته الخاصّة، وما فُطر عليه من عدم مبالاة وقلّة تقوى»[١٠٤]. ولم يكن لقريشٍ كـبيرُ فـضلٍ في تساهلهم الديني هذا، فـالرسول نفسُـه أخذ عنهم هذا التسـاهل ، وعبّر بقوله لمخالفيه: «لكم دينكم ولي دينِ» (١٠٩/٦).

فاذا لم تكن مقاومـةُ قريش لمحمّد مقاومةً ديـنيّة، فماذا تكون اذاً؟ الحقُ يقال: إنّ «الداعية الجـديد لم يختصّ بدعوة دينية محضـة. بل كان يرمي، كما يقول مناوئوه، الى أهدافٍ اجتـماعيّة كان من شأنـها قلقلةُ النظام السائد إذّاك، وتفريقُ الجماعة»[١٠٥]. ولم تكن تهمة كهذه ألصقت بأحد قبل ذاك العهد[١٠٦].

والنتيجـة الحتميّة اذاً هي أنّ تكفـيرَ قريش لمحمّد لـم يكن بسبب دعوته الى دين جديد، بقدر ما كان بسبب دعوته الى إصلاح مجتمعٍ فاسد. وإنْ أردنا أن نكون أكـثـر دقّةً في الكلام، نـقول: إنّ الجـوعَ والحـرمان والفـقـر والذّلّ وحالات اليتم والعوز... كانت سبباً كافياً وأسـاسيًا لانتفاضة محمّد. وتعاليمه في القرآن خير دليل.

(١٠٣) لامنس، النصارى في مكة قبل الهجرة ، المشرق ٣٥ ص ٢٧٨ – ٢٧٩.
(١٠٤) لامنس، المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(١٠٥) أبن هشام ٢٢٥، لامنس، هل كان محمّد صادقا؟ (بالفرنسية) ص ١٢٨.
(١٠٦) ابن الاثير ٤/ ١٩٤، لامنس، النصارى في مكة....، ص ٢٧٨.

الفصل السادس

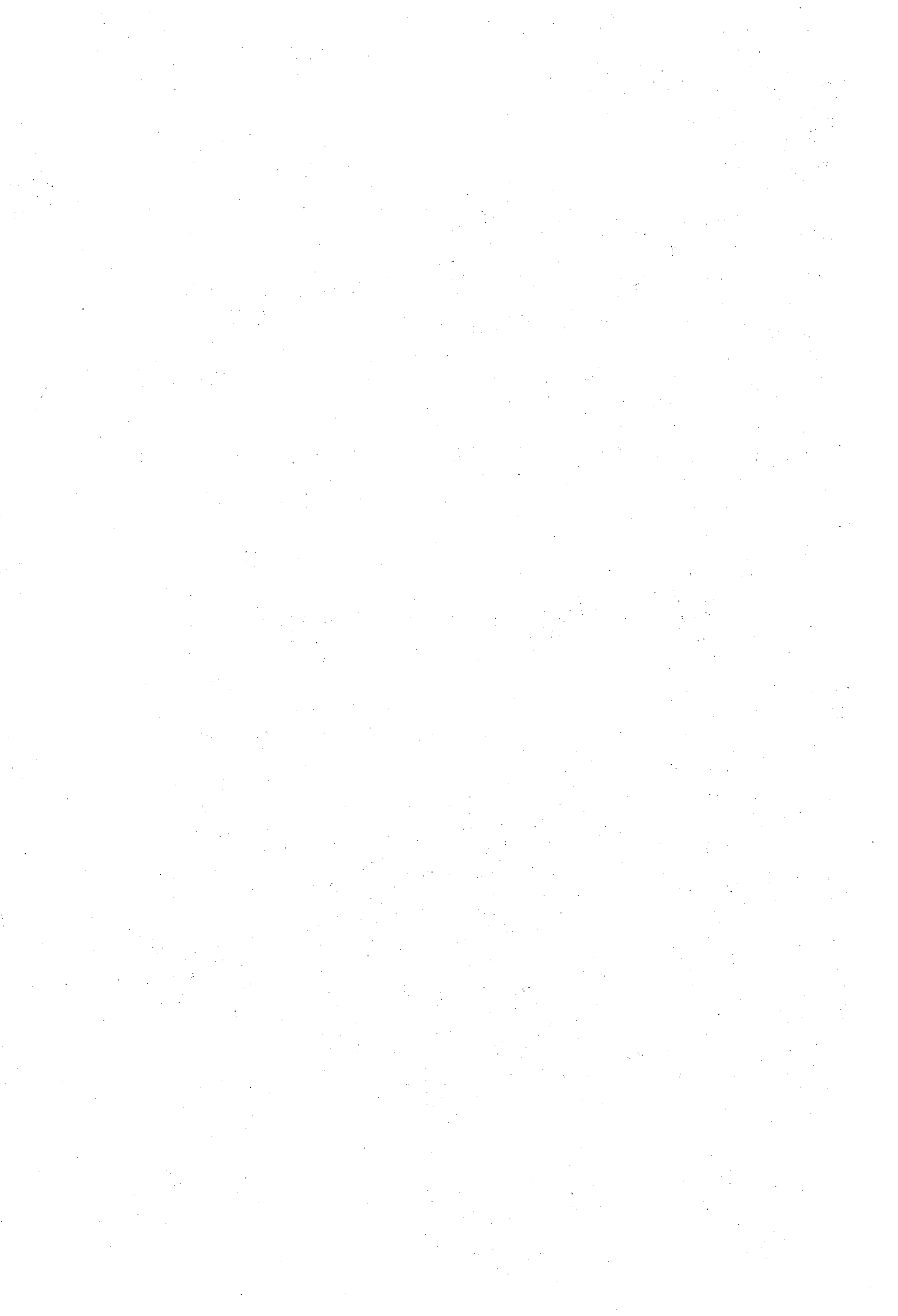
تعاليم محمّد الاجتماعيّة

أولاً ... – ... الصَّدَقة والزَّكاة

ثانياً – ... اليتامَى! اليتامَى!

ثالثاً – ... الجنّةُ جَزاء المُحسنِين

رابعاً – ... السّوَرُ المكّيّة الأولى



مُقَدِّمَة

لقد عظم على محمّد أن يكون منتصراً في غزواته دون أن يكون له تعاليم تدعم انتصارَه العظيم. لهذا قرّر أن تكون له آياتٌ بيّناتٌ في مشروع الإصلاح، وأن تكون له انتصارات في مجالِ تفصيلِ الأحكام، وسنٍّ الشرائع، ووضعِ دستورٍ يمنع فيه ما يمنع، ويحلّل ما يريد تحليله. ولن تذهب تربيتُه التي تلقّاها في بيت جدّه، وفي كفالة عمّه، سُدًى. ولن يفوّت الفرصةَ عليه، وهو في رعاية القسّ ورقة «الإبيوني» من أن يستفيدَ من نقلهِ «الانجيل العبراني» وما فيه من تعاليم في الصدقة والاحسان والعدالة والمساواة. فكان له ما أراد.

في الواقع، إنّنا لا نجد، في القرآن المكّي، أيّةَ عقيدة جديدة لم يعرفها أهلُ قريش. ولا نجد أيّةَ شريعةٍ جديدة، أو تعاليمَ جديدة. و«كذلك لا نجد التشريع، ولا نجد النبوآت»[١]، كما «لم يبشّر بجديد من الأفكار»[٢]. وهذا يعني أنّ العهد المكّي الأوّل، أي عهد ما بين الدعوة والهجرة الأولى الى الحبشة، من سنة ٦١٠ حتى ٦١٥م «كان دعوةً ليوم الدِّين في معرض المطالبة بالاصلاح الاجتماعي»[٣]. فلم يكن هناك اذاً سوَرٌ «عقائدية وتشريعية»[٤]، كما «لم تكن دعوةٌ صريحة الى التوحيد»[٥].

---

(١) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢١.

(٢) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ص ١١.

(٣) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٧٥.

(٤) المرجع نفسه، ٢ / ٣١٧.

(٥) المرجع نفسه ٢ / ٣٧٥.

وفي إجماع الذين بحثوا في «أسباب النزول»، أي أساب نزول الآيات القرآنية وتحديد مكانها وزمانها ومناسباتها، من مسلمين ومستشرقين، قدماء ومعاصرين، إنّ السور المكيّة الأولى هي، بمعظمها، تعاليم اجتماعية اصلاحيّة. تدعو الى العناية الفائقة بالمساكين، والفقراء، والمعوزين، وأبناء السبيل، والمستضعفين، واليتامى، والأرامل، والجياع، وأصحاب الفاقة والحاجة، والأذلّة، والأراذل... وتدعو الى محاربة الأغنياء المترفين، وتوزيع ثرواتهم، ومصادرة أرزاقهم، وتحريم الربا والأرباح الفاحشة، والدّعوة إلى العدل في الموازين، والاعتدال بالربح والمتاجرة. وتدعو أخيراً الى صنع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ... وذلك بأسولب عنيفٍ شديدٍ مقتضب.

ولم تكن تعاليم القرآن المكّي الأولى في الوعد والوعيد، أو الجنّة والنار، أو الحساب والعقاب، أو الايمان بالله.. إلاّ عَرَضًا، وفي معرضِ كلامه على الصدقات وواجب الاحسان. والأمر واضح جدّا، في القرآن كما في الانجيل: مَن يحبسْ أحشاءه عن اغاثة المسكين لن يدخل الجنّة. مَن لا يتصدّق بماله ويعمل الحسنات لن يكونَ في عدادِ الأبرار. مَن لا يصنع الخيرَ لا يدخل ملكوت السماوات. فأغنياء الإنجيل كما أغنياء القرآن، لا يدخلون الجنّة. قال الإنجيل: «إنّ دخولَ الجمل في سمّ الإبرة أيسرُ من دخول الغني ملكوت السماوات» (متى ١٩/ ٢٤). وقال القرآن: «لايدخلون الجنّة حتى يلجَ الجملُ في سمّ الخياط» (٧/ ٤٠).

هذه هي تعاليم انجيلِ الإبيونيين وقرآنِ المكّيين: تعاليمُ واضحةٌ صريحةٌ في الزكاة والصدقة، ومواقفُ محدّدةٌ من الفقر والغنى.

أولاً – الصدقة والزّكاة

ألزّكاة ركن من أركان الاسلام الخمسة. بل «إنّ الزكاة هي الشريعة بكمالها»[٦]. و«تزكّى يعني أسلم»[٧]. والزّكاة قيمةٌ دينية واجتماعيّة. هي كالصلاة التي تطهّر النيّات والقلوب، كذلك الزكاة تطهّر الأيدي والأموال. وقد أشير اليها مع الصلاة، منذ السور المكّية الأولى، حتى «يصحّ أن يقال: انّ تشريع الزكاة، في العهد المكّي، هو الوحيد بين التشريعات غير التعبّدية، اذ انّ جلّ هذه التشريعات انّما كانت في العهد المدني.... فاقتضت حكمةُ التنزيل فرضَ الزكاة فرضًا على أغنياء المسلمين ليؤدّوها بدافع من ايمانهم كالصلاة، ولا تكون بصفة التبرّع التطوعي الذي يكون المرء فيه مختارا»[٨].

وكثيراً ما حثّ القرآنُ على اقامة الزكاة والصلاة معًا، لأنّ لكليهما فعلاً واحداً في التطهير والتزكية. قال : «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»[٩]. ومن فعلها «كان عند ربّه مرضيا» (١٩/ ٥٥)، و«لهم أجرهم عند ربّهم» (٢/ ٢٧٧)، وأجرهم في الآخرة عظيم (٤/ ١٦٢)، اذ يكفّر الله عنهم سيّآتهم (٥/ ١٢)، ويمكّنهم في الأرض هنا (٢٢/ ٤١)، و «بالآخرة يوقنون» (٢٧/ ٣؛ ٣١/ ٤). و«الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون» (٤١/ ٧). وبالنتيجة، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة هم على «دين القيّمة» (٩٨/ ٥). فبالزكاة والصلاة، اذاً، يكون الايمان والاسلام والآخرة الصالحة. وبغيرهما لا يكون لا

(٦) رسائل الحكمة الدرزية ٦/ ٤٩.

(٧) ديمونبين، محمد (فرنسي) ٥١٢.

(٨) دروزة، تاريخ الجنس العربي ٦/ ١٠٣.

(٩) ٢/ ٤٣ و ٨٣ و ١١٠؛ ٢٢/ ٧٨؛ ٢٤/ ٥٦؛ ٣٣/ ٢٠ (٣٢ مرّة). راجع معجم القرآن .

اسلام ولا ايمان ولا حياة خالدة.

وفي الأحاديث النبويّة صورة واضحة أيضا عن علاقة الزّكاة بالصلاة. قال الرسول: «الصلاة نور والزّكاة برهان»[١٠]. وقال: «لا أفرّق بين الصلاة والزكاة»[١١]. وزاد «لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة»[١٢]. بل انّ دعوته الى الزكاة هي كدعوته الى الصلاة، ودعوته الى الصلاة كدعوته الى الزكاة. ومن آمن بالرسول وطلب من الله الصلاة عليه، كأنّه تزكّى وتطهّر. قال: «صلّوا عليّ فانّها زكاة لكم»[١٣].

وبوسعنا القول: إنّ رسالة محمّد ابتدأت بأفعال الرحمة والصدقة والزكاة وفعل الحسنات... وهي كلمات تحتلّ قلب القرآن، وتملأ صفحاته. وكما «التوبة» تطهّر من الخطايا وتؤهلّ للملكوت، كذلك «الصدقة» تطهّر، و«تزكّي». جاء في القرآن: انّ الله لا يقبل توبة من لا يتصدّقون بأموالهم. قال: «ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» (٩/ ١٠٤). وبمجرّد سماع آيات القرآن يتطهّرُ المؤمنُ ويتزكّى. أي انّ الزكاة تطهّر كسماع آيات الله البيّنات. جاء في القرآن: «كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم» (٢/ ١٥١). أو أيضا: «يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة» (٣/ ١٦٤)[١٤].

والصدقة تعادل الصلاة والآيات. والثلاثة معا يؤدّون فعل الزكاة.

---

(١٠) سنن النسائي، باب الزكاة١، سنن ابن ماجة، باب الطهارة ٥.

(١١) مسند أحمد ابن حنبل ١/ ١١ و ١٩ و ٣٦ و ٤٨.

(١٢) صحيح البخاري، باب الاعتصام ٢ و٢٨، باب الزكاة ١، باب المرتدين ٣، صحيح مسلم، باب الايمان ٣٢، سنن ابن أبي داود، باب الزكاة١، سنن الترمذي، باب الايمان١، سنن النسائي، باب الزكاة٣، باب التحريم ١، باب الجهاد١.

(١٣) مسند ابن حنبل ٢/ ٣٦٥.

(١٤) أنظر أيضاً: ٦٢/٢؛ ٢/ ١٢٩...

والصدقة بالمال هي أيضا تزكّي وتطهّر. جاء في القرآن: «خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها»)٩/١٠٣). وجاء أيضا: «الذي يؤتي ماله يتزكّى» (٩٢/١٨)... ومَن يتزكّى تُفتَحُ له أبوابُ الجنّة كلُّها.

ثمّ إنّ الصدَقة التي يقدّمها المسلم للفقير والمحتاج تعادلُ النّجوى التي يقوم بها للرّسول . جاء في القرآن: «اذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقةً. ذلك خيرٌ لكم وأطهر... أأشفَقْتم (أي خفتم) أنْ تُقدِّموا بين يدَي نجواكم صدَقاتٍ. فإذا لم تفعلوا (الصدقة) وتاب اللّهُ عليكم ، فأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزّكاة» (٥٨/١٢)، وأيضا: «لا خير في كثير من نجواهم الاّ من أمر بصدقة أو معروف» (٤/١١٤).

ولكنّ شرطاً على المتصدّقين بمالهم، وهو أن لا يمنّ المتصدّق بما يتصدّق به، وأن لا يسيء الى المتصدَّق عليه بالتكدير والتعيير، لأنّ المنّة تهدم الصدقة. قال: «يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى»[١٥]. والمتصدِّق على الفقير كأنّه يُقرض اللهَ. واللهُ يضاعف ما يقرضه إيّاه. قال: «انّ المصدِّقين والمصدِّقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم» (٥٨/١٨). هؤلاء أجرهم عند ربّهم، لانّ «الله يجزي المتصدّقين» (١٢/٨٨) جزاءاً كبيراً.

وفي الحديث النبويّ معادلة أخرى، بالإضافة إلى المعادلة مع الصلاة، معادلة بين الصدقة والصيام، اعتبرها النبيّ «سهاما» روحيا قاطعا، اذا ما

---

(١٥) جاء في سورة البقرة: " مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله كمَثَلِ حَبَّةٍ انبتتْ سبعَ سنابل في كلّ سُنبلة مائةُ حبّة. اللّهُ يضاعف لمن يشاء... الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله، ثمّ لا يُتبعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذىً. لهم أجرُهم عند ربّهم. ولا خوفٌ عليهم ولا يَحزنون. قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدَقَةٍ يتبعُها أذىً... يا أيّها الذين آمنوا! لا تُبطلوا صدَقاتِكم بالمَنِّ والأذى،كالذي يُنفقُ مالَه رئاءَ النّاس... " إقرأ سورة البقرة (٢/٢٦١ حتّى الأخير)

مورست بروح الاسلام والايمان. قال: «وسهامُ الاسلام الصومُ والصلاةُ والصدقة»[١٦].

والحسنة عند الله تساوي ألوفا. اذا ما أعطيت للفقير واليتيم بروح الايمان. قال: «والله يضاعف الحسنة ألفي حسنة»[١٧]. و«كل حسنة تضاعف عشرا الى سبعمائة ضعف»[١٨]. وكيفما كانت الحسنة، وبأيّة قيمة كانت فهي عظيمة. وهو الفعل الوحيد في الدين لا يُحْسَبُ بِحَسَبِ كمّيته. وقد جاء على لسان النبي: «أفضل الصدقة الصدقة»[١٩]؛ أي هي مقياس ذاتها. وآخر دعوة الرسول يقول فيها لأمّته: «صلّوا وتصدّقوا يا أمّة محمّد»[٢٠]. هذا بالاضافة الى أنّ الصدقةَ تنجّي من الهلاك والنار. قال: «من استطاع منكم أن يتّقي النار فليتصدّق»[٢١].

---

(١٦) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ١٦٠.

(١٧) مسند ابن حنبل ٢/ ٢٩٦.

(١٨) مسند ابن حنبل ٢/ ٢٦٦، ٣ ٤٤٣، ٤٤٧، ٤/ ٣٤٦، ٢/ ٢٩٦.

(١٩) صحيح البخاري، باب النفقات٢، صحيح مسلم، باب الزكاة ١٥، سنن ابن أبي داود، باب الزكاة ٣٩، سنن النسائي، باب الزكاة ٦ و ٥٣، سنن ابن ماجة، مقدمة ٢٠، باب الادب٣، مسند ابن حنبل ٢/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٧٨، ٣/ ٣٧٠، ٤٠٦، ٤٣٤، ٥/ ٤١٦.

(٢٠) مسند ابن حنبل ٦/ ١٦٤.

(٢١) مسند ابن حنبل ٤/ ٢٥٦.

ثانياً - اليَتَامَى! اليَتَامَى!!

ألقرآنُ يذكّر محمّدا : «ألم يجدْكَ يتيـمًا فآوى» (٩٣/٦). ومحمّدٌ يتذكّر ويدعو صحبَـه ويذكّرهم: «أرحموا اليتامى.. فانّي كنت في الصغـر يتيماً»[٢٢]. واللّهُ يدعو مـحمّداً: «أمّا اليتـيم فلا تقهر» (٩٣/٩). والبـيتُ الصالحُ هو ذاك الذي يضمّ يتامى يُحْسَنُ إليهم: «خيرُ بيتٍ بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ اليه. وشرُّ بيتٍ بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء اليه»[٢٣]. ويومُ الحساب رهيبٌ على الذي لا يُنصفُ اليتيم: «أرأيت الذي يكذّب بـالدِّين؟ فـذلك الذي يَدُعُّ اليـتـيم» (١٠٧/ ١-٢). والّذين يستحـقون الجنّة هم أولئك الذين يهتمّـون باليتامى: «فمن ضمّ يتـيما من بين أبوين مسلمَين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وُجبتْ له الجنّة»[٢٤].

يُخشى أن تكون «هذه الأمّـة أكثر الأمم مملـوكين ويتامى»[٢٥]، على ما جاء في كتب الأحاديث. ولكنّها بالفعل هي كذلك. فالحروب قضتْ على الرّجال واستـبقتِ النساءَ أراملَ والأولاَدَ يتامى. والـغزوات المستمـرّة الدائبة، والظلم الحاصل في المجـتمع، والأوبئـة السارية، والجـهدُ المميت في تحـصيل لقـمة العيش... حتّمتْ بأن يكون في أمّةِ الاسلام يتامى لا عدَّ لهم...

ومن الطبيـعي، في كلّ عمليّةِ إصـلاح، أن يكون لهؤلاء اليتامى اهتـمامٌ خاصٌ بهم من قِبَلِ المصلح الذي يريد البـدء بأي مشروعٍ إصلاحيّ. همٌ هؤلاء

---

(٢٢) السيرة الحلبية ١/ ٨٢.

(٢٣) سنن ابن ماجه، باب الأدب ٦ ، ٣٥.

(٢٤) مسند ابن حنبل ٤/ ٣٤٤.

(٢٥) سنن ابن ماجه، باب الأدب ١٠، مسند ابن حنبل ١/ ١٢.

اليتـامى يستـحثُّ مشاعـرَ كلِ مصلح. والاهتـمامُ بهم يقـوّمُ خطوات الدعوة. فليس كالأطفـالِ الأبرياء العزّل، الذين ظلمهم المجـتمع، ما يحـرّك نخوةَ الناس واندفاعَـهم. وليس كهـؤلاء ما يستـحثُّ المصلحَ للاقدام بدون تـردّد. ألطفولة البريئة المحرومة هي جَـنَّةُ الله على الأرض. «كأس ماء بارد» لطفلٍ يَفتحُ أبواب السماء. لمثل هؤلاء الأطفال ملكوتُ الله. ولأجلِ براءتهم يُنعَمُ على أهل الأرض. ألطفلُ اليتيم ذخيرةٌ لمدينته. والحاني عليه يمتلك كنزا ثميناً.

هذه الطفـولة التي شاحَ نظر القـرآن عنها، ليس لهـا فيـه ذكر[٢٦]، ولا الأحاديث الـنبويّة الكثـيرة تخـصّها بكـلمة[٢٧]. ومسلـمو اليوم، كـدروز هذا العصر، قـرآنيّون، يوصون بـ «قتل أطفـال المشركين»[٢٨]، ويعلنون على الملأ: «علّموا أولادكم الحـقد»[٢٩]... غـير ذلك كـان «مصلح قـريش»، بل عكس ذلك بالتمام. كل شيء، عنده، كان من أجل طفل يتيم محروم بائس. فهو نفسُه كان كذلك. بل أكـثر من ذلك. كان يـتيم الأب والأم. فَقَـدَ حنانَ الأخ والأخت. عاش طفولةً معذّبة. وعُرف، في حياته، بـ «يتيم عبد المطلب».

والذي نستخرجه من آداب القرآن المحمّـدي – وهو غير قرآن عثمان بن عفّان الذي ظلم الطفولة – هو العناية الفائقة باليتامى، والاهتمام بهم يفوق كل حدّ. الآيات «المحمّدية» كثـيرة، وتعاليمها صريحة، وأسلـوبها واضح، ووقْعُها عنيف، لا تحتاج الى تفسير أو تأويل. وهي تتـوزّع على مختلف عهود القرآن، وتَذكـرُ اليتـيم واليـتامـى في كل مناسبـة: في مـعرض الكـلام على الفقـراء والمساكين والمستضعَـفين، كما في معرض الكلام على الجنّة ومستـحقّيها؛ في

---

(٢٦) يتكلّم القرآن عن أطفال يرون عورات النساء أو لا يرون (٢٤/ ٣١، ٥٩)، أو عن طفولة هي كمرحلة من مراحل النشوء الانساني ٢٢/ ٥، ٤٠/ ٦٧).

(٢٧) جلّ ما تتكلم الأحاديث عن الصلاة على الأطفال الذين يموتون باكرا .

(٢٨) أنظر مسند ابن حنبل ١/ ٢٩٤.

(٢٩) في خطاب للوزير الدرزي وليد جنبلاط في كفرمتّى بتاريخ ٩/ ٩/ ١٩٨٤.

الكلامِ على الإرث والزواج والجهاد، كما في الكلامِ على كلِّ قيمة روحيّة... كم وكم حضّ القرآن على القسط مع اليتامى، ومعاملتهم بالحسنى، والانفاق عليهم، واطعامهم، والحفاظ على أموالهم....وبلاغة الآيات خيرُ دليل:

جاء في سورتَي **الإسراء والأنعام**: «لا تقربوا مالَ اليتيم الاّ بالتي هي أحسن»[٣٠]. هاتان السورتان تتكلّمان على اليتيم ضمن الوصايا القرآنيّة العشر. وبذلك يولي القرآن العنايةَ باليتامى طابَعًا الهيًا وناموسًا قُدسيًا[٣١].

وفي **سورة الفجر** المكّية عَرضٌ لحالِ الكافرين الذين «لا يُكرِمون اليتيم. ولا يَحضّون على طعامِ المسكين» (٨٩/١٧-١٨)، ويتوعّدهم بنارٍ لا تطفأ.

وفي **سورة البلد** المكيّة صورةٌ عن الإنسان المؤمنِ الذي يريدُ بلوغَ الجنّة والسعادة. هذا الانسان، عليه، لكي يستحق الجنّة، أن يعملَ على «فكِّ رقبة، أو إطعامٍ في يوم ذي مَسْغَبَة (أي جوع)، يتيمًا ذا مقربة (أي قرابة)، أو مسكينًا ذا متربة (لاصق لفقره بالتراب)» (٩٠/١٣-١٦).

ويكمّل القرآنُ المدني، صورةَ الاهتمام باليتامى. ويَذْكُرُهم، تارة مع الوالِدين وذوي القربى[٣٢]، وطوراً مع المساكين والمستضعَفين الذين يحتاجون الى العطف والحنان والكفاية[٣٣]. ويشدّد على حفظ أموالهم، لأنّ «الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلما انّما يأكلون في بطونهم نارا» (٤/١٠). وينصح بقوله: «وآتوا اليتامى أموالهم. ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيّب» (٤/٢). ويطلب العدلَ معهم والإقامةَ بالقسط (٤/٣و١٢٧)، ويحثّ على قسمَة أرزاقهم بدقة

---

(٣٠) ١٧/٣٤، ٦/١٥٢.

(٣١) انظر هذه الآيات التي تذكّر بوصايا موسى...

(٣٢) أنظر: ٢/٨٣ و ١٧٧ و ٢١٥، ٤/٨، ٣٦، ٨/٤١، ٥٩/٧...

(٣٣) المراجع السابقة بالاضافة إلى ٤/١٢٧.

وعناية (٤/٨)، وعلى إشراكِهم بالمغانم[٣٤]. ولهم، في كل حال، مع الله والرسول والوالدين، شركة في الخِمْس.

***

وجدير بنا أن نَقِفَ قليلاً عند سورة النساء التي تعير اليتامى اهتماما بالغا، والتي فيها الأمر بزواجٍ من أربع نساء. وهو زواج فَهِمَه المسلمون على أنّه سماحٌ الهي «لأجلِ الشهوة»؛ فيما هو، في الحقيقة، «زواج لأجل الرحمة». و«العدلُ بين النساء»، الذي يتكلّم عليه القرآن، هو، في الحقيقة «عدلٌ في اليتامى». وأولَى بهذه السورة أن تكون عدّةَ سور، لتنوّع موضوعاتها، واختلاف أسلوبها. وأولَى بالقسم الأوّل منها (آية ٢ – ٣٨) أن يسمّى «سورة اليتامى»، لا سورة النساء، كما هو عليه التقليد، على أنّ أقساما أخرى فيها تعود الى القسم الأوّل[٣٥].

بعد مقدّمة مستقلة (آية ١) تبدأ السورة بالتوجّه الى الناس في معاملتهم اليتامى. وفي معرض الكلام على القسْط في اليتامى والعدل فيما بينهم، تدخل الإشارةُ الى نكاح النساء مثنىَ وثلاثَ ورباعَ (آية٣)، فيقول: " وإنْ خِفْتُمْ ألاّ تُقْسِطُوا في اليتَامَى فانْكِحوا ما طابَ لكمْ من النّساءِ مثنىَ وثلاثَ ورباع. فإنْ خِفتم ألاّ تعدلوا فواحدة» (آية ٣). يفهم المسلمون: ان خفتم

---

(٣٤) ٨/٤١، ٥٩/٧.

(٣٥) بوسعنا تقسيم سورة النساء (رقم ٤)كما يلي:

مقدمة (آية ١)، وهي آية مستقلة من العهد المكّي.

٢ – ٣٨ : زواج لأجل اليتامى، وكلام على الارث وكيفية هذا الزواج.

٣٩ – ١٢٦ : قضايا عامة متنوعة الموضوعات.

١٢٧ – ١٢٨ : عودة الى الزواج لأجل اليتامى.

١٢٩ – ١٧٥: عودة الى قضايا عامّة.

١٧٦: عودة الى أحكام الارث... إلخ.

ألا تعدلوا بين النساء الأربع، لأجل غيرة أو حسد بينهنّ، فالزواج من واحدة لا غير، هو الأفضل. غير أنّ المعنى الحقيقي، من خلال النّصّ، ومن خلالِ الاطار العام للنصّ، هو: إنْ خفتم ألاّ تعدلوا مع يتامى نساءٍ أربع فخذوا واحدةً قد تستطيعون الاهتمامَ بيتاماها والعدلَ معهم، وتعطونهم من أموالكم بدلَ أن تُعطوا السفهاء. وتُعنَونَ بهم هكذا الى أن يبلغوا سنَّ النكاح، فتساعدونَهم بما لهم عندكم من أموال هي لهم شرعاً، بسبب زواجكم من أمّهاتهم.

قد لا يُبطل هذا المفهوم نظريّة تعدّد الزوجات، ولكن يجبُ ألاّ يكونَ تعدّدٌ إلاّ إذا كانت الزوجاتُ «نساء»، كما في الآية، أي نساء لهنّ أولادٌ يتامى يجبُ إعالتُهم. فهو اذاً زواج لاجلِ الرحمة، لا زواج لأجل الشهوة... واذا أعدنا النظر في آيات تعدّد الزوجات في الاسلام، على ضوء هذا المفهوم ، نستطيع أن نفهم لماذا لم يتزوّجْ محمّدٌ إلاّ من نساء ثيّبات. وزواجه من عائشة التي وحدها كانت بكراً، فيه ألف ألف تعليل وتحليل[٣٦].

وسوى عائشة، لا نجد مبرّراً لزواج النبيّ من نساء أرامل: لا الشهوة كانت وظلّت جامحةً وقد بلغَ الثلاثَ والخمسين، ولا يمكن، بعدما كان يكتفي

(٣٦) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوّجها محمّدٌ بعمر الطفولة؟ ، وهو يكبرها بخمسة وأربعين سنة(؟)، تزوّجها بعد العجوز خديجة(!)، أمّها نصرانيّة (!)، ووالدُها أبو بكر الصدّيق صديق محمّد منذ الطفولة (!)، وسيرتها مع محمّد ومع نسائه مشبوهة(!)، قتلتْ له ولدَه إبراهيمَ الذي أنجبه من ماريّة القبطية (!)، وقع بينها وبين نساء النبي بغضٌ وحسدٌ وضغينة (!)، نقل عثمان مصحفه عن مصحفها (!). اتّهمت في شرفها، فبرأها النبيّ (!)، بسببها قال علي: «المرأة شرّ كلّها» (!)،ووقع بينه وبينها معارك كادت تقضي على الاسلام في مهده (!)... وفوق كلّ هذا نسأل: هل زواج النبيّ منها بعمر البراءة صحيح(؟) هل هو انتقام من عاطفة مكبوتة بسبب زواجه من خديجة التي تحكمت به؟ أم انه زواج سياسي، لاجل مصلحة سياسية (؟)، أو لاجل الانتفاع بمال أبي بكر الصديق أبيها (؟). زواج محمد من عائشة سرٌ من أسرار النبوة، وقد أتعبته في حياتها العاطفية، وباحتكارها جميع لياليه على حساب أخريات....

بخديجة ثماني وعشرين سنة، أن يتحوّل بعد موتها الى رجلٍ شهوانيّ. وبعض المسلمين اكتشفوا ذلك، رغم قلّتهم ، فقال مجيدُ الصّيمري: «ليس من المعقول بعد اجتياز النبي(ص) مرحلةَ الشباب وفترةَ القوّةِ والفتوّة.. أنْ ينقلبَ الى رجلِ شهوةٍ تُغريه النساءُ ، ويُفتنُه الجَمَال، وتلحُّ عليه الشهوةُ، فيستجيبُ لاشباعها...لم يكن الزواجُ في نظر الرسول (ص) صلةَ ذكورةٍ وأنوثة،... فيكون زواجُه ممّن تزوّجهنّ استجابةً لغريزةٍ مكبوتةٍ ورغبةٍ جنسيةٍ عارمة»[٣٧].

واقتصارُ محمّد على خديجة وحدَها، وزواجُه الفلتان بعد موتها، قد يكون لسبب من الأسباب: **إمّا** تلفيقٌ من كَتَبَةِ السّيرة، وبالتالي تزويرٌ في التاريخ؛ **وإمّا** لفرطِ سيطرةِ خديجة عليه، وهي التي لعبت دورا مهمّاً في رفع شأنه، وفي غناه، وفي إعلان نبوّته، مع ابن عمّها القسّ ورقة؛ **وإمّا** لاجحافٍ عاطفي لحقه منها، وهي تكبرُه بخمسَ عشرة سنة، فعوّض عن اجحافه العاطفي المكبوت بزواجٍ كثير، بل بزواجٍ ابنة ستّ سنين؛ **وإمّا** لاجلِ غايةٍ سياسيّة يرتبطُ بواسطة نسائه العديدات بمختلف العشائر والقبائل ، ويتقرّب منها جميعها بالمصاهرة ليستطيعَ أن يكونَ له منعةٌ في كل قبيلة...؛ **وإمّا** بسبب اهتامِه البالغ باليتامى والمساكين، فَعَدَّدَ زوجاتِه ليُعدّدَ معه الغزاة والفاتحين...؛ **وإمّا** أخيرا، تعددُ زوجاتِ النبي اختراعُ المسلمين الفاتحين الذين عَرفوا فتياتِ الرومِ الجميلاتِ ونساءَهم المتحرّرات، فأوجدوا في القرآن والسيرة مبرّراً لهم، فلصقوا بالنبيّ ما سمحوا به لأنفسهم!!!

والمسلمون، اليوم، يقفون عند واحد من سببين: الأوّل يكمن في قوّة النبيّ على الشهوة والنكاح، فأوجدوا له حديثا يقول فيه: «حُبّب اليّ من دنياكم

---

(٣٧) مجيد الصيمري، الزواج في الاسلام، وانحراف المسلمين عنه، الدار الاسلامية، بيروت، سنة ١٩٧٩، ص ٤٥.

ثلاث: الطِيبُ والنساءُ. وجُعلتْ قـرّةُ عيني في الصلاة»[٣٨]. ولكنّ هذا الحديث ينقضه ما جاء في القرآن: «زيّن للناسِ حبُّ الشهوات من النّسـاء والبنين... ذلك متاع الحياة الدنيا» (٣/ ١٤).

والسـبب الثاني هو اتّصـال النبي، بواسطة المصـاهرة، بمعظم قبـائل العـرب، لكي يكونـوا له عـونا نصـرة في دعـوته. ولكنّ نسـاءَ النـبيّ لم تكنّ غريبات عنه، فهنّ من قبيلته ومن قرابته. ولئن شذّت ماريّة القبطيّة فلأنّ سببا ما وراء ذلك. إلاّ أنّ الباقيات من أقربائه: **سَودة** بنت زمعة هـي أرملة أحد أبناء أعمامه الذين تحمّلوا الأذى لأجله؛ و**عائشة** هي بنت أبي بكر الصدّيق،صـديقِه ورفيقِه منذ الصغر؛ و**حفصة** هي بنت عمر بن الخطّاب خليفة أبي بكر؛ و**زينب** بنت خزيمة زوجـة عبـيدة بن الحارث بن عـبد المطلب أحـد أبناء أعمـامه الذي استُشـهد ببدْر؛ و**أم سلَمَة** زوجة أحد المجاهدين في بدْر أيضا، وقد رفضت أوّلا الزواج بسبب أطفالها، ولكنّ النبيّ تكفّلهم فرضيتْ؛ و**أم حبيبة** امرأة ابن عمّته عبدالله بن جحش الذي تنصّر في الحبشة؛ و**زينب** بنت عمّته أميمة التي أخذها من زيد بن حارثة، بعـدما ألغى مانعَ التـبنّي، ليتمكّن منهـا... إلى ما هنالك من نسـاء قريبـات نسـيبـات... فهل يـعقل أن يكونَ زواجُ مـحمّـد منهن لسـببٍ سياسيّ؟

بقي أن يكون السبب الوحيد: «اليـتامى». زواجُ النّبي من نساء عديدات لا مبرّرَ لـه سوى الاهتمام باليـتامى، على ما جاء في سـورة النساء. ولئن لم تكن الشـهوة الجنسيّـة غائبة، الاّ أنّها حالةٌ إنسانيّةطبيـعيّة. لا ينساق الإنسانُ بها.

ولنعد، الآن، بعد هذه الجـولة بين نسـاء النبي، الى تعاليمـه في اليتامى، فهي كثيرة في الأحاديث النبوّة، وشديدة اللهجة، وموجبة في صيغتها. وكثيراً

(٣٨) كنز العرفان للسيّودي ١/ ٢٢٢.

ما تجمع هذه الأحاديث اليتامى مع المساكين والأرامل والفقراء، لأنّم جميعهم في وضع سيّء. والمجاهد في سبيلهم كالمجاهد في سبيل الله. قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[٣٩]. وقال أيضاً: «ما من إمامٍ أو وَالٍ يَغلقُ بابَه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة إلاّ أغلقَ اللهُ أبواب السماء دون خلّته وحاجته ومسكنته»[٤٠]. وفي عقيدة الرسول ان حبّ المساكين أمر إلهيّ، فقال: «أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم»[٤١]، ولذلك «كان رسول الله (ص) يعود المساكين ويسأل عنهم»[٤٢].

هؤلاء المساكين، في رأي النبيّ، يتقدّمون جميعَ الناس في دخولهم الجنّة. قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنّةَ قبل الأنبياء – وفي رواية – قبل الأغنياء»[٤٣].وفي رأيه «انّ فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة»[٤٤]. وقال أيضا: «أوّل مَن يدخل الجنّة من خَلْقِ الله الفقراءُ والمهاجرون»[٤٥]. وأيضا: «فاذا عامّة مَن يدخلُها الفقراء»[٤٦]. وقال أيضاً: «أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز يوم القيامة على الأغنياء بخمسمائة سنة»[٤٧].. بل انّ «أهل الجنّة هم الضعفاء المظلومون»[٤٨]. ولم يكن على الجنّة الاّ أن تعترض على

---

(٣٩) صحيح البخاري،باب النفقات ١، باب الأدب ٢٥، ٧٦، صحيح مسلم، باب الزهد ٤١، الترمذي، برّ ٤٤، النسائي، زكاة ٧٨، ابن ماجة، تجارات، ١، ابن حنبل ٢/ ٣٦١...

(٤٠) الترمذي، أحكام ٦؛ مسند ابن حنبل ٤/ ٢٣١.

(٤١) مسند ابن حنبل ٥/ ١٥٩.

(٤٢) النسائي جنائز ٤٣، الموطّأ، جنازة ١٥.

(٤٣) ابن حنبل ٣/ ٢٢٤.

(٤٤) صحيح مسلم، باب الزهد٣٧، مسند ابن حنبل ٢/ ١٦٩.

(٤٥) مسند ابن حنبل ٤/ ١٦٨، سنن الدارمي، رقاق ١١٨.

(٤٦) مسند ابن حنبل ٥/ ٢٠٩.

(٤٧) الترمذي، زهد ٣٧، سنن ابن أبي داود، علم ١٣، إبن حنبل ٣/ ٩٦، ٢/ ٣٤٣، ٤٥١.

(٤٨) ابن حنبل ٢/ ٢١٤، ٣٦٩، ٥٠٨، ٤/ ١٧٥.

نوعيّة الذين يدخلونها وهم كلّهم فـقراء. «قالت الجنّة: يا ربّ! ما لي لا يدخلني الاّ فقراء الناس؟!»(٤٩).

لكنّ هذا الاعـتراض لم يمنع النـبيّ من أن يؤكّد مـرارا وتكرارا على أنّ أحسن درجات الجنّة هي للمسـاكين. قال: وتقول الجنّة: «لا يدخلني الاّ ضعفاء الناس» (٥٠). أمّا النار فملؤها الأغنياء والنـسـاء. قال: «واطّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»(٥١)....

هذه الأحاديث العـديدة تفسّر ما جـاء به القرآن عن اليتامى، والـفقراء، والأذلّة، والأسرى، والمساكين، وأبناء السبيل... وهي في صلب تعاليمه الالهية والاجتماعيّة، التعبّـدية والاشتراعيّة.... وهذا ما يدلّ، مرّة أخرى، على أنّ نظرة محمّد «الإبيونيّة» كانت في انطلاقـة دعوته، وفي مسـار جهاده. وسـوف يكون لنا أيضا أدلّة أخرى على هذه التربية.

---

(٤٩) صـحـيح البخـاري، تفسيـر سورة ٥٠/ ١، الترمذي، باب الجنّة ٢٢، أحمد بن حنبل ٢/ ٤٥٠، ٥٠٧، ٣/ ١٣، صـحيح مسلم، باب الجنة ٣٤، وابن حنبل ايضا ٣/ ٧٨، ٧٩.

(٥٠) أنظر المراجع السابقة نفسَها...

(٥١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ١٧٣.

ثالثاً - الجنّة جزاءُ المحْسنين

جاءت الجنّة في موضوعات الدعوة المحمّدية الأولى. وقبل أن يدخل النبيّ في تفصيلها ووصفها تكلّم على مستحقّيها والداخلين اليها، فاذا هم المحسنون. فـ «مَن يعملْ من الصالحات، وهو مؤمن، فلا يخاف ظلما ولا هضما» (٢٠/ ١١٢)، و «الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البريّة» (٩٨/ ٧)، والذين «يسارِعون في الخيرات أولئك من الصالحين» (٣/ ١١٤).

لا إيمان اذاً بدون العمل الصالح. كِلا الايمان والعمل الصالح شرط أساسي للفوز بالجنّة. ولا عمل صالح إنْ لم يكنْ أوّلاً وآخراً من أجل المساكين والمحرومين واليتامى. والمحسنون في الدنيا هم في الآخرة الفائزون: «وآتيناه في الدنيا حسنة، وانّه في الآخرة لمن الصالحين» (١٦/ ١٢٢). والمتصدّقون بمالهم هم الصالحون، فيما المنافقون في الآخرة يلتمسون من ربّهم أن يؤخّر أجلهم ليتصدّقوا فيكونوا من الصالحين: « يا أيّها الذين آمنوا! لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكر اللّه. ومَن يفعلْ ذلك فأولئك همُ الخاسرون. وأنْفِقُوا ممّا رزَقْناكم مِن قَبلِ أنْ يأتيَ أحدَكُمُ الموتُ فيقولَ رَبِّ لولا أخَّرْتَني إلى أجَلٍ قريبٍ فَأصدَّقَ وأكُنْ من الصالحين. ولَن يُؤخِّرَ اللّهُ نفساً إذا جاء أجَلُها» (٦٣/ ٩).

فالعمل الصالح يرفع صاحبَه. والذي يعمل السيّئات له في الدنيا والآخرة عذابٌ شديد (٣٥/ ١٠). و «الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم» (٢٢/ ٥٠)، ويملّكهم الله في الأرض (٢٤/ ٥٥)، ويكثّر لهم ذريّتهم (٤٦/ ١٥)، ويكفّر عنهم سيّئاتهم (٢٩/ ٤٧)، ولهم من عند الله

مغفرة[٥٢]، وأجر كبير [٥٣]، أو أجر غير ممنون[٥٤]. والله لا يضيع له أجرا[٥٥]، بل يجزيه عدلاً (١٠/٤)، ويوفيه أجره[٥٦]... هؤلاء «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم، وحسن مآب» (١٣/٢٩).

أمّا كيف تكون الجنّة لاستقبال المحسنين فحدّث عن المشتهيات والملذّات على أنواعها، من حُورٍ عينٍ، هنّ عُرُبٌ أتْرابٌ كواعِب[٥٧]، الى مآكل دائمة لا تنتهي (١٣/٣٥)، وظلال وارفة (١٣/٣٥)، وأنهار عذبة (٦٩ مرّة)، وغُرَف ومنازل (٢٩/٥٨)، وأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (٧٦/١٣)، وقصور عالية (٢٥/١٠)، ونمارق، وزرابيّ (٨٨/١٦)، وفرش (٥٦/٣٤)، وأسرّة مصفوفة وموضونة (٥٢/٢٠)... والذين يستحقون هذه الجنّة هم الذين عملوا في دنياهم الصالحات. فلننقل بعض ما جاء في القرآن من ذلك:

قال: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة» (٢/٨٢)، وقال: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر و أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة»[٥٨]. وقال: «انّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا (أي، سكنوا واطمأنّوا وأنابوا) الى ربّهم أولئك أصحاب الجنّة» (١١/٢٣). وقال: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهم من الجنّة غرفا» (٢٩/٥٨).... ويضاف الى ملذات الجنّة أنهار دفّاقة، يذكرها القرآن في كل مناسبة. يقول: «وبشّر الذين

---

(٥٢) ٣٥/٧؛ ١١/١١؛ ٥/٩...

(٥٣) ٣٥/٧، ١٧/٩، ٥/٩.

(٥٤) ٤١/٨، ٨٤/٢٥، ٩٥/٦.

(٥٥) ١٨/٢، ٣٠، ٢/٢٧٧.

(٥٦) ٤/١٧٣، ٣/٥٧.

(٥٧) أي: جميلات. متعفّفات. لا ينظرن إلاّ لأزواجهنّ. فتياتٌ يقفن على عمر ٣٣ سنة. مكعّبة الصدور. راجع: ٥٦/٣٧؛ ٣٨/٥٢؛ ٧٨/٣٣

(٥٨) ٤/١٢٤، ٤٠/٤٠.

آمنوا وعملوا الصالحات انّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار...»[٥٩].

وربّما يكون من حظّ الذين يعملون الصدقات والحسنات، خروجهم من النار، اذا ما كان نصيبهم العذاب لهفوة صنعوها في حياتهم الدنيا. فأعمال البرّ والاحسان التي عملوها في دنياهم قد تشفع بهم عند الله وتغيّر حكم الله فيهم. تقول الآية: «يُخرج (الله) الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور» (٦٥/ ١١)، لأنّ الله لا يضيّع أجرَ إنسان محسن (٧/ ١٧٠) والقاعدة في الإسلام هي: «من كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملا صالحا» (١٨/ ١١٠).

وإذا كان عدلُ الله أن يجازي كلَّ انسان بحسب أعماله، فإنّ الله، في ما يخصّ الحسنة، يجزي المحسنين أضعافا مضاعفة.. ومرارًا يذكّر القرآن بهذا التصرّف الالهي الرحيم. قال: «إنْ تكُ حسنةٌ يضاعفها» (٤/ ٤٠)، بل «من جاء بالحسنة فله عشر مثلها (١٦/ ١٦٠). وقال: «للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير» (١٦/ ٣٠). و«من جاء بالحسنة فله منها خير منها»[٦٠] و «من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا» (٤٢/ ٢٣).... لأنّ الله «مع المحسنين» (٢٣ مرّة). وما يفعل الإنسان من خير يعلمه الله[٦١].

ويحدّد القرآن أنواع أعمال البرّ، فاذا هي : اطعام المساكين، وتحرير الأسرى (٢/ ١٧٧)، والاحسان الى ذوي القربي واليتامى (٢/ ٨٣)، وأبناء السبيل، والسائلين، كما في هاتَين الآيتَين: «ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: ما أنفقتم من خير فللوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل» (٢/ ٢١٥)؛ ثمّ «الجار الجُنب (أي البعيد)، والصاحب بالجَنب (رفيق الطريق)، وما ملكت أيمانكم(٤/ ٣٦). هاتان الآيتان كانتا، قاعدةَ المسلمين في توزيع المغانم.

---

(٥٩) ٢/ ٢٥، ٤/ ٥٧، ١٤/ ٢٣، ١٨/ ١٠٧، ... ٦٩ مرّة...

(٦٠) ٢٧/ ٨٩؛ ٢٨/ ٨٤.

(٦١) ٢/ ١٩٧ و ٢١٥...

رابعاً – السّوَرُ المكّيّة الأولى

لسنا نعلم اذا كان محمّد يعي دوره النبويّ بالقدر الذي كان يعي دوره الاجتماعي. ولكننا نعلم، علم اليقين، بأنّ محمّدا لم يكن، قبل الأربعين من عمره، نبيّا، مع أنّ أهل السير علموا ذلك، وجعلوه نبيّا منذ بدء الخليقة. ونعلم أيضا، وبالتأكيد، أن القرآن المكّي لم يطلق على محمّد لقبَ نبيّ. ونعلم أخيرا أنّ الله، إذا ما أراد أمراً، يستطيعه، إنّما انطلاقاً من ظروف المجتمع ومناسباته الطبيعيّة المألوفة، دون تكليف نفسه بارسال الرسل والأنبياء. وليس عليه، كلّ مرّة، يريدُ التدخّلَ في شيء، أن يخضخض الملائكة، ويشقّق حجبَ السماء، وينزّل على البشر كتباً وآيات بيّنات... إنّ معطيات التاريخ، في علوم اللاّهوت، أولى من معطيات الغيب لنفهم مشيئةَ الله ....

أربعين سنة، قبل الدعوة، عاشها محمّد ينظر ويشاهد، يسمع ويتسمّع، يشعر ويتحسّس، ينفعل ويتفاعل. عاشها محروما من كل شيء. ولم يكن أحد يشبهه بشدّة حرمانه. هذا أمر أسهبنا في الكلام عليه. وينقصنا، الآن، أن نتعرّف على أولى تعاليم محمّد، لنرى اذا كانت وحيا من السماء، أو هي من وحي مجتمع فاسد عاش النبيّ فيه وتأثّر به وانفعل بمفاسده... واذا تتبّعنا السور القرآنية بحسب نزولها الزمني، لا بدّ من أن تنكشف لنا بعض أسرار المهمّة المحمّدية.

ونرجو ألاّ تقل قيمة التدخّل الالهي عند الذين يؤمنون به، اذا ما قلنا إنّ للوحي السماوي مصدراً بشريّا، ودوافعَ اجتماعيّة، وعواملَ تاريخية، وظروفاً إنسانيّة، وأوضاعاً شخصيّة... دفعت محمّداً الى مباشرة مشروعه

الإصلاحيّ. وإذا كان من وحيٍ سماويّ في مشروع الإصلاح هذا، فربما يكونُ لاحقاً لهذه الدوافع، لا سابقاً عليها. وقد تكونُ هي السببُ لا النتيجة. وقد شاءه محمّد ليعطيَ رسالتَه بعداً سماوياً، ودعوةً إلهيّةً، لينفذ بها الى قلوب سامعيه، ويوسّع دائرتَها حتى إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيّة.

على هذا نستعرض السّورا القرآنية بحسب حدوثها التاريخي، معتمدين على ما أجمع عليه المسلمون والمستشرقون في أبحاثهم عن «أسباب النزول» وعن «تاريخ القرآن»... فنرى ما هي أولى موضوعات الدّعوة المحمّدية، وبالتالي مدى وعي محمّد لدوره النبويّ.

فسورة العلق (رقم ٩٦ في مصحف عثمان) وهي السورة الأولى الّتي كانت في حقّ أبي جهل، صاحب المال الكثير، بشهادة ابن المنذر عن أبي هُريرة وابن جرير والترمذي عن ابن عبّاس. موضوعها: ان الرسول أوعد أبا جهل، وندّد به، ووصف حاله، بأنْ «طغى» (آية ٦) عليه ماله، وكثُّرَ «غناه» (آية ٧)، ونسي، لكثرة ماله وأرزاقه، أنّ الى الله «الرجعى» (آية ٨) وحسن «المآب». فراح أبو جهل «ينهي» النبيّ عن صلاته ودعوته (٩-١٠)، ويهزأ به... في هذه السورة يطعن محمّد بالغنى والأغنياء من خلال طعنه بأبي جهل، ويندّد بالذي يتّكل على ماله وثروته. هذا قد ضلّ السبيل، ومنع الهدى عن الناس، ولا يهتمّ بيوم الدين حيث الحساب العسير والنار الموقدة التي «سيجرّ اليها بناصيته».

وسورة المدّثّر (رقم ٧٤) وهي الثانية في التاريخ، كانت في حقّ الوليد ابن المغيرة صاحب «المال الممدود» (آية ١٢)، والطامع منه بالمزيد (آية ١٥). وقد عاند الرسول في رسالته (٢٣)، واتّهمه بالسحر، وبأنّه يسعى لأغراضٍ شخصية، فتوعّده النبيّ بالعذاب والارهاق صعوداً ونزولاً (١٧). وقد يتساءل المعذّبون في النار، أمثال الوليد، عن الذي أوصلهم الى الجحيم. فيجيبون

أنفسَهم بأنفسِهم: «لم نكُ من المصلّين. ولم نَكُ نُطعمُ المسكين. وكنّا نخوضُ مع الخائضين (في الباطل وجمع الثروة). وكنّا نكذّب بيوم الدين» (٣٩ - ٤٠). هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الأنبياء (٤٨)، ولا يؤمنون بالكتب المنزلة (٥٢)، لأنّ القرآن الذي يقرأه محمّد عليهم ليس هو الا «تذكرة» (٥٤ - ٥٦) للانجيل الذي يورد منه هذه المعاني. وهو «الانجيل العبراني» الذي يحذو حذو انجيل متى (٢٥/ ٣٥-٤٦)، حيث يتوجّه المسيحُ، يومَ الدِّين، إلى المخلَّصين، بسبب أنّهم أطعموا الجياع، وأسقوا العطاشَ، وآووا الغرباء، وكسوا العريان، وعادوا المرضى، وزاروا السّجين... هؤلاء هم أبناء الملكوت.

وسورة اللهب (رقم ١١١) هي الثالثة في التاريخ، كانت في حقّ عمّ النبيّ، عبد العزّى، الملقّب بأبي لهب. هذا كان لمحمد عدوًا لدودا، لغناه وكثرة ماله وأرزاقه. لقد أهلكه مالُه في نارٍ ذاتِ لهب، بسبب بخله وعدم اهتمامه باليتامى والمساكين، وأهلك معه امرأتَه، التي ستبقى معه في النار، مشدودة في عنقها بحَبْلٍ من مَسَد، أي من ليف متين. كلاهما يتعذّب بسبب كثرة ماله، وبحبسِه الطعامَ عن الجائعين (١ -٥). في قصّة أبي لهب اشارةٌ الى قصّة غنيّ الانجيل (لوقا ١/ ١٩ - ٣١) الذي منع عن الفقير طعامه.

سورة قريش (رقم ١٠٦) الرابعة في الزمن. كانت في حقّ قبيلة قريش، قبيلة النبيّ، الغنيّة بالمال والثروة والتجارة الواسعة، صيفا وشتاء، فيما بين اليمن وبلاد الشام. وقد جمعت الأموالَ الطائلة والأرباح الباهظة. يذكّر النبيّ أهل قبيلته بأنّهم سَدَنَةُ الكعبة، وعليهم أن يعبدوا ربّها. فهو الذي «أطعمهم من جوع»، وأغناهم بعد فقر، وأمّنهم من خوف (آية ١ - ٤)، ورزقهم من «واد غير ذي زرع». لقد وفّر الله لهم الأموال بسبب قدسيّة البيت، وسقايتهم الحجّاج، وأمان الاشهر الحرم؛ فيما غيرهم يُتَخَطَّفُ من أرضه. ومع هذا، فهم، على كثرة رزقهم، لا يهتمّون بمسكين أو يتيم جائع. وبدل أن

تكون الكعبة بيت عبادة وصلاة، أصبحت معهم بيت تجارة ومال (قابل مع متى ٢١/١٣).

سورة الهُمَزَة (رقم ١٠٤) السادسة في التاريخ، كانت في حقّ أميّة بن خلف الذي جمع مالا كثيرا (آية ٢)، وحسب أنّ ماله سيخلده (آية٣). لقد ضلّ السبيل، وسيطرحه الله في النار (آية ٤)، وينبذه نبْذا أبديا (٥ – ٩). كان أميّة يهزأ بالنبيّ ويَهْمَزُه ،ويَلْمَزُهُ (آية ١)، أي يعيبه ويعيّره لفقره وكثرة عياله، ويسخر منه بسبب أنّ مَن يتبعُه هم الفقراء دون الأغنياء... تتوقّف هذه السورة على من يتّكل على ماله وكثرة بنيه، ويهزأ بالفقراء والمساكين. هذا نصيبه النار والهلاك الأبديين. وفيها أيضا دعوة الى الزهد في معرض ذمّ المال (أنظر مقابلتها في انجيل لوقا: ويل لكم أيّها الأغنياء، وفي انجيل متّى، فصل ٢٧ بكامله).

سورة الماعون (رقم ١٠٧) السابعة في التاريخ. كانت في حقّ العاص ابن وائل الذي كان يدفع اليتيمَ بعنف (آية ٢)، ويمنع الطعام عن المسكين (آية ٣)، ويبطل عنهم الماعون، «أي ما يعوزهم من ابرة وفأس وقدر وقصعة» (تفسير الجلالين على آية ٧). هذا وأمثاله لهم نار جهنم. وفي السورة أيضا ذكر على أنّ إطعام المساكين يعادل الصلاة الى الله. فمن لا يطعم المسكين كأنّه لا يصلّي، أو كأنّه يصلّي وهو ساهٍ عن صلاته، أو كأنّه يخادع الناس (آية ٤ – ٦). انّها سورة «الكذب العملي في الدين»[٦٢]، أو سورة الذين يمنعون الحاجة عن أهلها، ويوقفون المساعدة عن المحتاجين اليها.

سورة التكاثر (رقم ١٠٢) الثامنة: « عن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين... تفاخروا بكثرة الأموال والأولاد والرجال حتى الذين ماتوا منهم ودفنوا. وعَدُّوا الموتى تكاثراً، وأحصَوهم لزيادة أعدادهم والتفاخر

(٦٢) الحداد، القرآن والكتاب ٢/ ٣٨٥ حاشية ١ .

بهم». والسورة بمجملها «حملة على تفاخرهم بنعيم الدنيا دون الآخرة»[٦٣] وهي في حقّ الذين ينشغلون عن طاعة الله ومحبّته بكثرة المال والرجال والمفاخرة بعدد الأولاد.

سورة الفيل (رقم ١٠٥) التاسعة: كانت في حقّ أبرهة، قائد الجيوش الحبشيّة الى اليمن، ومنها الى مكّة، يريد صرف الحجّاج عن كعبتها الى كنيسة بناها في صنعاء وذلك قصد منافسة مكّة في تجارتها وأموالها وأرباحها التي تجنيها من موقعها ومقام الكعبة فيها... في هذه السورة عبرة لأهل قريش الذين يحوّلون الكعبة الى سوق تجارة، كما قصد أبرهة، وسيضربهم الله كما ضرب أبرهة وجماعته. وفيها أيضا إشارة الى غنى مكّة ودورها التجاري...

سورة الليل (رقم ٩٢) العاشرة. قيل: نزلت في أبي بكر الصديق الذي أعتق «بَلالا» من الاضطهاد. فأبو بكر هو «الأتقى»، ومضطهِدُ بَلال هو «الأشقى». وفي السورة أيضا دعوة الى الإحسان: فمن يُعطي من ماله إحسانا يُعطه اللهُ أكثر ممّا يعطي. ومن يبخل بماله ستكون مجازاته النار. إنّ المال لا يُغني أحدًا (آية ١١)، بل الهدى واتّباع الصراط المستقيم هما غنى الانسان (آية ١٢). والذي يجود بماله يتزكّى (آية ١٨). ومن يعطي ممّا له فسيرضيه الله بالجنّة (آية ٢١) من أجل سخاء كفّه واحسان قلبه.

سورة البَلَد (رقم ٩٠) الحادية عشر: كانت في حقّ أبي الأشدّ بن كلدزة الذي ظنّ أنّه، لشدّة بطشه، لا يقدر عليه أحد، ولا يوازيه أحد بجمع المال واسرافه ايّاه على عداوة محمّد. الاّ أنّ الله يرى ذلك، ويجازيه على عمله السيّء. وسوء أبي الأشدّ في أنّه لم يحرّر أسيرا (آية ١٣)، ولم يطعم جائعا (١٤)، ولم يقرّب اليه يتيما (١٥)، ولم يرحم مسكينا (١٦). فسوف لا

---

(٦٣) المرجع نفسه، ٢ / ٣٨٤.

يستطيع الافلات من نار جهنّم. في هذه السورة «دعوة الى الزهد... الى العدالة الاجتماعيّة.... والاصلاح الاجتماعي...»[٦٤].

سورة الانشراح (رقم ٩٤) الثانية عشر. قال السيوطي: ««نزلتْ لمّا عيّر المشركون جماعة محمّد بالفقر». من معانيها انّ الله فرّج عن ضيق محمّد وجماعته وحطّ عنه ثقل الفقر والعسر، وشرح له صدره بزواجه من خديجة «سيّدة نساء قريش وأعظمهنّ شرفا وأكثرهنّ مالا»[٦٥] -لا بالنبوّة، أو أعجوبة شقّ الصدر، كما يقول المفسّرون- (آية ١ -٢). هذا الفقر الذي أثقل كاهل محمّد(٣)، أصبح، بعد زواجه من خديجة، غنىً، والعسرُ أصبح يسراً (٤ -٦). وبمقدور محمّد، بعد هذا الانشراح (آية ١) أن يتفرّغ الى مهمتّه الاصلاحية (٧ -٨). هذه السورة تصوّر وضع محمد بعد غناه، وتدعوه الى الاصلاح الاجتماعي والتفرّغ الى الصلاة والدعوة الى الله.

سورة الضحى (رقم ٩٣) الثالثةعشر. يقال انّها نزلت على محمّد بعد انحباس الوحي عنه مدّة تتراوح بين سنتين وثلاث سنين. يعزّي اللهُ فيها قلبَ رسوله بأنّه لم يتركه ولم ينسه ولم يبغضه (آية ٣). بل على محمّد أن يصبر: قد تكون النهاية خيراً من البداية (٤).، وسوف يعطيه اللّه أحسن ممّا أعطاه حتى الآن(٥). ولكي يتأكّد محمّد بأنّ الله لا يتركه، فليتذكّر نعمة الله عليه في يُتمِه وفقره (آية ٦ -٨)، وكيف أغناه الله وهداه. واذا كان هذا الذي صنعه الله مع محمّد، رغم يتمه وفقره، فعلى محمّد أن يصنع الشيء نفسه مع اليتامى والمساكين والسائلين منه عونا ورحمة (آية ٩ - ١١).

سورة عَبَسَ (رقم ٨٠) الرابعة عشر. فيها «عتاب للنبيّ الذي عبس في

---

(٦٤) الحداد، القرآن والكتاب، ٢/ ٣٩٤ حاشية ٧.

(٦٥) سيرة ابن هشام ١/١٩٩، الحلبية ١/١٤٧.

وجه أعمى وتولّى عنه، وتصدّى لمن استغنى من صناديد قريش»[٦٦]. ومعناها أن الذي كثر ماله وزادت عليه ثروته، أن يتبرّر بصنع الصدقة، وبفعل الحسنات مع أصحاب الفاقة، فتغفر له ذنوبه (آية ٥ - ٧). وان لم يفعل فعلى محمّد أن يتصدّى له، وأن لا يقبله في جملة أصحابه. وما هذه التعاليم سوى «تذكرة» (آية ١١) لما في الصحف الأولى (آية ١٣) حيث لا ينفع المال للفوز بالجنّة كما جاء في متى ٥/٣. وعندما تكون الصيحة في اليوم الأخير، لا شيء يفيد الانسان، لا مال، لا أخ، لا أب ، لا أم، لا صاحبة ولا بنون (آية ٣٣ - ٣٧) قابل مع متى ١٠/٢١.

سورة القلم (رقم ٦٨) الثامنة عشر. كانت في حقّ الوليد بن المغيرة صاحب الأموال الطائلة. وفيها قصّةُ أصحابِ بستانٍ حَرَموا من ثمارِه مساكينَ (آية ١٧ - ٣٣). ومفادها أنّ أصحابَ البستانِ جاءوا بستانَهم وقطفوا ثماره في الصباح الباكر حتى لا يشعرَ بمجيئهم المساكين، ولا يفيدوهم بثمرة من ثماره. فكان أنْ بلاهم اللهُ وأحرقَ بستانَهم، فحرَمَهم منه كما حَرَمُوا هم الفقراءَ من ثماره. ثم جاء واحدٌ من أصحاب البستان ينصح رفاقَه بالتوبة، ويدعوهم للرجوع الى الله، فراحوا يلومون بعضُهم بعضًا على ما صنعوا بالفقراء. فتابوا الى الله ليردّ لهم بستانَهم. فكان لهم ذلك بعد توبتهم، وبعد أن عزموا على اغاثة كل مسكين محروم. إنّها سورة «منّاع الخير» عن أهله (آية ١١). وهي تقابَل مع ما جاء في متى عن العَمَلَة الذين أُرسلوا الى الكرمِ وعن أجرتِهم (متى ٢٠/١ - ١٦)، ومع مَثَلِ الكرّامين القتلة في الإنجيل نفسِه (٢١/٣٣-٤٥).

سورة الأعلى (رقم ٨٧) التاسعة عشر. فيها إشارة الى ذكر الله الذي يعتني بالجميع. فهو «الذي أخرج المرعى » (آية ٤) ووفّر الغنى (آية ٨) للذين

---

(٦٦) الحداد، القرآن والكتاب ٢/٣٨٨.

يؤمنون . إنْ فضّلَ هؤلاء المؤمنون الآخرةَ على الدنيا (آية ١٦ – ١٧)، كما ورد في التوراة (آية ١٨ – ١٩)، فيتطهّرون ويتزكّون ممّا بين أيديهم (آية ١٤). أنّها سورة الصلاة والايمان والعمل الصالح.

***

وهكذا تتوالى السور المكيّة الأولى، في ما بين سنة ٦١٠ و ٦١٥، في موضوعها العام الذي تعبّر عنه هذه الآية المردّدة والمكرّرة على لسان محمّد، أحسن تعبير. تقول : «الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون». وقد جاءفي **سورة التين** (رقم ٩٥) ورقم نزولها ٢٠، **وسورة العصر** (رقم ١٠٣) ورقم نزولها ٢١، **وسورة البروج** (رقم ٨٥) ورقم نزولها ٢٢، **وسورة المزمّل** (رقم ٧٣) ونزولها ٢٣، **وسورة القارعة** (رقم ١٠١) ونزولها ٢٤، **وسورة الزلزال** (رقم ٩٩) ونزولها ٢٥، **وسورة الانشقاق** (رقم ٨٤) ونزولها ٢٩ .... الى ما هنالك... وكلّها تعلّم بأنْ لا يدخل الجنّة الاّ من عمل حسنة أو عملا صالحا مع اليتامى والمساكين والفقراء وغيرهم من أصحاب الحاجة.

ويسترعي انتباهَنا ما جاء في **سورة الفجر** (رقم ٨٩) وهي الخامسة والثلاثون في تاريخ النزول. جاء فيها قولها بحرفيّته عن تجّار مكّة الذين ظنّوا أنّ الكرامة بكثرة المال والاهانة بالفقر والعوز (آية١٥–١٦)، يجيبهم القرآن على هذه البدعة بقوله: «كلاّ. بل لا تُكرِمون اليتيم. ولا تحاضّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث (الميراث) أكْلاً لَمّاً (شديدا). وتُحبُّون المالَ حُبّا جمّا» (آية ١٧–٢٠).. هؤلاء، عندما يواجهون ربّهم، سيقول كل واحد منهم، نادما على ما لم يصنعه من خير مع الفقراء: «يا ليتني قدّمت لحياتي» الخيرَ والإيمان والأعمالَ الصالحة وأعمالَ البرّ (آية ٢٤). ولكن، بكونهم لم يفعلوا، فلا بدّ لهم من العذاب (اية ٢٥ – ٢٦)... تذكّر هذه السورة بقول الإنجيل «طوبى لكم أيّها المساكين فانّ لكم ملكوت الله... ويل لكم ايها الأغنياء قد نلتم

عزاءكم» (لوقا ٦/ ٢٠ و ٢١) [٦٧].

ثم نرى في **سورة المطفّفين** (رقم ٨٣) وهي السابعة والثلاثون قوله: «ويل للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، واذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون» (آية ١ – ٣). ثم يحذّرهم محمّد من يوم عظيم اذا ما استمرّوا على التلاعب بالموازين. وكثيرا ما عاد الى تحذير تجّار مكّة من هذا الغش العظيم في المكاييل[٦٨].

وفي **سورة الحاقة** (رقم ٦٩)، الثامنة والثلاثون، انّ الذين عملوا حسنة يعيشون في جنّة عالية وفي عيشة راضية (آية ٩ – ٢٤). والذين يهلكون هم المتّكلون على مالهم الذي لم يغنهم شيئا (آية ٢٨ – ٢٩). هؤلاء سيسمعون صوت الله يقول عن كل واحد منهم: «خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه... إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحضّ على طعام المسكين. فليس له اليوم ههنا حميم (صديق). ولا طعام الاّ من غِسلْين» (طعام مرّ خاصّ بأهل الجحيم) (آية ٣٠– ٣٦). لهذه السورة شبه كبير بالاناجيل الازائيّة[٦٩]، حيث النار الابديّة معدّة للذين لم يصنعوا حسنةً مع أحد الفقراء.

وفي **سورة الذاريات** (رقم ٥١) التاسعة والثلاثون، نقرأ «إنّ المتّقين في جنّاتٍ وعيونٍ... انّهم كانوا قبل ذلك مُحْسِنين... وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم» (آية ١٥ – ١٩).

وفي **سورة الواقعة** (رقم ٥٦) الواحدة والاربعون نرى «أصحاب الشمال في سموم وحميم. انّهم كانوا قبل ذلك مترفين» (آية ٤١–٤٥)؛ وهي سورة الهالكين بسبب غناهم على حساب الفقراء. قابل مع متى ٢٥/ ٣٢.

(٦٧) انظر الحداد، المرجع المذكور آنفا ، ٢/ ٣٨٢.

(٦٨) أنظر القرآن : ١٧/ ٣٥، ٢٦/ ١٨١، ١١/ ٨٤ و ٨٥، ٦/ ١٥٢ ... الخ...

(٦٩) انظر متى ٨/ ١٢، ٢٤/ ٥١، ٢٥/ ٣٠، لوقا ١٠/ ١٦ ...

وفي **سورة المعارج** (رقم ٧٠) الثانية والاربعون ، وهي سورة المخلّصين بسبب ما «في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم» (آية ٢٤ – ٢٥).

وسورة الرحمن (رقم ٥٥) الثالثة والاربعون وهي كسورة المطفِفين في معانيها.

وسورة الدهر (رقم ٧٦) حيث أسباب الخلاص للمتّقين تقوم على كونهم كانوا «يطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا». (وكانوا يقولون لهم): انّما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (آية ٨ – ٩). فوقّاهم الله الهلاك (آية ١١) وأجزاهم الجنّة وما فيها من خيرات وملذّات (آية ١٢ – ١٣).

وفي **سورة الاسراء** (رقم ١٧) ذكر للوصايا العشر، كما في **سورة الانعام** (٦/ ١٥١ – ١٥٣) حيث يضاف وصية جديدة، وهي: «لا تقربوا مال اليتيم الاّ بالتي هي أحسن» (آية ٣٤). وفيها ايضا: «وآت ذا القربى حقّه، والمسكين، وابن السبيل... ولا تجعل يدَك مغلولة (أي قابضة بخيلة)... ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ الإملاق (الجوع)... وأوفُوا الكيل اذا كِلتم...(آية ٢٦ – ٣٥)... و غير ذلك من وصايا هي، في معظمها، في حقّ الفقراء والمساكين واليتامى... أي في معرض اصلاح وضع اجتماعي فاسد.

***

وهكذا استمرّت دعوة محمد الاصلاحية، طوال العهد المكي، أي ١٣ سنة، ولكن، لم تبرح تعاليمه هي هي في مراحل القرآن كلّها، وان باسلوب متنوع ومختلف. ولن نترك هذه التعاليم تفلت منّا، فنهملها. فهي لنا برهان واضح وأكيد عل طبيعة دعوة محمّد في إصلاح مجتمعه:

جاء في **سورة النساء** (٤/ ٣٦–٤٠): «اعبدوا الله، ولا تشركوا به

شيئا، وبالوالدين احسانا، وبذي القربى ، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب (البعيد)، والصاحب بالجنب (الرفيق)، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم (من أرقّاء). انّ الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا» (بماله وغناه). قابل مع ما جاء في سورتَي البقرة (٢/٨٣)، و الروم (٣٠/٣٨)[٧٠].

ومن يتخلّف عن واجبٍ دينيٍّ ما عليه أن يعوّض عن تخلّفه هذا بحسنة مع مسكينٍ ما. و«من لم يستطع (الصيام مثلا) فإطعام ستين مسكينا» (٥٨/ ٤)، أو أقلّه يتوجّب «على الذي (لا) يطيقونه (الصيام) فدية طعام مسكين» (٢/ ١٨٤). والذي يرتكب كبيرة أو صغيرة في حقّ ايمانه «فكفّارته إطعام عشرة مساكين» (٥/ ٨٩)... وكذلك الذي صنع منكَراً، فيتصيّد بحجٍ أو بعمرةٍ، مثلا، «فكفّارةٌ طعامُ مساكين» (٥/ ٩٥)...

وأعظم ذنب يقترفه إنسانٌ هو أن يأكل مال اليتامى، فكأنّه، بعمله هذا، يأكل في بطنه نارا، ويصنع شرّا كبيرا. وحظّه في الآخرة هلاك نفسه: «آتوا اليتامى أموالهم... ولا تأكلوا أموالهم... انّه كان حُوبا (ذنبا) كبيرا» (٤/ ٢) ، و«انّ الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما انّما يأكلون في بطونهم نارا. وسيصلون سعيرا» (٤/ ١٠)...

ثم تجلّت دعوة محمّد الاصلاحيّة في ما وضعه من شرائع وقوانين لدولة اسلاميّة يُحفظ فيها حقّ اليتيم والمسكين. فسعى ، أوّل ما سعى ، الى الحدّ من طغيان الأغنياء وأصحاب الثروة، ففرض بأنْ يكون عليهم للمساكين حصّةٌ من ثروته، سُمّيت «الزّكاة»، وقد جعلها أحدَ أركان عقيدته، كما رأينا. وقد عيّن القرآن الذين يستفيدون من «الزكاة» و «الصدقات»، فاذا هي «للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلّفة قلوبهم، وفي الرقاب،

---

(٧٠) أنظر أيضا : ٢/ ١٧٧، ٢١٥ ... وغيرها.

والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة الله»[٧١].

ثمّ منع الرسولُ تكديسَ الأرزاق والأموال في أيدٍ قليلة من الناس، وذلك للحدّ من الخلافات والفروقات بين طبقات المجتمع. فسنّ قوانينَ، في كيفيّة توزيع الثروة، لا يزال يُعمَل بها حتى اليوم. ودعا الى إشراك الاولاد والزوجات والاخوة والاخوات في كل شيء. وخصّ بالذكر، في شريعته، اليتامى والمساكين. فيقول : «اذا حضر القسمة (قسمة الميراث) أولو القربى، واليتامى، والمساكين، فارزقوهم منه. وقولوا لهم قولا معروفا» (٤/٨).

وكذلك دعا الغزاة والمجاهدين الى أن يشركوا معهم في غنائم الحرب المستضعَفين الذين لم يتمكّنوا من الغزوِ والجهاد. فقال: «واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء، فإنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (٨/ ٤١). ثم دعا الى توزيع الفيء كلّه على المعوزين. والفيء هو ما يؤخذ بدون قتال (٥٩/٧).

وكذلك أيضا منعَ كنزَ الأموال واحتكارَها. وتوعّد المحتكرين بأنّ أموالهم المكدّسة ستكون عليهم في الآخرة نارا وسعيرا تحرق أجسامَهم وتأكل أعضاءهم: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم. يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى جباهُهم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم. فذوقوا ما كنتم تكنزون» (٩/ ٣٤).

... كل ذلك من شرائع في الزواج، والسرقة، والزنى، والجهاد، والارث... كان في سبيل اصلاح مجتمع اختبر محمّد فساده في الصميم.

---

(٧١) سورة ٩/ ٦٠ : **الفقراء** هم الذين لا يجدون ما يقع موقعا من كفايتهم؛ **المساكين** هم الذين لا يجدون ما يكفيهم؛ **العاملين عليها** من جابٍ وقاسمٍ وكاتبٍ وحاشر؛ **المؤلفة قلوبهم** ليُسلموا؛ **الرقاب** أي فكّها؛ **الغارمين** أهل الدَّين... الخ.

خَاتِمَة الفَصْل السَادِس

لم تبرح صورة اليتم والفقر والحالة العسيرة من مخيّلة محمّد طوال دعوته الإصلاحية. وكانت هذه الصورة لا تزال حيّة قويّة في العهد المكّي الأوّل، أي من مبعثه حتى الهجرة الأولى الى الحبشة (٦١٠–٦١٥م).... واذا أردنا أن نصف القرآن المكّي هذا، قبل الهجرة الحبشيّة، لا ستطعنا وصفه بـ «قرآن اليتامى». ونعني بذلك: إنّ ما في القرآن المكّي، من تعاليم ومواقف، إجتماعيّةً كانت أم دينيّة، هي في سبيل العناية والاهتمام بهؤلاء المساكين الفقراء اليتامى، وقد اختبر محمّد في نفسه كل هذه الحالات.

ولسنا، والحالة هذه، ننالُ من القرآن وتعاليمه الدينية، لأنّ محمّداً عرف أن يقدّم لنا الأمورَ الماورائيّة في معرض كلامه على أمور أرضيّة حياتيّة اجتماعيّة، هي في غاية الأهميّة والخطورة. وليس هذا بالأمر العجب. فتربية محمّد كانت «إِبيونيّة»، في بيت جدّه، وعمّه، وفي رعاية القس ورقة بن نوفل، رئيس «الابيونيين»، «الأحناف»، في مكّة. وكانت تعاليم الإبيونيّة في العناية بالفقراء تتغلّب على ما سواها من تعاليم. وكان كتابنا «قسّ ونبيّ» دليلاً وافياً وواضحاً على هذه الناحية...

ولم يمضِ العهدُ الأوّل على محمّد وصحابته بخيرٍ وسلام. لقد اضطهدتْهم قريش، وطردتْهم، فرحلوا الى الحبشة مرّة ثانية. وتحمّلوا في رحيلهم المشقّات. فما كان على محمّد، في بدء العهد الثاني (٦١٥ – ٦٢٠م)، إلاّ أن يشدّد من عزائم أصحابه، ويعدهم بخيراتٍ سماوية ينالونها مكافأة

لتصبّرهم. ولم يكن لمحمّد من خيرات الأرض شيء حتى يعدهم به. وكان أخصّ ما وعدهم به، بعد رجوعهم الى مكّة، بزواجهم الميمون بـ «حور عين كأمثال اللولؤ المكنون» [٧٢]. وفي العهد الثالث (٦٢٠-٦٢٢) وعدهم بـ «جنّات تجري من تحتها الأنهار» [٧٣]. وفي بداية عهده في المدينة، وعدهم بـ «مغانم كثيرة» [٧٤]، وذلك بعد أن أصبح لديه منها نصيب، بسبب غزواته وسراياه.

ويبدو أنّ المسلمين الأوّلين ما كانوا ليتحمّسوا للجهاد والفتح لو لم تأخذ هذه المواعيد المنتظرة بألبابهم وعقولهم. وقد حفظ لنا التاريخ بعضَ أقوال تشير الى الدوافع العميقة التي استحثّت المقاتلين للحرب والجهاد حتى الشهادة والاستشهاد. فها هو عكرمة بن أبي جهل، في معركة حمص،، يشرح لنا سبب قتاله المستميت، ويقول: «انّي أرى الحورَ متشوّقاتٍ إليّ. ولو بَدَتْ واحدةٌ منهنّ لأهل الدنيا لأغنتْهم عن الشمسِ القمر. ولقد صَدَقَنا رسولُ الله في ما وَعَدَنا» [٧٥]. وها هو أيضا أبو هُريرة يحرّضُ قومَه على القتال ويقول: «يا أيّها الناس! سارعوا الى معانقة الحُور العِين في جوار ربٍّ العالمِين» [٧٦].وكأنّ كلمة السرّ في القتال كانت عندهم: «أطعنوا الصدورَ تنالوا الحُورَ. وشرّعوا الأسنّة تنالوا الجَنّة» [٧٧].

ويحاول علماء المسلمين تفسيرَ استماتة الفاتحين بما ينتظرهم في الجنّة من طيّبات وشهوات. فأبو هُريرة يفسّر لنا، مثلا، فَرَحَ غلامٍ مسلمٍ قتيل، فيقول: «نظرتُ الى الغلام، عندما سقطَ وهو يشيرُ بإصبعِه نحوالسماء، ولم

(٧٢) القرآن : ٥٦/ ٢٢، ٢٠/ ٥٢، ٤٤/ ٥٤، ٣٧/ ٤٨...

(٧٣) يرد تعبير «جنات تجري من تحتها الانهار» أكثر من خمسين مرّة...

(٧٤) القرآن: ٤/ ٩٤، ٤٨/ ١٩ و ٢٠. أنظر المراجع في مكان آخر من البحث.

(٧٥) الواقدي (+٢٠٧هـ) فتوح الشام، ١/ ١٥٧.

(٧٦) المرجع نفسه، ١/ ٢٠٦ ، ٢١١.

(٧٧) المرجع نفسه، ١/ ٢١٩، ٢٨٤.

يَهُلُهُ ما لحِقَه، فعلمتُ أنّ ذلك لفرحِه بما عاين من الحُور العِين»(٧٨). وغلامٌ آخر يشهد ويقول: «رأيتُ في إحدى القُبتين (في الجنّة) حُوراً، لو بَرَزْنَ لأهل الدنيا لماتوا شوقًا إليهنّ»(٧٩).

ثم ذهب علماء الصحابة، الموثوق بهم، كالمقداد، ومعاذ بن جبل وغيرهما، يحمّسون الفاتحين على دخول بلاد النوبة والسودان، قائلين لهم: «معاشرَ المسلمين ! إعلَموا أنّ الجنانَ قد فُتحتْ، والملائكةَ قد أشرَفتْ، والحُورَ تزيّنتْ، وأشرفتْ من الجنان»(٨٠). ثم يحرّضونهم على خوض القتال: «أبشروا بالحُور والولدان في غرفاتِ الجنان. وإنّ الجنّة تحت ظلال سيوفكم»(٨١).

لكنّنا في الحقيقة نسأل: هل هذا من صميم دعوة محمّد، أم من دعوة المسلمين لأجل حماس الفاتحين؟ مع أنّنا نعلم أنّ هذه التعاليم وأمثالهما يزخر بها القرآن، المكّي والمدني، على السواء.. ولكن، يحق لنا أن نسأل أيضا: هل هي من جوهر الدعوة المحمدّية، أم أضيفتْ على القرآن من عهد الفتوحات، لترغّبَ الفاتحين في جهادهم، وتبرّر دهشَتَهم بفتيات الفرس والروم؟ ومواصفات الحُور، كمواصفاتِ هذه الفتيات في كل حال. ومن أين لمحمّد أن يصفهنّ بما لم ير شيئا منهنّ! اللهّم الاّ إذا كان لاوعيُه، منذ رحلاتِ طفولته الى الشام، ما زال يعمل فيه.

ومع هذا، تبقى هذه الأمور جانبيّة وثانويّة بالنسبة إلينا والى القرآن. ألمهمّ في دعوة محمّد، لا ما يركّز عليه المسلمون الفاتحون، أو اذا شئتَ المسلمون القرآنيون، نسبةً الى القرآن الذي جُمِعَ في عهد الفتوحات، لأنّ في

---

(٧٨) فتوح الشام، ١/ ٢٢٥.

(٧٩) المرجع نفسه، ٢/ ٨٨.

(٨٠) المرجع نفسه، ٢/ ٢٤٣.

(٨١) المرجع نفسه، ٢/ ٢٥٩.

القرآن العثماني منها ما يجعلنا نَضلّ عن تعليم القرآن المحمّدي... المهمّ إذاً، بالنسبة إلينا، ما جاء به محمّد من تعاليم، لا ما حَلا لعثمان وللجانِ جمْعِ القرآن تدوينُه. ولكي نعرف ذلك، لا بدّ لنا من الرجوع الى الدافع الأساسي والأوّلي في بدء الدعوة. وهو، كما اتّضحَ لنا، إصلاحُ مفاسد مجتمع مكّة.

والدافع الإساسي والأوّلي ينبت، في كلٍّ حال، من عمق شعور شخصيّة الداعي. ففي عمق شخصيّة الداعي، وهو محمّد، كما يشير القرآن نفسه، فقر ويتم وعسر وحرمان .والذي دفع هذا الشعور الشخصي العميق الى الانفعال وضْعُ مجتمع مكّة. فتلاقى بذلك، في بدء البعثة المحمّدية، دافعان: دافع حرمانٍ شخصي كبير، ودافع جوعٍ في طبقة «الأذلة» أكبر. فما تكون النتائج إذاً غير الثورة والجهاد، وتعليمٍ رفيعٍ في حماية الجائعين!!

خاتمة البحث

قضايا كثيرة عرضناها، ووضعناها أمام أعيننا، لا كمسلّمات اتّخذناها منطلقاً من الشكّ الى اليقين، بل كمشكلاتٍ ومسائلَ للبحث. ولا ندّعي أنّنا، في ما بحثنا فيه، حصلنا على اليقين المطلق. إنّنا بحثنا متحرّرين من كلّ خلفيّة دينيّة كانت أم دنيويّة، إيمانيّة أم إلحاديّة، إسلاميّة أم شِرْكيّة... لقد انطلقنا من الشكّ في كلّ شيء لنصل إلى معرفةِ أيِّ شيء.. وأنتَ، إنْ عرفتَ، شككتَ. وبعد الشكّ واظب معنا على البحث عن الحقيقة الصعبة. ولنا عندك أمنيّة. وهي أن تؤمن بحرّيتك، وتؤمن بأنّ الله سيفاجئك في منعطف ما من منعطفات الحريّة. فلا تخف على الله إذاً، بل خف على حريّتك من إلهٍ جعلتَه في قبضةِ عقلك ويدَيك.

مشكلات عديدة عالجناها برويّة وهدوء وحرّيّة. لا خوفاً على الله، ولا إنكاراً لوحي؛ بل سعياً حثيثاً متواصلاً وراء المعرفة والحرّيّة ومحبّة كلّ إنسان، بدون تصنيف أو تمييز بين البشر. وهمّنا، في سعيِنا، كان في اصطياد المعطيات التاريخيّة، والجغرافية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصاديّة... واذا عجزتْ هذه المعطيات عن أن توفّر لنا بعض المعرفة، فالله قريب. وايماننا

بالوحي، والنبوّة، والرسالة، والدعوة، والعصمة، والكتاب المنزل، والشريعة الالهيّة لا يزال حيًا. واعتقادنا بـ «الدين الذي ارتضاه الله» لعباده الصالحين، لا بدّ من أن يكون «الإسلام».

قضايا عديدة حاولنا معرفتها، دون أن نكفّ عن البحث المتواصل فيها. فلا تكفّ أنت أيضا. ولا تأخذ منها موقفاً، لا قابلاً بها ولا رافضاً لها. جلّ همّنا أن نكون واياك أحرارا، أحرارا في العقل وفي الممارسة، أحرارا من نظريّة «الشعب المختار». فالإله الحقّ لا يؤثر شعباً على حساب شعب، ولا يرذل شعبا ويحبّ آخَر، ولا يعتني بأمّة ويُشيحُ بنظره عن أخرى... ألله الحقيقي هو الذي يُشرق شمسَه على الأبرار والكفّار سواء بسواء.

مشاكل كثيرة عالجناها بحرّيّة، ومسؤوليّة، وبحثنا فيها دون أن نكون مطمئنّين على شيء. كلّنا أمام الله ضارعٌ ليعطينا نعمة البحث عنه وعن كلّ شيء، ويرفع عنّا، بنعمته، «الاطمئنان» و"العصمة» معاً. وخشيتنا في أن تكون عصمةُ المتديّنين، في اطمئنانهم، تضاهي عصمةَ الأنبياء. إلاّ أنّ عصمةَ المتديّنين أعظم. وعصمة الأنبياء جعلتْ كلّ واحدٍ منهم «أنسانَ خصامٍ ونزاعٍ للأرض كلّها»، كما عبّر النبيّ إرميا عن ذلك بصدق (٥/ ١٠).

فلا نطمئنّ اذاً لئلا نكون من عصبة المعصومين. وشيطان هذا الدهر لا يريد منّا أكثر من ذلك. فمن أين تدخل نعمة الله وشيطان العصمة رابض في النفوس! واليك الدليل: لكي يحظى إنسانٌ خيّرٌ محبٌّ على الإيمان، يتوجّب عليه، لا محالة، ممارسةُ الزهد، والتقشّف، والابتعاد عن شهوات الجسد وملذّاته، والتخلّي عن مباهج العالم ومغرياته، وتجنّب الأميال والأهواء، ومحبّة الآخرين مهما كانوا، بل محبّة مَن يظنّهم أعداءه، واعتبار البشر كلّهم إخوةً له، واتّخاذهم وسيلةً فعّالةً للوصول إلى ملكوت الله...

كلّ مرّة يجد الانسانُ نفسه مطمئنّاً معصوماً، ويعتقد بأنّ اللّهَ اختارَه على حساب غيره، فهو، بدون شكٍّ، يمارس عمليّة «الصلب». ولا أحد «يصلب» غيرُ الذي يظنّ نفسه أنّه من أبناء «شعب الله المختار»؛ أو من الذين احتكروا اللّهَ لأنفسهم، وأغلقوا عليه؛ أو من الذين يدّعون العصمةَ في المعرفة؛ أو من الذين أسقطوا من السماء شرائعَ وحقائقَ يسيّرونَ العالمَ بها بموجب حدودٍ نسبوها إلى اللّه نفسه... ولا أحد، في النتيجة، يستطيع أن «يصلب» غير هؤلاء. ومن يحتكر الله أيتورّعُ عن احتكارِ خيرات الأرض كلّها!!! أيستطيع أن يكون محبّاً؟ منفتحا؟ خيّراً؟ يصعب ذلك. حتّى ولو مات سكّان الأرض جوعاً.

ألنّبيّ محمّد لم يكن من هؤلاء. لم يكن "معصوماً"، ولا "مطمئنّاً"، ولا "مختاراً"، ولا "محتكراً" للّه، ولا لخيرات الأرض. لكنّ هؤلاء جعلوه منهم. ولو كان حقّاً منهم لما انفعلَ لمفاسد مجتمعٍ جنّ به جنونُه. فأعداء محمّد لم يكونوا، كما يصورّهم لنا هؤلاء، كفّاراً، مشركين، بل هم "آكلو أموال اليتامَى ظلماً". ولم يكن له أعداء سواهم. وبسبب العناية باليتامَى، ومحاربة آكلي أموالهم، حلّل كلّ شيء، حتّى الزواجَ من نساء لا عدّ لهنّ، وذلك من أجل العناية بأيتامهنّ، لا من أجل اشتهائهنّ شهوةً ابتغاها له هؤلاء.

وسيرةُ محمّد كانت سيرةَ إنسانٍ عاش حياة مضطربة في كل نواحيها ومستوياتها: لقد عاشَ بين فقرٍ وغنى، وبين ضلالة وهدى، عاش في كعبةٍ ذات آلهة عديدة، وفي مجتمع يتناحر فيه أعزّةٌ وأذلّة، وفي قبيلة يعيش فيها كفّارٌ وحُمْسٌ بعضهم إلى جنب بعض، وفي مدينة تجارية كمكّة، ومدينة زراعية صناعيّة كيثرب، وتعرّض لهجرات متتالية من مكان الى آخر،ولاضطهاد متواصل، وقام بغزوات في كلّ اتّجاه، واختبر الحياةَ مع نساء تجاذبت قلبَه، وتنافست غيرة وضغينة، واصطدم بيهود تربّصوا به شرّاً، وعملَ في أحزاب وشِيَعٍ نصرانيّة شاء توحيدها... وبالنتيجة، لم يكن محمّد

«مطمئنًا»، ولم ينم على ديباج وحرير، كما يريده هؤلاء...

لم يأت محمّد بدين جديد، ولا بتعاليم لم يستلهم لها مجتمعَه. ولم يكن في خلده أن يكون رسولا الى غير بني قومه. ولم يدعُ يوما الى اله غير اله معروف. لم يع أنّه نبيّ على مستوى أحدٍ من أنبياء العهد القديم الذين حشره هؤلاء بينهم.. ولم تضطهده قريش «لأنّه سفّه» آلهتها، بقدر ما اضطهدته ولاحقته لأنّه سفّه تجّارها وأعزّتها وقادتَها وسَدَنة كعبتها. ولم يهجر الى يثرب بسبب وحيٍ جديد، بقدر ما هجر بسبب توفير مغانم «لليتامى والمساكين». ولم يغزُ في سبيل الله، بقدر ما غزا في سبيل هذه المغانم..

أمّا هؤلاء فجعلوا كلَّ حركة من حركات محمّد إلهاماً ونبوّةً ووحياً. وجعلوا ثورته الاجتماعية دعوة إلهيّةً في سبيل الله. واعتبروا تعاليمه تنزيلا من السماء. وقالوا بأنّه رسول الله إلى العالمين. وأرادوا الإسلام ديناً ارتضاه الله للناس أجميعن. وربطوا الكتابَ بعمد السماء ليستمرّ إلى دهر الداهرين. وأوجدوا فيه العلومَ والحلولَ والطمأنينةَ كلّها...

أمّا الواقع فكما يقول بندلي جوزي، مستنداً إلى أسماء كبيرة من المستشرقين، هو هذا: إنّ «القول بأنّ الاسلام فكرة دينيّة محضة، وأنّ ظهوره وتغلّبه على وثنية العرب(؟) وانتشاره السريع بين أكثر أمم الشرق، وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أميّة الواسعة، ترجع الى الحماسة الدينية، أو التعصّب الديني، يُعَدُّ اليومَ قولاً جزافا بعيدا عمّا أثبتته الأبحاث التاريخيّة والاقتصادية، كأبحاث الاستاذ فيلهوزن والأمير كايتاني والاستاذ لامنس ونولدكه وعضو أكّاديميّة بطرسبرج بارتلود، وغيرهم، فقد أصبح اليوم من المقرّر أنّ الاسلام، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرة دينية، بل مسألة اقتصاديّة واجتماعيّة أيضا؛ أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعيّة أكثر منه فكرة دينية.

وقال الأمير كايتاني: «إنّ الاسلام لم يكن حركة دينيّة، اذ لم يكن فيه دينيّا الاّ الظاهر، أمّا الجوهر فانّه كان سياسيّا واقتصاديا». ومن فضل مؤسّس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته أنّه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعيّة التي ظهرت في أيّامه في مكّة عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها ويسخّرها لأغراضه السامية، دينيّة كان أو اجتماعيّة.

ويؤكّد كايتاني بأنّ «الإسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب؛ وانّ الدافع اليها هو ما كان يدفع سابقا الى مثلها في جزيرة العرب، أي جفاف أرضهم المستمرّ، وما يتبع ذلك من الضيق والفقر.

ويقول المستشرق الهولاندي كوخيه: «إنّ الداعي الى ظهور الحركة الاسلاميّة هو الدين، إلاّ أنّ القبائل العربيّة، وسكّان مكّة والمدينة، أقبلوا عليه، ودخلوا فيه، لأسباب غير دينيّة». معنى ذلك أنّ صاحب الدين الاسلامي استعمل الدين، كغيره من أصحاب الأديان الكبيرة، قبله وبعده، واسطة للوصول إلى أغراض أخرى لا علاقة لها بالدين أصلا، أو لها علاقة ضعيفة.

على كلٍّ، لا ريب في أنّ الحركة الاسلاميّة بنت عصرها، ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذي تكوّن في مكّة في أواخر الجيل السادس بعد المسيح. فاذا أردنا أن نقف على منشأ تلك الحركة التي أدّت الى ظهور الاسلام، لا بدّ لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الأسس الاجتماعيّة التي قامت عليها حياة مكّة، وما يجاورها من بلاد الحجاز»[1]. وهذا ما حصل.

مع هؤلاء، كلّ بحثٍ عن كلّ حقيقةٍ باطلٌ من أساسه. وهم المنتصرون

---

(١) انظر بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢٣٨ و ١٧ وما بعدها.

مسبـقا: ألحقائق عندهم في ملفّات جـاهزة. واليقين يقدّمونه ببسمـة ساخرة، والمعرفة علميّة حسابيّـة لا موضـعَ للشكّ فيها، والله في العبّ والجيب، والدّين منزَلٌ في «كـتـاب»، والشريعـة من الكتاب، ونُظُمُ الحـياة والكون مـحدّدة في الكتاب عينه. والعلوم كلّها، من طبيّة وفيزيائيّة وكيماويّة وفلكيّة وتحت أرضيّة وكونيّة تســتنبشـها من آيات هذا الكتاب. فأيُّ كـلامٍ يفيد مع هؤلاء؟ وأيُّ بحثٍ يكون مع هذا الاطمئنان العظيم!!!

.... ويبـقى علينا أن نـتّقـي «ردّةً فـعلٍ» هؤلاء المطمـئنّين. وأن نحـاذر انتقامَـهم، ونخشى ثأرهم الإلهيّ . فانّهم يعملون لله، ويجـاهدون في سبيله، ويدافعـون عن حقـوقه، وينتقـمون اكـراماً لله عينه... ومـا زلنا، في هذا كلّه، نسأل عن هذا الانسان الذي خلقَه الله، وعن حرّيته وكرامته اللّتين شاءهما اللّهُ له!!!

...ثمّ بعد، نسأل، ونحن مؤمنون بالله وقدرته: كيف يكون إسلامُ هؤلاء ديناً ودولة، عقـيدةً وشريعـة،، تعاليمَ إلهيّـة وتعاليمَ اجتـماعيّـة... فهل يكون إسلامُ هؤلاء في خدمة الانسان؟ أم يكونُ الانسان في خدمة إسلام هؤلاء ؟

لكنّ الانسانَ يتطوّر ويتـغيّر، وإســلامَ هؤلاء شريعة أزليـة أبديّة ثابتة مستقرّة. ونحن نعلم تمامَ العلم بأنّ الدِّينَ، في معناه الحقيقي، هو "صبغة "(٢) إلهيّةروحـيّة عميقة فـي إنسانٍ رهيفِ الشعور، متـواضعِ العقل، نحيلِ الوطء على الأرض، خفيفِ الظلّ، زاهدٍ بكلّ ما في الدنيا من خيرات وملذّات، روحانيٍّ المسلك والسيرة، يربطه بالله سعيُه الحـثيث المتواصل نحو محاربةِ الشرّ الذي فيه، وقداسة نفسه وخـلاصها، ولا يرى العالم الاّ بمنظار هذه القداسة... والاّ كان الدينُ شـرائع ونظماً وقـوانينَ وعقائـدَ، قد تفيـد مجتـمعـاً ولا تلزم آخر،

(٢) إشـارة إلى ما جـاء في القـرآن: " صبـغـة اللّهِ ومَن أحـسن من اللّه صـبـغـة ونحن له عابدون" (سورة البقرة ٢/١٣٨). وهي المرّة الوحيدة فيه.

وتطبّق في عصر دون عصر، وتصلح لشعب ولا تصلح لآخر. وقد تتوصّلُ بعضُ الدول المعاصرة الملحدة إلى سنٍّ شرائعَ رحيمةً بالإنسان أكثر من شرائع ذاك الدين، دينِ هؤلاء.

أما اذا كان الدين شريعة الهيّة سرمديّة تلزم الانسان في كل مجتمع وعصر، فأين حرّيّة الانسان مع شريعة جامدة؟ وأين جزاء الانسان مع اله يجبره ويقيّده في أطر تاريخيّة زمنيّة بالت وزالت؟ وكيف يتصرّف البشر مع كتابٍ يَصلُبُ ولا يُصلب؟!!

ثم اذا كان الدين اصلاحا لمجتمع ما، فهلّ يصحّ في إصلاح مجتمع آخر، علماً بأنّ سبب وجود هذا الدين هو ما كان يوجد في ذاك المجتمع من مفاسد دعا الى اصلاحها. وإذا ما رفع الزمانُ، بتطوّره، بعضَ تلك المفاسد، يزول، لا محالة، مبرّر وجود بعض تعاليم هذا الدين...وهذا ما تنبّه اليه بعض العلماء المسلمين في كلامهم على الناسخ والمنسوخ، عندما قالوا: هناك آيات في القرآن نُسِخَتْ أحكامُها ولم تُنْسَخْ تلاوتُها؛ أي أزيل العملُ بحكم الشريعة، وبقي الكلامُ عليها... وفي هذا القول تبرير مخيف لتأخّر الشريعة الالهيّة عن الالتحاق بتطوّر الشريعة البشريّة.

ثمّ إذا كان المجتمع والدين يتكاملان لأجل تثبيت ملكِ الله، فهل يوجد بين الاثنين تكافؤ؟ كيف ذلك؟ والأولّ منهما بتطوّر رهيب، والثاني ثابت جامد لا يتزحزح! أيشدّ الدين بالمجتمع الى التخلّف؟ أيتحكّم بالانسان الى هذا الحدّ فيبقيه في حمايته وتحت مراقبته؟ أيحدّ من طموحه فيخليه من ذاته؟ أيجعل مصير الانسان في المجتمع كمصيره مع الله وأحسن؟ يبدو منه ذلك طالما خيرات الجنّة وشهواتها هي صورة عن خيرات الأرض وشهواتها.

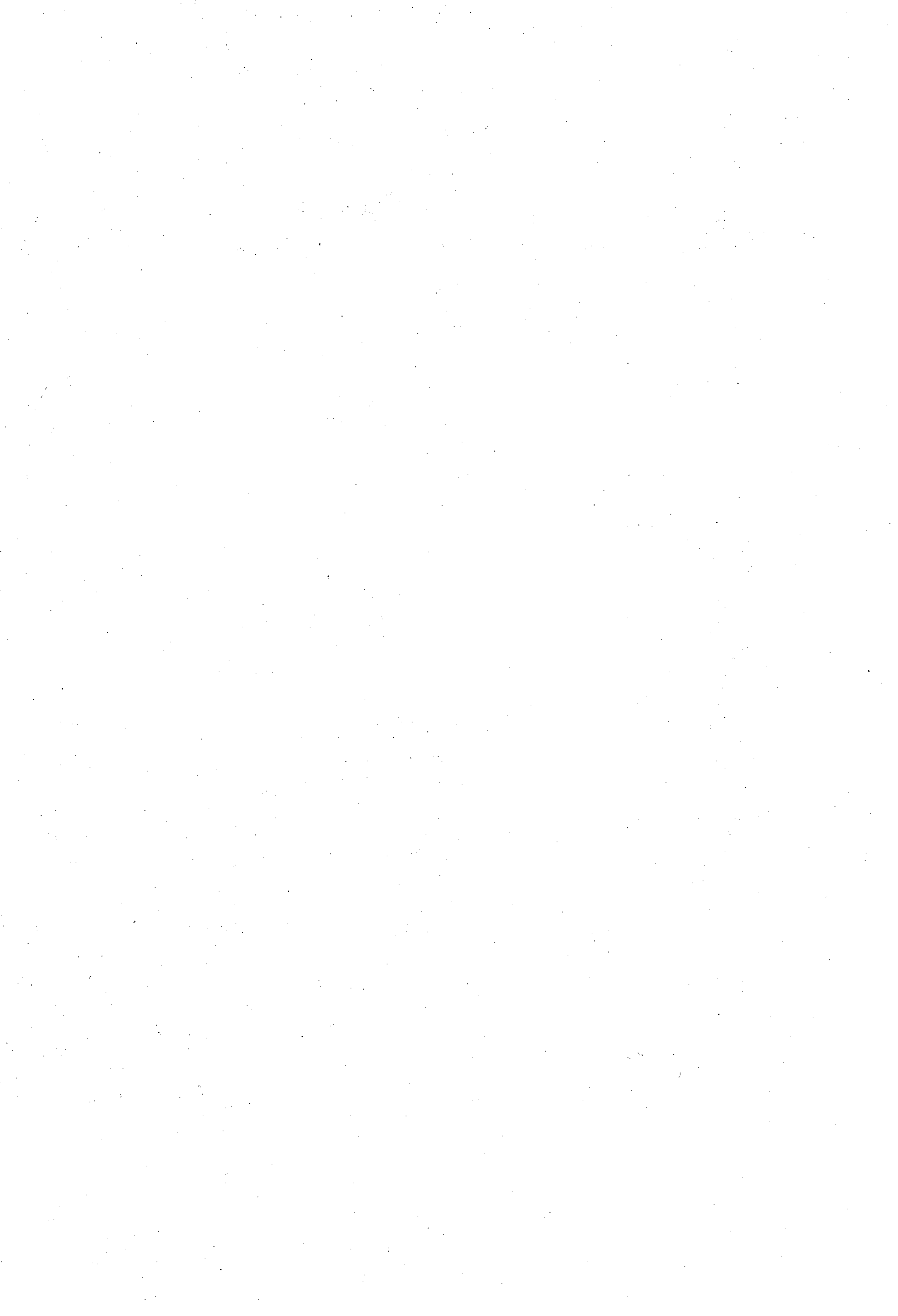
في إسلام هؤلاء من ذلك كثير: مجتمع أهل الجنّة كمجتمع أهل الدنيا.

ألدين دولة، والعقيدة شريعة. كلاهما في مستوى واحد. فأين يكمن الشرّ إذاً؟ بل قل: كيف تكون الحياة الروحيّة؟ والسعادة الروحيّة؟ بل كيف يكون الله؟ إلى هذا الحدّ، وفي هذا المستوى، يكون «الله الصمد»؟ وكيف يكون متعاليا هنا ويحيط به الانسان هناك؟ أيكون الانسان، في عقيدة هؤلاء، هو الذي ارتفع، أم يكون الله هو الذي وقع؟

وأين الخلاص أيضا؟ لنفترض شريعة هؤلاء طُبّقت ومورست في مكان ما على الأرض، أفَلا يكونُ هذا المكان صورةً كاملة تامّة عمّا سيكون في السماء؟ ليس في الأمر، اذا ما حدث، عجب. بل العجب أن لا يكون عند الله أفضل ممّا نزّل علينا في بيئة الخلعاء والصعاليك وآكلي أموال اليتامى! والعجب الأكبر أن يكون عنده في السماء شريعة أفضل.، وفي كلتا الحالتين نحن في دولة الله محرومون من الأفضل؛ ونحن معه، هنا وهناك، مظلومون. ويكون معنى ذلك: إنّ محمّداً الذي جاء رحمة للمحرومين، ترك لنا، بنظر هؤلاء، كتابا، أحكم علينا، باسم الله، حرماناً أبدياً. وبذلك يكون محمّد نبيَّ رحمة، ويكون القرآن شريعةَ ظلمٍ أبدي. وهؤلاء، في كل حال، قرآنيون لا محمّديون، أي إلهيّون لا إنسانيّون، ودينيّون لا إجتماعيّون... والنتيجةُ وخيمةٌ جداً.

ويبقى، بعد ذلك، أن يكون «خليفة» القس ورقة أرحم بنا من «خلفاء» القرآن. وذهب هؤلاء بصورة محمّد المكيّة الرحيمة، ووضعوا مكانها صورة يثربيّة قتاليّة. ويثرب، كما نعلم، تعوّدت الظلمَ والقتلَ منذ عهد اليهود، ونسفتْ رحمةَ مكّة وربٌّ كعبتها الرحمن الرحيم. وكم هي المدينةُ مدينةٌ لمكّة. وهي دونها في الرحمة. مكّة أعطتْ العالمَ خلاصا، والمدينة أعطت العالم حرباً وجهاداً مقدّساً وشرائعَ جامدة. تلك جاءت بالعقيدة، وهذه جاءت بالشريعة. تلك علّمت الرحمة، وهذه علّمت الظلمَ. تلك رحمة وهذه جهاد... وكم **هؤلاء**

مدينون لمحمّد، وهم دونه في الرحمة. لقد مـات محمّد، والموتُ للأنبياء خلاصٌ للبشر. القرآن لن يموت، وبقاؤه فـي الأرض، كعينٍ رقيبٍ جسّاسٍ، رهيبٌ على البشر. ولو انَّ في العين بعضَ الرحمة، لكان العالمُ يسـعى إلى السعادة حثيثاً. ولكان المظلومون في الأرض نالوا حقـوقَهم كما نالها يتامى مكّة ومـساكينُها، ومحمّد كان منهم ومثلهم يتيماً مظلوماً.



المصادر والمراجع

١ - ابن حبيب (أبو جعفر محمّد)، + ٢٤٥ هـ، كتاب المحبر، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر اباد، ١٩٤٢م.

٢ - ابن حنبل (الإمام أحمد)، + ٢٤١ هـ، المسند، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر القاهرة ١٣٧٥هـ.

٣ - ابن دريد (محمد بن الحسن... الازدي)، ٣٢١ هـ، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٨ م.

٤ - ابن سعد (محمّد)، +٢٣٠ هـ، الطبقات الكبرى، ٨ مجلّدات، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

٥ - ابن العبري (غريغوريوس الملطي)،+ ٦٨٥ هـ. تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، بلا تاريخ.

٦ - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)، + ٢٧٦ هـ، كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشه، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠م.

٧ - ابن النديم (محمد بن اسحق بن محمد)، +٣٨٥ هـ ، الفهرست، المكتبة

التجارية القاهرة ١٣٤٨ هـ وداد المعرفة بيروت ١٩٧٨ م.

٨ - ابن هشام، + ٢١٣ هـ، السيرة النبويّة، ٤ أجزاء، قدّم لها وعلّق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت ١٩٧٥م.

٩ - الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد)، + ٢٥٠ هـ، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، دار الاندلس، مدريد، بلا تاريخ.

١٠ - الألوسي (محمود شكري)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ مجلّدات، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥.

١١ - البخاري (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم)، +٢٥٦ هـ، الجامع الصحيح، ٤ أجزاء، مطبعة الحلبي، القاهرة، لا تاريخ.

١٢ - البخاري، التاريخ الكبير، ٨ أجزاء، تحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٣٧٨ هـ.

١٣ - البلاذري (ابو الحسن أحمد بن يحي جابر)، + ٢٧٩ هـ، فتوح البلدان، علّق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.

١٤ - الترمذي، الجامع الصحيح، المعروف بـ، سنن الترمذي»، مطبعة البابي، القاهرة ١٩٣٧م.

١٥ - الثعالبي (عبد الرحمن)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، ١٣٢٣ هـ.

١٦ - الجلالين، (جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي)، قرآن كريم، المعروف بـ «تفسير الجلالين»، مكتبة الملاح، دمشق، بلا تاريخ.

١٧ - الجمحي (محمد بن سلام بن عبيد الله)، +٢٣٢ هـ، طبقات فحول الشعراء، تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.

١٨ - جوزي (بندلي)، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع بيروت، بلا تاريخ.

١٩ – ألجوهري (اسماعيل بن حماد)، + ٣٩٣ هـ، الصحاح، ٦ أجزاء، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٧٧ هـ .

٢٠ ألحداد (الاستاذ)، القرآن والكتاب، جزءان، سلسلة "دروس قرآنيّة"، لا دار نشر، ولا تاريخ.

٢١ – ألحلبي (علي بن برهان الدين)، + ١٠٤٤ هـ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، ٣ أجزاء، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠م.

٢٢ – ألحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت سنة ١٩٧٩م.

٢٣ – ألخشني (مصعب بن محمّد بن مسعود)، + ٦٠٤ هـ، شرح غريب سيرة ابن اسحق. جزءان، نشره يوسف برونله، مطبعة هندية، القاهرة ١٩١١م.

٢٤ – دروزة (محمّد عزّة)، تاريخ الجنس العربي، ٨ أجزاء، وبخاصة الجزء الخامس، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٩٨٣م.

٢٥ – ألزّبيري بن بكّار، +٢٥٦هـ، جمهرة نسب قريش، تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة ١٣٨١ هـ.

٢٦ – ألزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤ أجزاء، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة ١٣٥٤ هـ

٢٧ – ألسهيلي، +٥٨١ هـ الروض الانف... من شرّاح السير النبويّة.

٢٨ – ألسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافيّة، بيروت ١٩٧٣م.

٢٩ – ألشريف (أحمد ابراهيم)، مكّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، سنة ١٩٦٥.

٣٠ – ألطبري (محمد بن جرير)، + ٣١٠ هـ، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء، سلسلة "ذخائر العرب"، دار المعارف.... ١٩٧٩م.

٣١ – علي (د. جواد)، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين بيروت – مكتبة النهضة بغداد، ١٩٦٨ م.

٣٢ – قطب (سيّد)، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، بلا تاريخ.

٣٣ – لامنس (الاب هنري ... اليسوعي)، النصارى في مكة قبيل الهجرة، المشرق مجلّد ٣٥، سنة ١٩٣٧م.

٣٤ – لامنس، الاحابيش والنظام العسكري في مكّة، المشرق، مجلّد ٣٤.

٣٥ – مالك بن أنس (الامام)، + ١٧٩ هـ.، الموطأ، نشره الاستاذ محمود فؤاد عبد الباقي، جزءان، مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٠ هـ.

٣٦ – ألمسعودي، + ٣٤٦ هـ.، التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت، بلا تاريخ.

٣٧ – ألمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر، ٤ أجزاء في مجلّدَين،دار الاندلس بيروت ط ٢ ، ١٩٧٣م.

٣٨ – مسلم (بن الحجاج بن مسلم القشيري)، + ٢٦١ هـ.، الجامع الصحيح نشره محمد فؤاد عبد الباقي، ٥ أجزاء، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٦م.

٣٩ – ألنيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

٤٠ – الهمداني (أبو الحسن بن أحمد)، كتاب صفة جزيرة العرب، تحقيق عبد الله النجدي، القاهرة ١٩٥٣.، ولَيدِن بْرِيل ١٨٨٤م.

٤١ – وات (مونتجومري)، محمد في مكّة، تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية، صيدا، بلا تاريخ.

٤٢ – ألواحدي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨م.

٤٣ – ألواقدي (محمد بن عمر بن ...) ، + ٢٠٧ هـ.، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسون جونس، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٩٦٦م.

٤٤ – الواقدي، فتوح الشام، جـزءان في مجلّد واحد، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.

٤٥ – وهبه (حافظ) ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ١٩٥٦م.

٤٦ – اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، + ٨٩٧ م.، تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار صادر، توزيع دار صعب بيروت، بلا تاريخ.

٤٧ – Lammens, H., La Mecque à la veille de l'Hégire, Impr. Cath., Beyrouth., 1924.

٤٨ – Lammens, H., Le Berceau de l'Islam. Le climat, Les Bédouins, Rome, 1914.

٤٩ – Lammens, H., La cité de Taïf à la veille de l'Hégire, Beyrouth, 1912.

٥٠ – Lammens, H., L'Arabie occidentale avant l'Hégire, Beyrouth, 1928.



موضوعات نبي الرحمة